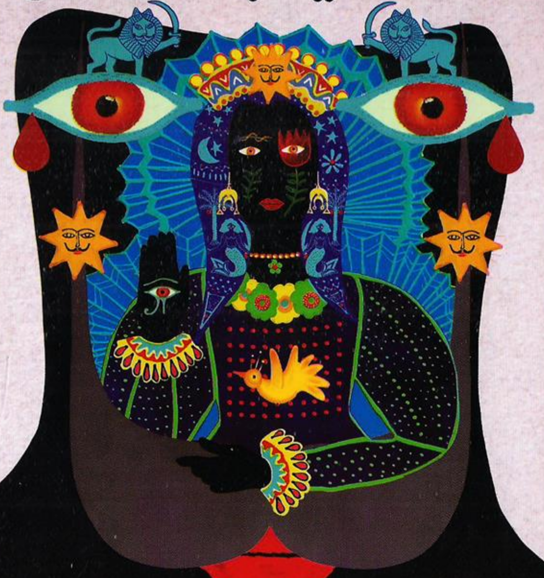
رواية

شيرين هنائي

مَلاعيب الظِّل



الرواق للنشر والتوزيع

شيرين هنائي

مَلاعيب الظِّل

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى من رحل وترك لنا مشعل التنوير موقدًا، نفتقد ظلك الذي كنا نحتمي داخله في رحلتنا. الطريق مظلم، موحش. وأنت سبقتنا إلى النور، فأنت السابق ونحن بك إن شاء الله لاحقون يومًا ما.

إلى الأعز، الأب، د. أحمد خالد توفيق.

كنـت ذاكرتي حين أبى عقلي خوض ظلام الماضي، كنت لسـاني حين فقـدت القدرة عـلى التعبير، كنت سـندي حـين مـادت الدنيا تحت قدميّ. أعدتني إليّ، ورددت إليّ روحي وقلمي.

زوجي وصديقي ودنياي، أحبك.

شكرًا..

جيداء مكي، شيم الشافعي، العزوة والسند.

ذكرى ليلة السُّكر

النـدب يخفض أصـوات النسـاء ويلهبها صعـودًا. اللطم يشـق أخاديـده على وجوههن. والأثـداء تتجلى من الجيوب المشـقوقة. لا أحد يملك ترف النظر، لا أحد يملك ترف الاشتهاء.

بالضبـط، في عمر الثامنة، تمامًا في انتصاف رحلتي نحو السادسـة عشرة، توفي أبي شـيخ النحاسين وكنت بعد لم أشرب الصنعة منه، بل لم أذقهـا حتى. كانت أمي، كديدن أهل كوم الجِنت، تخاف على ولدها من خشـونة العمل ووعثاء الارتحال من البيت إلى الحارة حيث دكان أبي والعكـس. رحلـة لا تتجاوز مقدار أكل واحـدة من القرص على ظهر البغلة، لكنها هكذا أمرت وهكذا وجب الانصياع.

ما زلت أذكر يومها كأنه حقيقة واقعة أمامي الآن، إلا أنني ساعتها كنت أشـعر أنني في حلـم ثقيل، الأصوات ممطوطـة، اللطمات بطيئة الإيقاع تتيح لي أن أرى رذاذ العرق يتطاير في تموج الخدود باللطم.

رائحة السكر المذاب تذكرني برائحة الموت. جدتي العمياء تجلس فوق التراب على باب ضريح الولي الشاهين المنوط به حفظ أهل كوم الحنت وما حولها. تهيل على رأسها التراب وتدعك به شعرها المجعد الأبيض. تنظر نحوي كأنها تراني، لحظات أتجمد فيها مكاني، ثم تعود الشمطاء إلى حزنها وعويلها وأعود أنا إلى مخططي.

لا يجوز الاقتراب بهذا القدر من الضريح وقت التحنيط إلا لأم المتوفى، ففي تسلُّلي ودُنوّي هذا خرق لكل ما هو عالي القداسة، لكن، لم لا أقترب؟ لم لا ألقي نظرة وداع أخيرة على أبي، لم لا أروي نيران فضولي؟

تدور الحمامات الأم فوق الضريح، تغني بصوت مشؤوم لا يتناسب وألوانها الزاهية ونقوش ريشها البهية.

قالت له: رايحة حبا رايحة دبا

رايحة للي خد الأم من الأبَه

قال لها: ارجعي يا عين

لأسبل عليكِي يا عين بالشمع

والرصاص

وأرميكِي يا عين في البحر

الغواص

لا منك يا عين منجاة

ولا خلاص

يرافـق الصبية غنـاء الحمامات بالصفقـات المنغمـة والتمايل يمنة ويسرة. أقترب من باب الضريح الخشـبي المذهـب وأدفعه، وعيناي لا تفارقان جدتي. مجرد فتحة صغيرة تكفي كي أحشر جسدي الضئيل وأدلف إلى الداخل.

ترتعـش سـاقاي وطبول دقات قلبي تشـوش عـلى الضوضاء في الخـارج. نافذة وحيدة عالية يتسرب منها ضوء البدر. رائحة السـكر تثير معدتي. كومة كبيرة لزجة وسط الحجرة، تتدلى من السقف حولها بحبـال، الأكف الفضية المزدانة بأعين الولي الشـاهين تحرس الجثمان. صف طويل من النمل ينقل فتات السـكر من فوق الجسـد المسـجى إلى الخارج.

سـيدنا الولي الشاهين كريم، لم يبخل على النمل بشيء من السكر، سـيدنا الولي الشاهين غافل، متغافل، لا، أمسـح وجهي وأهز رأسي طاردًا الأفكار المحرمة من رأسي. سيدنا الشاهين كريم، سيدنا كريم.

أقـترب فأرى، السـكر المصبـوغ بالوردي، المصبوب على جسـد أبي وحصانه وسـيفه قد جمد وصـيّر الثلاثة تمثالاً واحـدًا لا ينفصل. غدًا ينقلون الجسـد المحنط بالسـكر إلى الوادي الغربي وسط جثامين الأجداد المحنطة. كل رجل وحصانه وسيفه، وكل سيدة برداء زفافها وشماسـات من حلقات الـورق الملون الضخمة تزين خلف رأسـها وظهرها.

موضع عيني أبي مرسوم بالكحل الأسود كأنه يُحملق إلى السقف. تفاصيل ملابسه منحوتة على السكر، تكاد تماثل الحقيقة.

أملّس على قسمات وجهه، ينقطع نور القمر فجأة، فأنظر نحو النافذة لأرى حمامة خالتي ترفرف وتكرر "لا منك يا عين منجاة ولا خلاص"، ثم تطير آخذة معها تعقلي ورباطة جأشي.

أتعثر فأسقط بكوعي على رقبة الحصان المحنط. ينبعج السكر ويظهر شرخ يغوص مقدار أنملة إلى حيث يفترض وجود لحم الحصان.

أتلفت حولي، عين الشاهين على الكف ترمقني وتذكرني بالحلال والحرام. أنظر إلى الفجوة، تُرى ماذا تحتها؟

بيد مرتجفة أقشر جزءًا صغيرًا من السكر، أنظر إلى الداخل، فخار. هل يضعون طبقة فخار بين الجسد والسكر؟ لم أسمع بهذا قط ولا حتى من "واكد" الذي يعرف كل شيء.

أطرق على جسد الحصان فأسمع صوتًا أجوف.

على ركبتي، أزحف نحو السيف، أحفر بأظفاري، أحفر حتى أصل إلى الأرض من تحت السكر. لا يوجد سيف من الأساس!

يرتعش جسدي بالكامل وأنا أنظر إلى رأس أبي، هل...؟

* * *

على وَحَـــم النـنــي

تجلس "بكرية" أختي الكبرى أمـام الفرن تلقمه الأرغفة الطرية، يقف أولاد الجوار الصغار حولها كالذباب؛ في انتظار أرغفة "الحنون" الصغيرة المحشوة بالسكر والسمن أو البيض. لكننا بعد في أول الخبيز والنهار في بكورِه.

أجلس أنا على المصطبـة الحجرية عاري الجذع ملتفًا بإزار أبيض، أذب الذباب وأتصيد نسمات الصيف الشحيحة. أنتظر أول "حنون" حتـى في سـني هذه، مـا زالت تأبى "بكريـة" أن يأكل أحـد قبلي، أو يجلس وأنا بعد واقف حتى لو لم أنوِ الجلوس قريبًا.

تقف عـلى كتفي حمامة خالتـي الراحلة "وِد" تنظـر نحو "بكرية" ببطنها المنتفخ حملاً. يميل رأسها يمينًا كعادتها وتبدأ في الغناء المنغوم.

النني النني على وحم النني

وده هلّ التاني، يا حلاوة ع التاني

ماباكُلشي الضاني، بيتزفلط مني

يتغـير وجه "بكرية" حين تذكر أن هذا هو حملها الثاني، بعد موت الأول جنينًا ابن ثمانية أشـهر. تحاول التضاحك فتخبرني أنه ما دامت غنـت حمامـة "ود"، فروحها طلبت الرحمـة والنور. تُجنِّب في قماشـة كتانية بعض الأرغفة السـاخنة؛ كي ترسـلها إلى الولي الشاهين ليذكر "ود" بخير.

أملّـس عـلى الحمامة وأفرد جناحها في الشـمس. نقـوش المثلثات الملونة على امتدادها تلتمع في الضياء. ذكر لي "واكد" في مرة أنه حاول اصطياد إحدى الحمامات الأمهات لبيعها في بلاد الفرنج، لكن شـيئًا في قلبـه انقبـض من تلك الفعلـة. رغم عدم إيمان "واكـد" بِوَلي كوم الحنـت ولا عاداتهم، فإن كيانًا أعـلى يملي عليه الخطأ والصواب، ولا أعرف ما هو.

تمسـح "بكرية" عينيها مـن دمع ذكرى حملهـا الأول، يبدو عليها التعب فتنادي أمي كي تكمـل الخبز مكانها. تقوم فيتدلى من صدرها الحبـل المربوط فيـه حجابها المثلث وعين الشـاهين وكفه. يقولون إن المرء يموت حين ترفع عنه حماية عين الشاهين. ممّن يحميه الولي؟ ومن يقتـل أولياءه؟ أين يذهب مَن يموت بعيدًا عن عين الشـاهين؟ وهل الشاهين محدود الوجود والإمكانيات؟

تدخل "بكرية" إلى الدار فيصطدم "باقي" زوجها بها في خروجه. يرى وجهها الدامع فيسألها ما بها، إلا أنه كعادته لا ينتظر إجابة. فقط يشيح بوجهه ويلقي جسده الطري جواري. يُهوّي بمئزره وهو يشكو حرارة الجو.

الحـق أننـي لا أسـتطيع الاعـتراض على "باقـي"، فمنـذ زواجه بـ"بكريـة" وهـو من ينفق عـلى البيت مـن عمله في الـوادي الغربي.

فقط أمي هي من تستطيع ردعه بنظرة واحدة من عينيها المكتحلتين بالزرقة. شيء ما بينهما يمنحها السيادة المطلقة على كل شيء.

تنهر أمي الأطفال الواقفين وتزيح السمن والبيض بعيدًا، وتبدأ في تجهم استكمال الخبيز. يناوشها "باقي" ويستعجل أرغفة "الحنون"، فتلتفت في بطء وتسدد له نظرة واحدة طويلة، وهي تكتل قطع العجين الصغيرة الخاصة بالحنون وتعيد تشكيله لأرغفة أكبر. لا، "حنون" اليوم ليس لك، ولا لأحد.

يبتسم في لزوجة ويستدير نحوي. يفاتحني مرة أخرى في أمر زواجي بـ"نجية" ابنة شواف الشاهين. وهو رجل عتيق يعمل في خدمة الضريح، كبير خدامه بمعنى أدق، وهو المتولي أمر كل شيء في البلدة. لكن عمله الرسمي هو حمل الأخبار والأوزار إلى الولي كي يراها ويحكم فيها. ولتزويجي بابنة الشواف حكاية تتلخص في كف بصر أبيها عن أفعال "باقي" في الوادي الغربي.

ولموضوع الزيجة شق آخر يفاتحني فيه دومًا بعد موضوع الزواج، وهو العمل معه في الوادي، وهو عمل لم أستسغه كما لم أستسغ أيًّا من الأعمال المتاحة في الكوم. لو تركوني وراحتي لاخترت أن أتاجر مع "واكد" وأخرج إلى العالم الكبير الساحر بعيدًا عن الكوم وأهله وشوّافيه.

خرجت أختي مرتدية فستانها المنفوش الأسود الذي يخفي تكور بطنها، وراحت أمي تساعدها في ارتداء "الشماسات" على ظهرها، ذلك الحائل المكون من خمس دوائر متشابكة متقاطعة. قالت أمي بصوتٍ عالٍ إن شماسات "بكرية" قد حال لون ورقها، واهترأت استداراتها الكاملة، وما عادت تحجب الشمس عن ظهرها. نظرت

أمي إلى "باقي" نظرة آمرة، فهز رأسه في توتر معلنًا استجلاب أفضل الشماسات لـ"بكرية" في أسرع وقت.

يرى "واكد" أن الشماسات مجرد زينة ولا تحمي من شمس ولا حر. فما المغزى من أن تحمل النساء ثلاث أو خمس دوائر من الورق الملون على ظهورهن، تمنعهن من رؤية ما خلفهن؟ ما المغزى من أن يحاربن الرياح الهابة في وجوههن بشماسات تعمل كأشرعة تطوحهن دومًا إلى الخلف؟

تبتعد "بكرية" بحملها من الخبز للولي، بينما يشدني "باقي" كي أذهب معه إلى الوادي الغربي، لأرى بنفسي كم هو ممتع أن تنبش، فتجد العرائس الذهبية والخراطيش القديمة، جلّابة المال الوفير بالتعب القليل.

نظرتُ إلى أمي مستغيثًا فأغمضت عينيها وهزت رأسها موافقة. دعا لها "باقي" بالنصرة، فأشاحت بيدها لتكمل الخبز هاتفة: يسعدك يا "باقي"، ويبعدك.

تكمل حمامة "ود" غناءها وهي تنظر شرقًا نحو الدرب الذي سلكته "بكرية":

النني النني على وحم النني
وده هلّ التالت، يا حلاوة ع التالت
ماباكُلشي النابت، بيتبحتر مني

* * *

مين نَضَرُه مشَرّق ومغَرّب

الشـمس تلهب أقفيتنـا، ونحن ننظر إلى العـمال يُخرجون عرائس الذهـب والتمائـم العجيبة في مقاطـف، من قلب الحفـر في الأرض. يقـول "واكد" إن تلك الأشـياء هي بقايا أناس عاشـوا هنا، أجدادنا بشـكل ما، وقـد طُردوا من البلاد في زمن سـحيق. بينما يغلق "باقي" بـاب الـكلام في الموضـوع نهائيًّا بقولـه إن تلك عطايا الجن، سـكان تحت الأرض لأهل الكوم دون غيرهم. وقد سـخّر الشاهين الجن في زمن بائد لخدمة الناس، وما دمت تُعلق عين الشاهين مع حجابك في رقبتك فلن يستطيعوا لك ضرًّا.

يحضر الشـواف على بغلتـه لينظر كم أخرج "باقـي" وكم نصيب الـولي منها. الشـواف أعور، وبينـما لا يرتدي الناس سـوى حجاب واحـد مدونة فيـه مفاخر آبائهم ونسـبهم الكامل، يرتدي الشـواف أحجبـة عدة لا يعلم أحد ما فيها. سـألني "واكد" ذات يوم إن كنت أعرف على وجه اليقين المكتوب في حجابي، فأخبرته أن لا أحد يعرف

على وجه اليقين محتوى حجابه أو حجاب غيره. فالمحرمات ـ كما لا بد أنه يعرف ـ خمسة:

١ـ النظر إلى الشاهين إذا تجلى.

٢ـ العبث بالموتى المحنطين.

٣ـ فتح الحجاب.

٤ـ صيد الحمام الأم.

٥ـ العبور إلى واحة السباع.

أما المحرم السادس فهو خاص بخلع النساء لشماساتهن. لا أرى وجهة النظر من وراء تحريم تلك الأشياء، حتى إن فضولي يستعر لدى تفكيري في تحريمها علينا. ماذا لو نظرت إلى الشاهين إذا تجلى؟ ماذا لو فتحت حجابي؟ ماذا لو كسرت عنق حمامة أُمّ؟ ماذا لو عبرت الصحراء إلى واحة السباع؟ لقد فعلت خطيئة منها وها أنا أعيش تحت نظر الشاهين بلا عقاب، فماذا لو...؟

اختار الشواف عطايا الولي ثم التفت إليّ من فوق بغلته ودار حولي، سألني وهو يعاين جسدي الشاب إذا كنت اخترت صنعة أتعلمها، فأجابه "باقي" عني، إنني سأتعلم كار النبش وسيأخذ عليّ العهود السبعة لملوك الجان، فتصبح عطاياهم حِلّاً لي.

أقف جوار الركب أرمق في شرود الحمل الذهبي، يلفت انتباهي رحل به تمائم وخراطيش زرقاء، أتلفتُ حولي فلا أرى من ينظر. أمد يدي وأخرج القطعة تلو الأخرى، أتبين شكلها وحجمها. حتى وقعت في يدي قلادة ذهبية منقوشة عليها عين كحيلة تشبه

عين الشـاهين إلى حد مريب. تُرى هل عاش الشاهين في تلك الحقب الغابرة؟ أم أنه يحكم الجن كما يشاع عنه؟

لم يرني الشواف ـلحسن الحظـ أدس القطعة في جلبابي وأنا أتصبب عرقًا. أبتعد عن الرحل كأنني أنفي تهمة لا يعرفها سـواي، ثم أركب بغلتي وأرحل غير مبالٍ بنداءات "باقي" الغاضبة.

* * *

لمّا قالوا لي

لا تزال حمامة الخالة "ود" تأبى الرحيل. تطوف في سقف الدار حتى المساء وتغني. أحيانًا ما تختلط عليها الكلمات والمقامات فتشدو بكلام بلا معنى. هكذا هو الحمام الأُم، يحفظ ما يسمعه ويردده في مواقيت تسمّيها أمي "فأل الحمام"، ومنه تتطير أو تتفاءل حسب تفسيرها ومزاجها.

كنت أرتدي ملابسي وأخبئ العين القديمة التي وجدتها صباحًا في جيب جلبابي النظيف، وأضم عمامتي حول رأسي، حين أفتقد وجود العباءة السوداء والشال الحرير أزفر وينعقد حاجباي الكثيفان على انعقادهما الطبيعي، أخرج من حجرتي مناديًا "بكرية"، لا ترد فأنادي أمي. أين ذهبتا والمساء قد أسدل حجبه؟

رفرفة جناحي حمامة "ود" تشوشان على مصدر صوتها المتنامي إلى أذني. يبدو أنهما في حجرة الكرار، وصوت بكاء "بكرية" المكتوم يختلط بصوت أمي الخشن العصبي.

كانت أمي تطلب من "بكرية" أن تشكر الشاهين على أخذه بكريَّها الذكَرَ السَّقْط، وتدعوها لزيارة المقام كي تطلب بنتًا هذه المرة.

تـصرخ "بكرية" في أمي بأنها هي التـي قتلت ابنها، صوت صفعة يليه صمت مفاجئ من المرأتين.

ألصق أذني في الباب، أصغي.

لما قالوا لي ده ولد

قالت يا ليلة نكد

تاخده مني مراته

ولا ياخده الطلب

بحـذر أهش الحمامـة، ما هو الطلـب الذي يأخذ الذكـور؟ يبدو أنهـا تخرف مـرة أخرى. تهمس أمي بصوت مختلـط بالدمع أنها لم ترد لـ"بكريـة" أن تفعـل ما فعلته هي كي تحافظ عـليّ، وأنها لن تحتمل أن تـرى ابنتهـا تعيش في رعب إلى يـوم موتها، ففي هذا لا تنفع شـفاعة الولي.

أبتعـد محـاذرًا أن تسـمع إحداهمـا خطـواتي، ماذا فعلـت أمي لي وتخشى أن تفعله "بكرية" لابنها؟ وهل قتلتِ يا أمي حفيدك؟

أرتدي خفي وأخرج أتلمس نسمات هواء الليل. كم "هل" داخلي تصرخ في طلب الجواب؟ وإلى متى الصبر؟

لم أدرِ بالطريق كيف مرّ، حتى وصلت مسكن التجار. اليوم البدر الثالـث منذ رحيـل "واكد" أول مـرة. لو عرفت أمـي أنني أجالس

التجار لقتلتني ومثلت بجثتي أمام ضريح الشاهين؛ وجعلتني عبرة لمن يعتبر.

في خفة أفحص الخيول الواقفة بحثًا عن ركوبة "واكد". حصان بني لامع بسرج مطعم بالنحاس من صنعة أبي. ومن كان يملك مثل مهارة شيخ النحاسين في البر كله؟

أتلثم وأسأل عن مكان مبيته، أتسلل -وأنا شيخ صنعة التسلل إن كانت له مشيخة- إلى حجرته، وأنتظر في الظلام حتى يعود. أرى زكائب وصناديق خشبية باهرة الجمال في الركن البعيد. وعلى الفرشة ما لا يرتديه سوى "واكد". سراويل من القماش الثقيل، قميص أبيض واسع الكمين ذو ياقة عالية، وسترة زرقاء بأزرار نحاسية براقة. يبدو أنه يرتدي الآن الجلباب والعباءة على سبيل التشبه بأهل الكوم، لكن من الذي لا يعرف "واكد" ولا يعرف أنه هو الضلال يمشي على قدمين؟

ومع ذلك، يتهافت الجميع للبيع له والاشتراء منه، فهو الأكثر أمانة والأغرب بضائعَ والألين جنبًا بين جميع التجار.

لم أمس شيئًا حتى يحضر هو ويريني كل ما خفي بنفسه. أشتاق أن أرى اتساع عينيه وهو يحكي لي عن العالم خارج كوم الحنت، واهتزاز لحيته الحالكة مع ضحكاته المدوية المنطلقة.

غفوت في مكاني وصحوت على صوت الباب ينفتح، أراه يدخل ويضيء مصباح الزيت. يخرج سلاحه الإفرنجي الناري ويضعه على منضدة. يهم بأن يخلع ملابسه فأظهر نفسي له. يجفل ويسحب سلاحه. أضحك وأرفع يدي عاليًا. يلكمني في صدري ويضحك.

يحذرني من مغبة تسللي هكذا، فربما يقتلني بالخطأ في مرة من المرات.

أتطلع إلى وشـم الخريطة على وجهـه وصلعته، وقد زاد فيها رقعة تحـت عينه اليسرى. دائمًا ما يفخر بأنه يحمل تاريخه على وجهه، ظاهرًا للجميـع، وعلى الرغم من ذلك، الكل يخافه والكل يتحدث بالسـوء عنه في غيابه.

رغم سـعادتي الحقيقية بلقياه، لاحظ أن شيئًا ما يعتمل في داخلي، تراكم الأسئلة ينضح على جبيني ولا يراه إلا هو.

يخـرج كيسًـا قماشـيًّا مليئًـا بفاكهة مجففـة ومكـسرات ويدعوني لمشاركته التسـالي، وكان يطلق "واكد" على الأسـئلة (تسالي)، فإثارة حيرتي بإجاباته هي تسليته المفضلة.

كان سـؤال عن "الطلب" في أغنية حمامة خالتي قد برك بثقله فوق تسـاؤلاتي الأخرى، فتضاءلت حتى إنني نسـيت سؤاله عن منحوتة العين في جيبي. يحك "واكد" لحيته الخشـنة بكفـه متظاهرًا بالتفكير، أعرف أنه يكسب بعض الوقت ليحوك إجابته على مقاس مخيلتي.

يخبرني "واكد" أن (الطلب) هو جمع الرجال للتدريب على الحرب. خمس كلمات هي إجابته، لم أفهم منها سوى كلمتين، جمع الرجال.

يقـول "واكد" إن في زمن بعيد، كان رجال كوم الحنت وما حولها كسـائر رجـال العالم، يبتلـون بأوقـات للحرب، وينعمـون بأوقات للسـلم. وكان على الرجال الدفاع عن أراضيهم بالسيوف والخيول، ولا يقـدر أحد عـلى فنون الحرب إلا مـن يتعلمها في واحة السـباع. فـكان الرجال حـين يبلغون الحلم يرسـلون إلى الواحـة فيصل إليها أشـجعهم، ويعـود إلى الكوم أكفأهم، بينما تتـولى الفلاة أمر من يَجبن

في طريق الذهاب والإياب. وفي الحرب، يرسَلون إلى الوغى ولا يعود أكثرهم، أما الأقل فكانوا يعودون بذكرى حكايات الشجاعة ومواويل البطولة.

أسأله ما الذي تغير؟ لمَ لم يعد أحد يذهب للطلب؟ فيهز كتفيه نافيًا عن نفسه المعرفة بالإجابة ويبتسم. "واكد" يعرف كل شيء ويثير غضبي كتمانه. إن لم يجبني هو فمَن يفعل؟

يقول "واكد" إنه يحب البحث عن إجابات، يفضل أن يمنح خرائط ويترك المسافر ورحلته.

أخبره أن أمي تريدني أن أعمل مع "باقي" في أعمال النبش، فيتغير وجهه للحظات، ثم يربت على كتفي ويقول إن من نبش عثر.

يدقق "واكد" خلفي في الطاقة المفتوحة في الجدار، ألتفت لأجد ظل امرأة. فستان منفوش وشماسات في الليل. يخطر ببالي أن أسأل "واكد" عن جدوى الشماسات في الليل، لكنني أحجم حين أرى أن القادمة أمي بنفسها. تقف وتسأل الرجال، يبرمون شواربهم ويصطفون أمامها، يمنعونها؟ يتسلطون عليها؟ ينهرونها؟ لا أعرف.

أطلب من "واكد" أن يخبئني، إلا أنه يجذبني من ذراعي لأقف مكاني وأتحمل نتائج ما أفعله. يفتح "واكد" الباب ويطل منه مناديًا أمي، رافعًا عنها ما تكابده من جراء سؤالها أيًا كان.

صوت خطواتها الغضبى، تدفع "واكد" إلى داخل الحجرة وتقف أمامي لحظة، تحدق إليّ بعينيها المحاطتين بالزرقة، ثم تهوي بكفها على خدي.

تجذبني من ياقة جلبابي وتعتصر وجهي في كفها ليراه "واكد"

جيدًا. تخبره أنني ابنها وتقسم بعهدها السفلي ألّا تترك لـ"واكد" ظلاً على الأرض لو حاول التواصل معي بأي شكل مرة أخرى.

نظرات الرجال إليّ وأنا مسحوب كالبقرة ووجهي في الأرض، يعترض طريقها رجل من أهل الكوم ويأمرها كـ"حُرمة" أن تتركني، فلا يصح أن تتجرأ النساء على الرجال هكذا. تنظر إليه نظرة طويلة ثم تدفعني أمامها، فأتحرك ببطء وتسير خلفي حتى نبتعد عن الأعين، فتسير أمامي بخطوة واحدة. لا أعرف إن كانت تأبى النظر إليّ، أم تخزى. أسير على حافة الترعة وأتمنى لو تتخلى عين الولي عني فأسقط ميتًا فيها. أركل الطوب في الماء بينما تنهرني أمي عن فعل ذلك فـ"مستورة الماء" نائمة. اللعنة على مستورة الماء والنداهة والجن، وكل ما يختبئ في الظل ويتوارى خلف أسئلة بلا جواب. لن أستطيع أن أرفع رأسي وسط الرجال بعد فعلتها تلك. صحيح أن أغلبهم تجار ولا يختلطون بأهل الكوم، إلا أن الحكاية ستنتشر بين العاملين ونساء المتعة، وسأصبح مضغة تلوكها النساء في المجالس.

حمامة "ود" تطير جواري وتدور حول رأسي، أضربها بكفي فتؤلمني. تبتعد هنيهة ثم تعود، تحدق إليّ بعينيها السوداوين المقببتين. ماذا تريد اللعينة؟ لِمَ تلتصق بي منذ يوم وفاة أبي؟

أبطئ خطواتي لتصير أمي أمامي بمسافة. أقف، أولي ظهري للترعة وأترك وزني يتدحرج على الطمي ثم يهوي في الماء البارد.

أغوص، تختفي الأصوات من حولي. الحجاب الجلدي وعين الولي يطفوان فوقي وأنا أهوي. الهواء يتسلل من صدري، تتسع عيناي، ويلي، ماذا فعلت؟!

* * *

لـموا حـمـام البـــلد

تمنعهن الشماسـات من رؤية ما خلفهن، لذا سارت أمي ليلتها ولم تدرك سـقوطي إلا بعد خطوات عديـدة تفصلها عني. نادت عليّ، لم تجرؤ على الاستدارة للخلف لتتأكد من وجودي، وعندما لم تجد صوتًا ولا جوابًـا التفتـت مغمضة العينين تتلو العهود السـفلية وترفع عين الـولي أمام وجهها. لم تجدني، فظلت تدور حول نفسـها، هل هربت؟ ولأي اتجاه؟ هل سقطت في الماء؟ هل أزعجت المستورة فأخذتني؟

ترى أمي حمامة "ود" تدور حول نقطة معينة فوق الماء، تقترب من السطح الرقراق وتبتعد. لا تستطيع الحمامات أن تنطق سوى الأغاني التـي تعلمتها من مرافقة مربياتهـا من الأمهات، فظلت تغني بصوت ملتـاع "بتيجـي ليه يا بنيـة؟ كان هوانا في صبي.. إياكي يـا دي البنية تروحـي تملي تغرقـي"، وظلت تـردد "تغرقي" مـرات ومرات حتى أدركت أمي ما حدث.

تصرخ أمي فلا تجد نفسًا حولها. تشمر فستانها وتنزل على المنحدر

الطيني، تنغرس ساقاها حتى الفخذين فتلقي بجسدها على سطح الماء. الشماسات تطفو وتمنعها من الغطس. تلطم وتندب. تقبل عين الشاهين المدلاة من صدرها وترتعد وهي تخلع الشماسات للمرة الأولى خارج المنزل منذ زواجها في الرابعة عشرة من عمرها.

هذا ما حكته لي "بكرية" فيما بعد. تقطع أختي الدجاج بأصابعها وتضع القطع في فمي، وأنا بعد أعاني اعتلال صحتي. بالطبع أستطيع إطعام نفسي، لكنها عادة "بكرية" إذا مرضت.

تظن "بكرية" أن سبب شرودي هو حزني على خصام أمي، تدعو إن لم أبتسم وأَعُدْ إلى سابق عهدي أن يتقطع جسدها مثل هذه الدجاجة في يدها. تشبيه قبض قلبي ومعدتي معًا. أبتسم رغمًا عني. لو تعلمين يا "بكرية" سبب شرودي لما صدقتِني.

في قاع الترعة، حيث رقدت على ظهري، ضوء القمر ينير لي الحجاب وكف الشاهين، أتساءل عما يجذبني إلى القاع هكذا، فليست هذه المرة الأولى التي أنزل فيها الماء. كلما حاولت الصعود إلى أعلى جذبني ثقل شيء في ملابسي. تحسست ثنايا القماش وصدري يفرغ من الحياة فوجدتها. المنحوتة التي سرقتها قد صار وزنها قناطير، مغروسة في الماء تجذبني كمرساة سفينة من التي يحكي لي عنها "واكد".

حاولت أن أخلع الجلباب، فاستوقفني ثقل الماء المتزايد كأنني أغوص في عجين. كيان شفاف كالماء، كثيف كالطمي، يحيط بي. لن تصدقني "بكرية" إن قلت لها إنني شعرت ساعتها فقط بأمان غريب لم أشعر بمثله قط. صوت لا يشبه أصوات البشر، كأنه خرير منغم،

إلا أنني أفهمه، أفهمه لأنه بشكل ما صار جزءًا مني.

يطلب مني الصوت أن أقرأ حجابي. أرى الحجاب طافيًا أمامي وقد انفكت خياطته، ينفتح ببطء ليتولد من طياته المثلثة مربع كامل، منقوش بخدوش لا أعرف معناها.

في الأساس، لا يوجد لأهل كوم الحنت لغة مكتوبة؛ لذا لا نقرأ ولا نكتب. فقط الشوافون هم من يتقنون اللغة القديمة، وهم من يكتبون سير الآباء المحكية شفهيًّا في الأحجبة.

يطلب مني الصوت أن أكتب في حجابي إن كنت لا أقرأ. كيف يكتب الأمي؟

يطلب مني الصوت أن أنظر جيدًا إن كنت لا أقرأ ولا أكتب. إلام أنظر ولا يضيء القمر أمامي سوى صفحة حجابي؟

يخبرني الصوت أنني قد جئت للمستورة؛ لذا استحققت نعمة النظر. ينقطع ضوء القمر عني بظل لامرأة تطفو بشماساتها، وأرتفع أنا كفقاعة نحو الظل ثم أندمج في الظلام.

ترحل "بكرية" لتحضر لي الماء لأغتسل، أمد يدي في صدري وأخرج الحجاب. مغلق كما كان دومًا. كدت أعيده إلى صدري لولا أن لاحظت ثقوبًا تشي بخياطة قديمة انفكت، بينما الخيط الجديد قد ثقب مكانًا مجاورًا للقديم. هذا الحجاب قد انفتح بالفعل وقد خاطه أحدهم مرة أخرى. لقد قابلت بالفعل مستورة الماء!

* * *

يا حابس المستور

عافت أمي الزاد من يوم سقوطي في الترعة، صارت لا تخبز ولا تخرج ولا تتحدث. فقط تنظر إليّ في شرود وتشيح بوجهها عني إذا خاطبتها. تطلب "بكرية" مني أن أصحبها مع "باقي" إلى الولي، فلربما مسها جني أو مستور حين نزلت الترعة ليلاً.

لأجل أمي أفعل أي شيء، لكنني أشعر بخدعة ما في الأمر ما دام ذُكِر "باقي". ربما يريدون استدراجي إلى هناك ظنًّا منهم أن المستورة مسّتني، وأنني لهذا أشرد كثيرًا وأكثر التجوال في الوادي الغربي متحججًا بالعمل.

الحقيقة أن كل ما يعتقدونه صحيح، فقد مستني المستورة ومنحتني نعمة الرؤية. لو رأى "باقي" ما وجدته بمفردي وأخفيته لمات هلعًا. نعم، أنا أنبش دون عهود لملوك الجن، أنبش ولا يراني الشاهين ولا شوّافوه. أملك لفافات جلدية تحمل نقوش الأولين. للمرة الأولى بالأمس أجد لفافة مرسومة، تحمل صورة رجل بشارب ضخم

ملتف ولبدة أسد حول رأسه وسيف مشقوق الطرف في يمناه التي تشبه المخالب. ورأيت خلفه أناسًا يحملون رؤوس حيوانات على أكتافهم بديلاً لرؤوسهم، ورجالاً ينتظرون في صف على خيول سود.

ما رأيته يدفعني دفعًا للمزيد، ولا مزيد إذا ضيقوا عليّ تحركاتي وراقبوني. لا بد أن أكف عن الاعتراض والامتعاض. وافقت على زيارة الولي وتركت ما سيحدث هناك لوقته.

تجهزت أمي بالملابس الملونة الفاقعة، فهي ألوان كما يظنون يحبها الجن والمستورون، وكان ذلك في ثالث أيام الأسبوع، فهو اليوم الذي حبس فيه الشاهين الجن عنا وسترهم.

تركب أمي في الهودج المغطى وأسير و"باقي" جوارها نرمي الملح خلفنا. مقام الشاهين مصبوغ بدماء الغروب. يرى الشوافون والخدام قدومنا فيهرعون نحونا منشدين للولي:

"يا حابس المستور،

اكشف مستور حبيبك اللي جالك وزار مقامك،

يا حابس الجان، فرج كربة الغلبان".

يحمل الخدم أمي ويولون رأسها شطر المقام. يريحونها على الأرض وهي بعد لا تنزل ناظريها عني. وجهها ملطخ بأنهار الكحل الأزرق السائل من بكائها الصامت نادر الانقطاع.

يسأل الخادم عما حدث لأمي، فأجيبه بأنها سقطت في الترعة ليلاً،

ليكمل "باقي" أنها كانت تحاول إنقاذي من الغرق. يسأل الخادم إن كنت سقطت في الماء ليلاً، فأجيب بأنني سقطت وخرجت ولم أرَ شيئًا. يغمغم الخادم عن كيف سأرى المستور إن كان مستورًا؟ وإلا فالسؤال هو هل رآك أحد المستورين؟

حدجت "باقي" بنظرة نارية، فلم يبالِ لثخانة جلده وعقله. كدت أبتعد فناداني كي أجلس جوار أمي في أثناء الطقس، فلا يجوز لرجل غريب أن يحضر زارًا لامرأة.

يطلب الخادم مني النذر، فأناوله قطعًا ذهبية في صرة. يزنها بيده ويضعها في صندوق، ثم يوثق يدي أمي خلف ظهرها ليبدأ الخدم في دق الدفوف بوتيرة بطيئة. تتجمع زائرات الولي من النساء، ينظرن ويبتهلن للولي بصوت رفيع نائح.

يبدأ الخدم في دحرجة جسد أمي في التراب ثلاثًا، ثم يضربون جسدها بعصي صغيرة رفيعة في اتجاه واحد من كتفيها حتى قدميها.

يسدل الظلام أستاره فيما يضيء الخدم المشاعل. يفكون يدي أمي فتمد كفًّا مرتعشة نحوي. أمسك كفها المتربة مجروحة الأصابع من أثر التراب والحصى. ماذا حدث لكِ يا أمي؟ لو الأمر بيدي لحملتك وجريت بك خارج كوم الحنت، خارج الفلاة وواحة السباع، خارج الظل والمستور والمفروض. فقط لو كان الأمر بيدي، فقط لو أجد إجابات عن أسئلتي.

تساعد النساء أمي على النهوض للرقص والتمايل على الإيقاعات بينما خرج منشد من الحجرات الطينية المقامة خلف المقام، يرتدي قناع صقر من الجص، يشبه من رأيتهم في النقوش القديمة.

ينشد بصوت رخيم بلغة لا أعرفها، فتشير النساء إلى المقام وهن يتمايلن وتهتز شماساتهن. أتراجع ذعرًا من وسط كل هذا الجنون ليتلقاني الشواف الأعور. يتأبط ذراعي ويسير معي نحو الحجرات. أبحث عن "باقي" فلا أجده.

ندخل معًا، الحجرة بلا أثاث، حوائطها مزدانة بنقوش مصفوفة لعين الشاهين، ورائحة بخور تنبعث من صحن فخاري كبير في المنتصف. يسألني الشواف عن حالي وأحوالي، عن عملي، وعن ترحالي إلى آخر الوادي الغربي. أجيبه إن كان رأى شيئًا فهو حقيقي، وإن لم ير فلا شيء مما يظنه يحدث. يبدو ردي متحديًا واثقًا، بينما أوصالي ترتعد في ملابسي. لا أعرف الحقيقة وراء الشوافين وما ينقلونه إلى الولي من أفعالنا، لكنني أعرف جيدًا ما يحدث لَمن يظنونه مذنبًا، أعرف "الوسم" وأرى العار في أعين الموسومين بحرق عين الصقر على جباههم. يقولون إن المذنب يستيقظ صباحًا بهذا الوسم على جبينه في حال حكم الولي عليه. لكنني أعرف أيضًا أناسًا موسومين بعين واثنتين وثلاثًا، وأناسًا موسومين بالمعرفة مثل "واكد". جزء مني لا يصدق كل ما يتعلق بالشاهين، وجزء آخر ينتظر الوسم على جبيني كل صباح.

يسألني إن كنت أبحث (عنه)، يرتجف قلبي، عن ماذا يظنني أبحث؟ يشير بيديه راسمًا ما يشبه المكعب أو الصندوق. ماذا يعني؟ أخبره أنني لا أعرف ما يتحدث عنه. يمد يده الباردة كالحية ويمس جبيني الندي بالعرق.

في الخارج أسمع خادم الولي يسأل أمي بصوت جهير عن اسم المستور الذي يستحوذ عليها. يمدح المستور ويخبره أنه متأكد أنه من

أصـل طيب ولن يـؤذي المرأة. لا إجابة تأتي مـن طرف أمي. صوت ضربـة لاهبة من عصا الخادم على لحمها. أحاول أن أقوم فيمسـكني الشواف بقبضة كادت تهشم رسغي.

ينشد المنشد بلغتنا:

وسيدي الشاهين إن ما اتكلموا لأحرق

اللي معاكم وأضرب

واللي وراكم وإن كان في الهوا طاير

وعارف مكر وحوايل.

يسـألني الشـواف عن طلب مسـتورة الماء مني، أتجاهل سـؤاله، فيخـبرني أن مـن يقبـل شرط المسـتورة ينجـو، ومن يرفـض يمُت. ملاقاتها هلاك، والموت هلاك، والانصياع لأمرها هلاك. فماذا طلبت مني؟

أخـبره أننـي لم ألـق مسـتورة ولا غيرهـا، فقـط وصلـت للقاع وصعدت فالتقطتني أمي.

يرفع حاجبًا متشـككًا، ثم يقوم ويتركني، حرًّا، مقيدًا بألف عين. أخرج وأقف عند الباب. صف طويل من الحجرات يمتد عن يسراي، نساء قادمات من أجل الحَبَل، يدخلن محمولات شبه فاقدات الوعي، يتسـلمهن رجال لا يميزهم عـن غيرهم ولا عن بعضهم شيء، بشرة قمحية، شـوارب مبرومـة، عمائم وجلابيب. يبـدون مثل كل رجال البلـد، حتـى إنهم لا يرتدون الـزي الأخضر للشـوافين وخدم الولي والمنشدين.

"واكد" متشـكك كعادته، "واكد" يسـألني إن كنـت أصدق أمر

الوسم الذي يظهر بين ليلة وصباحها، إن كنت أصدق أن الولي يمنح النساء أطفالاً في أرحامهن أم أن خدم الولي هم من يفعلون، التساؤل الأخـير يعـصر قلبي شـكًّا وخزيًـا في آن. "بكريـة" لم تنجب في أول زواجهـا لفترة طويلة وسـاعدها الولي في حبلهـا الأول والثاني. ترى ماذا يحدث داخل الحجرات المغلقة؟ هل تعرف "بكرية"؟ هل تعرف أمي؟ هل يعرف "باقي"؟

كل الإجابـات هنـا، داخل أسـوار الضريح ومحيطـه. كيف أجد إجاباتي وكيف أنظر إن كانت الأعين تثقبني تفحصًا منذ دخلت؟

أحاول اختراق صفوف النسـوة حول أمي، كانت المسكينة راقدة عـلى الأرض معفـرة بالـتراب، وقـد ازْرقّ ما انكشـف من سـاقيها وذراعيها، وفقـدت الوعي. أبعد الخادم عنهـا فيتدحرج على ظهره، يرمقني شـزرًا. أحمل أمـي وأنادي على "باقي". تـكاد عروق جبهتي تنفجـر كبتًـا وغيظًا، بأي منطـق يبتلعون ما يفعلـون؟ إن كان للجن والمستورين وجود فهم أرحم على أمي من أبناء جنسها.

يظهر "باقي" ماسـحًا آثار البوظة عن شاربه، يسألني متفائلاً عن النتيجة فلا أرد، يشـعر أن شـيئًا ما ذهب في اتجاه لم يرسمه له. حاول التلكؤ والبحث عن الشـواف أولاً، إلا أنني كنت قد وضعت أمي في الهودج وبدأت التحرك بها.

ظل طيلة الطريق يسـأل ويدور حول المستورة والجن والزار وكل ما يطبق عليّ بظلامه حتى وصلنا. لم أتعشَّ، أمضي الليل متكورًا حول نفسي جوار أمي، تتردد في أذني أناشيد المنشد باللغة القديمة.

* * *

دنـــيا تـــجاريـــب

أنهمك قدر استطاعتي في أن أبدو كما يريدون، كي أعطي نفسي غطاءً لما أنوي فعله. أمسح على جبين أمي وأخبرها أنني ذاهب مع "باقي" لتلاوة العهود الخاصة بكار النبش كما أرادت دومًا. تفتح عينيها عن آخرهما وتحاول أن تقول شيئًا لكن كلماتها جاءت غير مفهومة، خاصة مع اعوجاج ركن فمها وانغلاق جانب شفتيها الأيسر. تسوء حالتها بالفعل لكنها للمرة الأولى تبدي رد فعل ما عن أي شيء نقوله حولنا.

يقول "باقي" إنها بشارة لي، وإن هذا هو تعبير أمي عن استحسانها لاختياري كار النبش. أقطب جبيني في وجهه، فكيف يستنتج هذا الرجل أي شيء من أي حدث لصالحه؟

كان هياج أمي تحذيرًا، لكن لماذا تحذرني من شيء طالما دفعتني لفعله؟ اليوم مدفوع أنا بكلمات مستورة الماء، يجب أن أرى وأنظر. لربما كان في ذلك هلاكي كما قال الشواف، لكن أي حياة تلك التي

سأحرص عليها دون أن أمحو جهلي؟

* * *

أقف و"باقي" وسط جدب الوادي الغربي. بعد انتهاء الوادي والمقابر تبدأ الفلاة المحرمة، حيث أرض الجان وقوانينهم. يقول "واكد" إن الرجال الذاهبين لـ"طلب" قديمًا كانوا يعبرون الوادي الغربي، ويحيون جثامين أجدادهم المحنطة تحت التراب، ثم يتخذون سبيلهم في الفلاة إلى واحة السباع. ترى ماذا كانوا يرون في طريقهم ويشهدون؟ هل ما كان يقتلهم الجن أم وَهَن النفوس؟

أركع على ركبتي، ويقف "باقي" أمامي يتلو كلمات باللغة القديمة، يطلب مني أن أرددها، أقاطع الطقس وأسأل "باقي" إن كان يعرف اللغة القديمة، فيجيب في ضيق واستعجال بأنه يحفظ الكلمات كما هي ولا يعرف ماذا تعني. فقط يتناقلونها شفهيًّا من أستاذ إلى تلميذ، وسأحفظها بدوري من تكرارها أمامي كلما انضم مستجد للكار. بذلت جهدي كي أركز وأحفظها من أول مرة. لا أعرف كيف أستفيد بها، لكن كل الإجابات مكتوبة بتلك اللغة.

أشعر ببرودة غريبة، لا علاقة لها بانصرام الصيف ودخول الشتاء، برودة تنبع من عظامي وتُرجِف الكلمات على لساني. يسألني "باقي" إن كنت بخير فأهز رأسي إيجابًا. يبدو قلقًا بشكل خاص، لكنه يكمل وهو ينظر إلى وجهي مترقبًا أي تغيير. دوار عنيف يطوحني من ركوعي، أدقق النظر لأجد ثعبانًا أسود ينسلّ نحونا من بين الصخور. يدفعني "باقي" ويرفع حجرًا ينهال به على رأس الثعبان. ينظر إليّ

لاهثًا ويأمرني أن أقف. يصب الماء على وجهي من القربة. ما زلت أشعر بشيء غريب حولي، ريح لا يشعر بها سواي، صداع، دوار، لكنني أتماسك وأسأله عن كيفية البحث عن أماكن الكنوز. يحدق "باقي" إلى وجهي قلقًا، فأصر على أنني بخير، قلة النوم ومعافاة الطعام بسبب حالة أمي أضعفتني لا أكثر.

يبدو أنه صدقني، يسير أمامي ممسكًا نبوته مشيرًا إلى صخور منقوشة سبق وحفر تحتها، ليريني الصلة بين عمق النقش وعمق الدفينة واتجاه الحفر بحثًا عنها. كان الأمر أعقد مما ظننت، لم كل هذه التفاصيل بينما نبشت أنا في نهاية الوادي ووجدت أشياء؟ هل تلك الطقوس شرط للعثور على كنوز ذهبية قيمة بينما ما أجده أنا مجرد كتابات بلا ثمن؟ يجوز.

أسأل "باقي"، لأي غرض يعطينا الجن تلك الكنوز؟ ولماذا يدفنها ونتكبد نحن عناء البحث عنها ما دامت ملكًا لنا؟ يجيب "باقي" بأن الكنوز فرض على الجن حسب عهدهم مع الشاهين، لكنهم قوم متلاعبون، ليقللوا الكنوز الممنوحة للرجال يخبئونها ليستحيل على الأشخاص العاديين العثور عليها، ومن ثم إخلاء الوادي من الكنوز في لحظات.

أسأله، لم تم اختيارنا بالذات لكار النبش؟ يخبرني أن الشوافين هم من يختارون، وهم الرقباء على كل شيء. أشعر أن هناك خللاً ما في منطقِه، لكن "باقي" رجل بلا منطق، فلا يجوز سؤاله عن أي شيء وانتظار إجابة لها علاقة بالسؤال.

ما إن غادرنا الوادي حتى شعرت بتحسن كبير، بدا أن "باقي"

لاحظ تحسني الحقيقي فراح يحكي بلا سياق محدد عن الجن، وكيف أنهم نوع من المستورين لهم سطوة وسلطة ليست عند بقية جنسهم. يقول "باقي" إن أرض كوم الحنت كانت مسكونة بالجن بالكامل، يعيشون معنا ويختلطون بنا، بل ويجبروننا أحيانًا على تزويج بناتنا برجالهم. حتى نزل الشاهين من السماء فحبسهم بالعهود السفلية، وجعلهم في أرض الفلاة لا يعبرونها ولا يختلطون بنا ولا نراهم. إلا أن بعضهم يحاول خرق تلك العهود بين الحين والآخر. يعود "باقي" ويضرب المثل المحبب لديه عن مستورة الماء، المستورة التي تعشق رجال الإنس وتغويهم؛ فيذهبون إليها ولا يعودون. أما من يعود فتمهله زمنًا يفسد فيه نفوس الناس وعقيدتهم، ثم تأخذ روحه بعيدًا عن رحمة الولي وشفاعته للأبد.

كان يحكي ويراقب تعبير وجهي، كنت أمثل الاستغراب والقلق، أستحضر وجوه الناس عند سماعهم تلك القصص وأفعل مثلما يفعلون، حتى إنني كدت أبصق داخل صدر جلبابي كما كانت أمي تفعل عند سماع سيرة المستورين.

يحكي "باقي" عن أن هناك رجالاً أيضًا يسعون للاختلاط بالجن، فيعوذون بهم ويطلبون منهم حماية ممتلكاتهم ودفائنهم في الوادي. أسأله إن كان وجد دفائن لأناس من البشر في الوادي، فيغمض عينيه نافيًا، فمن يدفن شيئًا في الوادي لا يجده إلا من دفنه وأولاده من بعده. لكن ماذا تكون دفائن البشر مقارنة بكنوز الجن لتستأهل المشقة وتعب النبش من الأساس؟

قبيل الدار يسألني "باقي" إن كنت بالفعل بخير، فيجب عليّ أن ألاحظ أي تغيير يطرأ على حالتي الصحية في الوادي، فربما ذلك

التعب نذير برفض الجن العهد مني، وهذا أمر يهدد حياتي وحياته.

أقسم له بحياة الولي الشاهين إنني بخير، ولن أغامر بحياتي في مواجهة جن رهيب كما يقول عنه. يربت على كتفي وينزل عن بغلته، تستقبله "بكرية" وتأخذ منه شاله وعمامته، ثم تقف مكانها في انتظاري. تمسكني من كتفي وتُقبل جبيني. تدس في يدي فطيرة صغيرة تقطر سمنًا وعسلاً، وتبتسم، تمامًا كما كانت تفعل معي وأنا طفل. تلك العطايا الصغيرة والقُبلات والربتات هي ما تكبلني خوفًا من فقدهم، وهي الأسباب ذاتها التي تحررني لأحلق بعيدًا عن عين الولي وظلاله وظلامه.



والغُز قامت ع الرجـــال

لم أُرد أن أكون قاسيًا إلى هذا الحد، ولم أدرك مدى قسوتي إلا حين خرجت الكلمات من فمي. أردت أن أذهب إلى "واكد" لسـؤاله عن اللغة القديمة، ولذلك الشأن وضعت خطة حويطة. لكنني أردت أن أخبر أمي أولاً أنني أعمل رسـميًا الآن بكار النبش، وعليه فمقابلتي للتجار -وليس مقابلتي لـ"واكد" تحديدًا- أصبحت أمرًا حتميًا؛ حتى أبيعهم ما أجده من لقيا تحت إشراف "باقي" بالطبع في البداية. إلى هنا لم يتغـير تعبير وجهها ولم تحرك عينها المفتوحة عن نظرتها إلى السـماء، وهي ممددة على المصطبة تتلقى أشعة الشمس على جسدها الذابل.

شـعرت سـاعتها أنني أخـون ثقتهـا إن لم أخبرها بأمـر مقابلتي لـ"واكد"، فهي لن تعرف أبدًا ماذا أفعل وإلى أين أذهب ما دام سكن جسـدها هكذا عن الحركة. أخبرتها أنني أرى أن أتعامل في تجارتي مع "واكد"، فهو رغم كل شيء صديق قديم لوالدي، وبشهادة الكارهين قبـل المحبين هو الأكثر أمانـة بين التجار، ولن تـرضى لي أن يغافلني تاجر آخر في بداية حياتي كنباش.

ارتعد جسـد أمي وهي تحاول أن تقوم مـن رقدتها. صارت تزوم وتهـرف بكلمات ثائـرة. جاءت "بكريـة" من داخل الـدار والعجين يكسـو ذراعيها حتى الكوعـين، ويتدلى منه في خيـوط ممطوطة تبقع ثوبها الأسـود. تسـألني ماذا حدث، أتظاهر بعدم المعرفة، أضع شالي علـى كتفي وأركب بغلتـي هربًا. لم أنظر خلفي حتى تلاشـى صوتها وصوت "بكرية" تحاول الاسـتعانة بعين الولي لحراسـة أمها من الجن الذي مسّها.

الغريـب في أمر أمي أنها عادت بي يوم غرقت، وحكت لـ"بكرية" في كلـمات حيرى متلعثمة ما حدث، ثـم صمتت، ومع الوقت تعطل الجانـب الأيسر من جسـدها عـن العمل، وفقدت كل قـدرة لها على الكلام أو الحركة. لا يوجد تفسير آخر سوى ما قالته "بكرية" وعززه "باقي"، إن الجن قد مسّـها فور نزولها الماء ليلاً، بينما أضافت "بكرية" همسًـا وهي تدير أصابع كفها المضمومة حول قمة رأسها، وتبصق في فتحة صدر فستـانها، أن العجائز يقولون إن الشماسـات تقي النسـاء بطـش الجن السـائر خلفهـن. فأمي قد نزلـت في الماء ليـلاً وخلعت شماسـاتها ـوهي تعرف العواقبـ مـن أجلي، أنا الذي فعلت لي ما لا تريده لـ"بكرية" فعله لابنها، أنا الآثم العاق الذي شطر قلبها للتو.

* * *

في منـزل التجار، كانت الحركـة غير معتادة، قافلـة جديدة أتت، لكـن الحديث بين الرجال على أشـده، "واكد" يقف وسـط المجلس تحـت أول غيـام الشـتاء، أربطة قميصه نصـف مفكوكـة تتطاير مع الريـح. أقترب وأربط بغلتي، أمشي محاولاً استبانة مـا يقال، التجار

الآتون عبر البحر من بلاد الفرنج يزعمون أن سفن الحرب تتجه نحو الأراضي المجاورة لكوم الحنت، "واكد" يذكر أنباء سمعها هو الآخر ولم يصدقها، الفرنج آتون للاستيلاء على الأرض والدفائن والرجال، الفرنج يملكون "مدافع وبنادق"، الفرنج يعرفون من فنون الحرب ما اندثر من دهر عندنا.

الرجال من كوم الحنت يضحكون ملء أفواههم من تلك الأنباء، كيف للفرنج أن يعبروا إلينا ويهتكون ستر الولي؟ كيف سينفذون من تحت نظره دون الفتك بهم؟ كيف سيرفعون أسلحتهم في وجود الشاهين وشوّافيه وخدمه؟ كيف سيكسرون وعد الشاهين بحفظ كوم الحنت للأبد؟

يتفرق الرجال راكبين بغالهم بلا بيع ولا اشتراء حتى يعود التجار إلى رشدهم. يراني "واكد" فيطلب مني أن أعود من حيث أتيت إن كنت جئت متسللاً دون علم أمي. أطمئنه بأنها تعرف، ومن اليوم فصاعدًا الكل سيعرف أنني ألقاه علنًا في الصباح وتحت الشمس. يبتسم رغم الهم المخيم على عينيه. نجلس أرضًا ويطلب لنا مشروب البن الذي يحضره من الشرق ويشربه الرجال فقط دون النساء في كوم الحنت، وهو اعتراف ضمني منه بأنني صرت رجلاً.

"واكد" مظلم الوجه، يرى نهاية كوم الحنت آتية، بينما رجالها يتواكلون على الشاهين وعهوده التي لا يملكون لها إثباتًا. كون أن الكوم لم يحدث له مكروه منذ عقود، لا يثبت أنه محروس للأبد. هم فقط رجال فقدوا عزتهم وراحوا يبيعون أرضهم وممتلكاتهم طوعًا للفرنج، فلِمَ يتكبد الفرنج عناء الحرب على أشياء يحصلون عليها طوعًا؟

أسـأله إن كان كلامه صحيحًا، فلِم يحاربنـا الفرنج الآن؟ يشرد، ثـم يرد بأن الفرنج كانوا يقبلـون بما يعطيه أهل الحنت كي لا يدخلوا في حرب مجهولـة النتيجة. الآن، الحرب مضمونة العواقب، لن يقف أمامهم أحد ولن يقتل منهم أحد.

يسألني "واكد" عن خيول رجال أهل الكوم، فأخبره أنهم يركبون البغـال، أما الخيـول فيسـتخدمونها في الأفـراح للمباهـاة والرقص المنغم. يسـألني عن السـيوف فأجيبه بأنها معلقة على الحوائط، صدئة الأنصال، ثقيلة على السـواعد الطرية الضعيفة. يسـألني عن الرجال فأصمـت. الحقيقة يا "واكد" أني لا أرى سـوى شـوارب تتدلى منها مخلوقات، هي دمى في أيدي نساء كوم الحنت. في العلن هم أصحاب الكلمة والمشورة، وتحت أسـقف البيوت يكونون مطأطئي الرؤوس كالمدينين لنسائهم.

أسـأل "واكـد"، بِم يدين الرجال للنسـاء في كـوم الحنت؟ يجيب بكلمة واحدة "حياتهم". أسـئلة تتراكم فوق جهـلي القديم. الإجابة في الوادي ونقوشه وخباياه أو تحت قبة الولي وظلاله.

يعـرف "واكد" مني أنني أعمـل الآن في كار النبش، وأريد منه أن يعلمنـي من لغة القدماء ما يعينني عـلى معرفة القطع ذات القيمة من القطع الزائفة. تلك هي خطتي، فلو طلبت منه تعليمي اللغة القديمة لرفـض، أو ماطـل أو أي شيء مما يجيد "واكد" رد أسـئلتي به. متأكد أن "واكـد" يعرف الشيء الكثير من اللغـة القديمة، ما يتيح له معرفة حقيقة ما يباع له من كنوز.

تعجـب "واكد" من طلبي المنفصـل تمامًا عن واقع الخطر المحدق بنـا. لكننـي رأيـت في عينيه فهـمًا أعمق. هـذا الرجل يعرفنـي أكثر

مما أعرف نفســي، ولن يجدي معه ما اعتاده من ملاعيب يمارسها على كل من حولي.

يعلمني "واكد" سريعًا كيف أكتب اسمي واسم أبي؛ بعد إصراري على ذلك، وبعض الكلمات الشائع وجودها في اللفائف والمنحوتات. (سـباع ـ حـرب ـ ملوك ـ شـجاعة ـ عـين ـ لعنة) كلـمات لم أتصور وجودها على دفائن الجن، ولا حتى آثار أجدادنا إن كان كلام "واكد" حقيقيًّا عن ماضي أرض كوم الحنت.

أدس أول دروسي الغاليـة في صِـدري، وأخـبر "واكـد" بقـرار زواجي بابنة الشواف بعد ولادة أختي. أقوم وأنا مستمع كوني للمرة الأولى أثير دهشـة "واكد"، الأغرب أنني قد أثرت دهشتي شخصيًّا، فحتى لحظـات، لم أكن قررت أن أقبل بالـزواج بـ"نجية"، لكن يبدو أنني بالفعل ما عدت أعرف الكثير عن نفسي.

* * *

حجاب منقوش

تأكدت من أن جميع من في الدار قد غفلوا، أغلقت باب حجرتي ونبشتُ أرضها أخرج ما خبأته من قطع منقوشة. أدرت قطعة نقش العين ونظرت إلى الكتابات على ظهرها أقارنها بما خطه "واكد" لي. تحت نور مصباح الزيت الخفيض أتلمس موضع كلمة "عين"، "سباع"، وكلمة "لعنة". هل العين تلعن أم أنها هي الملعونة؟ ما دور السباع في نص كهذا؟

فتحت اللفائف ووجدت الكثير من الكلمات التي كتبها لي "واكد"، لكنني فشلت في أن أستنتج معنى كاملاً للمكتوب. ربما أجد غدًا بوصة أو ريشة وسائلاً ملونًا أكتب به. كلمات كثيرة تتكرر في اللفائف ولا أعرف لها معنى، ربما يساعدني تدوينها على المعرفة، ربما أحمل كل ما وجدته وألقيه في حجر "واكد"، لكن هل سيساعدني أم سيزيد أمري تعقيدًا؟

واريتُ أسراري الثرى وتمددت على فرشتي. ينزلق الحجاب إلى

تحت إبطي. الحجاب، ترى ما المكتوب فيه؟ هل أجرؤ على فتحه؟

قمت من رقدتي وقد بدأ عرق التوتر ينساب من جبيني مغرقًا عنقي وصدري. خلعت الحبل المربوط إليه الحجاب لأرى الأخير جيدًا. القطعة الفضية التي تمثل كف الشاهين المفرودة تتوسطها عينه تبادلني النظرات. يخيل إليّ أن العين تتحرك، ترمش، تحدق، تضيق، تتوعد.

مزقت الخياطة بأسناني، وحاولت أن أسيطر على ارتعاش أناملي. تسقط كف الولي أرضًا فلا أبالي بالتقاطها، تتكشف لي النقوش داخل الحجاب، بالضبط كما رأيتها في قاع الترعة. لم أكن أهذي، المستورة حقيقة، أمرها لي بالنظر حقيقة؛ تُرى، هل الشاهين حقيقة هو الآخر؟

المفترض أن أجد اسمي واسم أبي وصنعته وسط المكتوب، أفتش في بداية الكلمات فلا أجد. أقرّب الحجاب من مصباح الزيت لأرى أفضل، أشم رائحة الجلد الموشك على الاحتراق. لا أجد اسمي، ولا اسم أبي. لا أجد أيًا من الكلمات العديدة التي خطها لي "واكد".

ما معنى هذا؟ رسم الحروف هو ذاته في كلمات "واكد" واللفائف والحجاب، لكن الكلمات في الأخير لا تشبه أيًا من الكلمات التي سبق وتعلمتها.

طبقت الحجاب مرة أخرى وقد وجدت نفسي في مأزق إعادة خياطته. من خاطه المرة السابقة؟ أمي؟ "بكرية"؟ المستورة؟!

في الصباح لم أجد لي شهية للإفطار، خاصة أن حمامة جدتي لأبي ذات العينين البيضاوين قد جاءت للمرة الأولى منذ وفاة العجوز. دخلت الدار فارتطمت بالحوائط والشخوص حتى حطت وسط

طبـق الجبن القديم وسـط الطبليـة. إن كانت عميـاء، فكيف عادت لدارنا؟

هرعت "بكرية" تنظفها، وتجبر كـسر جناحها الأيمن بعجينة من البيض والدقيق وقطعة خشـب. كانت عفـراء، ألوانها الزاهية متربة. لكنها ما زالت قادرة على الغناء بصوت خشن مبحوح.

خلي الشجيع نايم وارمي الحِرام عليه

وإن اشتاقت له أمه تقوم تشق عليه

موت الشاب له غارة

وإذا كان غريب مش من الحارة

كانت جدتي تنوح بتلك الكلمات أمام الضريح يوم تحنيط أبي، هذا فأل سيئ كما يقولون، فأل سيئ كما أشعر بالفعل.

إحسـاس الذنب يقهرني، أكاد أشعر بوسـم عين الشاهين ينضح عـلى جبيني مـع قطرات العـرق. أحـاول أن أطفئ نـيران تفكيري، فتستعر أكثر مع استعار شمس الصباح فوق الرؤوس.

أتمشى نحو الترعة غير مبالٍ بنداء "بكرية" عليّ كي أكمل إفطاري. كان الصبية والشباب يستحمون عرايا، تطفو على الماء أمام صدورهم الناحلة أحجبتهم المخاطة بعناية. تُرى ماذا فيها؟

يمر وقت طويل وأنا بعد أحملق إلى صفحة الماء، أفكر أن أعود إلى "واكـد" وأمضي اليوم معه، فقافلته لم ترحل بعد، إلا أن "باقي" يلتقم عنقـي تحت إبطه اللزج البارد، ويسـير معي وهو ينظف ما انحشر في

أسنانه من بقايا الإفطار. يسألني عن سبب شرودي ولا ينتظر إجابتي كعهده.

يحدثني في طريقنا إلى الدار عن الزواج في شهوانية مقززة، يستخدم كلتا يديه في وصف المفاتن، ويتلمظ حين يذكر ما خفي عني من فنون النكاح. يتوقف أمام الدار حيث أمي ممددة على المصطبة، ويسألني بصوت عالٍ عن موعد مقابلتي مع الشواف للاتفاق على تفاصيل زواجي بابنته.

أنظر إلى أمي فتحرك عينين خاويتين نحوي، صوت هديل حمامة الجدة يقترب، لأجد "بكرية" تنقل الحبوب من فمها إلى فم الطائر وهي تتابع مجرى حديثنا.

أحدد الليلة كموعد للاتفاق، والزواج بعد ولادة "بكرية". تتسع عينا الأخيرة وتفلت الحمامة، ثم تطلق زغرودة تنتهي باختناق الدمع في مقلتيها.

أما أنا، فقد اعتصرني إحساس مشؤوم لم أستطع الخلاص منه حتى المساء.

* * *

قبل ما تخطب يا وله شوف أهاليها

أجلس و"باقي" في قاعة فسيحة، تحيطنا السيوف الصدئة المعلقة، وعينا الولي في صفوف متكررة على الحوائط. لم أكن أعرف أن الشوافين يعيشون في رغد هكذا. وسائد حريرية ومتكآت موشاة بالقصب.

أمامي يجلس الشواف، ينظر إليّ بعينه الوحيدة ويبتسم. حوله رجال العائلة يتدلون من شواربهم المبرومة لأعلى، تحيط أعينهم هالات الكحل الكثيف.

تولى "باقي" أمر الاتفاقات، بينما شردت أنا في أعين الشاهين المحيطة بي، تشد أُذني فضولي وضلالاتي تأديبًا.

يقوم "باقي" مسلمًا على الرجال، يلكزني فأفيق من شرودي وأسلم، كف الشواف تشد على كفي، ويهمس في أذني "عين الشاهين" ثم يصمت، تلفح أنفاسه جانب وجهي وأشم رائحة خبيثة لا أدري مصدرها، ثم يستكمل "حارساك".

* * *

حين عدنا في المساء، كانت "بكرية" تجلس عند قدمي أمي تريها ما اشـترته من قماش جديد لتفصيل جلباب زفافي. تحتضنني مرة أخرى وتخبرني أن الفرح سيعود إلى الدار على يدي.

تسـأل "باقي" عـن موعد ذهابهـا لرؤية العـروس، فيصحبها إلى الداخـل وهو يخلـع عباءته وعمامته ويرميهما أرضًـا في تعب مصطنع كأنه عائد من فتح مبين.

أجلس على الأرض، أمد يدي لأدلك قدمي أمي فتسـحب ساقها اليمنـى بعيدًا. أخبرها أنني فعلـت كل ما تريد، فلِـم الجفاء والنقمة عليّ؟

أركل التراب بقدمي وأقوم، أنا لم أفعل سـوى ما أردته أنا، أخدع نفـسي فتنخدع، ثـم تنقلب عليّ أضعافًـا، تذكرني بالشـاهين والعين ونبش المحرمات.

أعـود مغضبًا إلى حجرتي، أجد الحمامة العمياء تنبش هي الأخرى في الأرض، وتجر قطعة الخيش الملفوف فيها كنزي الصغير. أهشها فلا تنصاع، تنبش وترفرف بجناحيها وتنشد بلا توقف "موت الشاب له غارة" بلا كلل.

أسـمع صوت خطوات "باقـي" المتثاقلة تقترب، ينـادي عليّ، ما زالت اللعينة متشبثة بالخيش، تنقر كفي كلما اقتربت منها.

"بكريـة" تناديني كي أحكي لها عن بيت الشـواف وأهله، الحمامة ترفرف وتنشد، تسيل الدماء من كفي.

عين الشاهين المتدلية من حجابي تنظر إليّ وأنا منحنٍ على الأرض، تطبع وسمها على ضميري.

صرخـة مكتومة تفلت مني، أركل الحمامة بقدمي فترتطم بالحائط وتصمت، صوت شهقة "بكرية" من خلفي وقد اتسعت عيناها ملء وجهها.

تنظـر "بكرية" خلفها ثم تغلق البـاب، تهرع نحو الحمامة وتظللها بجسدها، فلا أرى ما آلت إليه فعلتي.

أسألها مرتجفًا، هل ماتت؟

تديـر "بكرية" وجهها ببطء إليّ وتهز رأسـها إيجابًـا. تلطم خديها وهـي تكتم الـصراخ في صدرها. لقد قتلت حمامة أُمًّا، وعلى حسـب علمي، لم يفعلها أحد من قبلي قط.

* * *

غربي بلدنا

تحت القمر "المخنوق" ذي الوجه الدامي، نتربع أرضًا أنا و"بكرية" على ضفة البحيرة الجافة. قال لي "واكد" إن القرى القديمة كانت تطوق تلك البحيرة وتروي منها أراضيها. الآن، لم يتبق منها سوى أطلال طمرتها الرمال، تلقي بظلال كئيبة على تجويف البحيرة المشققة.

الكحل الأزرق يسيل على خدي "بكرية"، تفتح بيد مرتعشة ثنيات القماش في سلة الخوص، وتزيح طبقات "القرص" جانبًا لتخرج حمامة الجدة الميتة.

ياما بنوح عليك يا حلو وبناني

تمط "بكرية" صوتها النائح في نهاية ندبها.

لو كنت زغلول لبنيت لك برج وبناني

ترسم بكفيها شكل بنية الحمام وهي تؤرجح جذعها أمامًا وخلفًا.

والبيت قد هدني يا حلو وبناني

تشير بذراعيها إلى الأعلى كبناء شاهق الارتفاع.

ومن دموعي خضبت الكف وبناني

تمسح "بكرية" بإصبعها كحل عينيها، وترسم على صدر الحمامة عين الشاهين، ثم تودعها شقًا جافًا على جانب البحيرة وتهيل عليها من التربة الخشنة.

أنا الآن ملعون، حتى بعد أن وارت "بكرية" خطيئتي الثرى، لم أزل ملعونًا في نظرها. تقوم فتتأرجح بفعل الهواء الذي يدفع شماساتها إلى الخلف وتقف أمامي. تطلب مني أن أهرب وستتحمل هي الوسم الذي سيظهر على جبينها صباحًا.

أسألها عن كيفية معرفتها بهذا المكان، فتطلب مني أن أختبئ عند "واكد" ثم أرحل مع قافلته. أسألها عن الموال الذي نعت به الحمامة، وعن طريقة دفنها، ولِمَ لم نحنطها كما نفعل مع البشر. فتعتصر كفي وتجذبني خلفها كي نرحل سريعًا قبل أن يرانا أحد.

أغرس قدمي في الرمال وأصر على أن تجيبني. وتصر هي على ألّا أسأل، تصر على أن أرحل دون وداع حتى.

تنهار على ركبتيها وتهيل من الرمال على رأسها. أجلس جوارها وأمسك كفيها، أقترب من وجهها وأقبل رأسها. أترجاها كي تجيبني، فليس بعد الكفر ذنب.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تأتي "بكرية" فيها إلى البحيرة الجافة، كما همست لي. في سني عمرها المبكرة، صحبها أبي إلى هنا، كان يبحث عن صندوق ما في هذا المكان، ويخبرها أنه إن وجده فسيأخذنا ويرحل للأبد. لم يجد أبونا الصندوق، لكنه استمر في البحث عنه من

حين لآخـر، حتى نقل البحث إلى الوادي الغـربي كما أخبرها في آخر مرة رأته فيها. ذهب يومها ولم يعد مرة أخرى.

أذكـر بدوري أنني كنت طفـلاً، وكان يريد أن يصحبني معه لكن أمـي منعته، أهانته أمامنـا ورفعت أمامه عين الشـاهين، فتراجع، ثم خرج بلا عودة.

بعدهـا عاد محمولاً على الأعنـاق، مبتلاً، منتفخًـا. مات أبي غرقًا يومها، ولم يعرف أحد منا سر الصندوق.

كانت "بكرية" تتعلل بالذهاب إلى الضريح كلما ضاقت بها الدنيا، وتـأتي إلى هذه الأطلال المنعزلة، تبكـي، وتبحث عن آثار أقدام أبينا، علهـا تجد منها ما يرفق بقلبها. تسـتعيد المواويل التي كان أبونا يغنيها وهـو يدفـن ما يجـده مـن كلاب وقطط ميتـة. حتى وجـدت بعض الدفائن، مشـابهة لما يجدها "باقي" بالصدفـة وتتخلص منها لأنها بلا قيمـة. جمعتها ودفنتها في المـكان ذاته الذي دفنت فيـه الحمامة النافقة منذ قليل.

أتركهـا وأهرول نحـو القبر الصغير، أنبشـه لعلنـي أرى، لعلني أعرف. تجـذب "بكرية" ملابـسي وتبعدني، فأدفعها، أسـتعر بحمى الفرصة الأخيرة قبل الوسم، قبل النفي.

أخرج كل ما في باطن الأرض، تحملق إليّ عين الشـاهين على بطن الحمامة. تقف "بكرية" خلفي تظللني بدوائر شماسـاتها، أكاد أسـمع قلبها يطرق صدرها بعنف.

أضـع كل ما أجده في شـالي، وتهـم هي بإعادة الحمامـة إلى قبرها، لكنهـا تتوقف لتهمس لي أن هنـاك أحدًا في الأطـلال، لقد رآنا أحد الشوافين.

* * *

الليل ما هو قصير إلا على اللي ينامه

تـصرخ "بكرية" في الهودج مـن ألم ولادتها المبكـرة، أجر الركوبة جـرًّا نحو منـزل التجار. من المفـترض أن "باقي" يظننا قـد ذهبنا أنا و"بكريـة" إلى الـولي، كي ندعوه ليبـارك زواجي، ودسـت "بكرية" حمامة الجدة تحت "القُرَص" فلم يشك فينا أحد، إلا أمي.

ثبتـت علينا ناظريهـا الثاقبين، كأنها تعرف تفصيـلاً ما جنيناه وما ننويه. لكنها لن تتكلم على أي حال. الآن، لم تعد أمي هي مبلغ همي. لقد رآنا الشواف، و"بكرية" على وشك الولادة، وكلانا أغبر أشعث، يشي مظهرنا بجرمنا. لم أجد لنا ملجأً إلا "واكد".

أحمل "بكرية" على ذراعي وأعبر بها هدوء السـاحة الخالية. الكل مجتمع حـول ضريح الولي، يبتهـل له كي يعيد للقمر المختنق سـيرته الأولى.

أتوقـف عند باب غرفـة "واكد"، أراه للمـرة الأولى يبكي، راكعًا

على ركبتيه في زي سماوي متسع، يقطر الماء من لحيته وشعر ساعديه.

تهمس "بكرية" لي أنها لن تلد على يديه، لن تلد بلا شوافين حولها. أُهمِل ما تقوله وأصيخ السـمع لكلمات "واكد" التي ضربت بينه وبين كل ما يحيطه حجابًا، فلم يعد يعي إلا ما ينطق به.

لك التكريم أيها المجيد، يا خالق الحياة والأبدية
يا جاعل الشرق والغرب، والجنوب والشمال
كلٌّ يسبح لك يا من نشأ من تلقاء ذاته
أرضك تصرخ، غفرانك، محاربوك رحلوا إلى الغرب
ومريدوك نفوا إلى الشمال، ولم يبق إلا الباطل

تقطع "بكرية" كلماته بصرخة هادرة، فأدخل وأضعها على فرشته. يلتفت فزعًا، ينقل عينيه بيني وبين أختي ثم يحدق إلى ملابسنا المتربة. يسـألنا، مـاذا حدث؟ أحكي لـه أنني قتلت حمامة جـدتي، و"بكرية" وارت خطيئتـي وقد رآنا شـواف ما. نحن الآن ملعونـون في انتظار الوسم.

ظلت "بكرية" تكرر أنها لن تلد دون شـواف، وأنا أرجو "واكد" أن يساعدنا حتى تلد ويخبئنا حتى موعد رحيله لنرحل معه.

ثار "واكد" وأرغى وأزبد. تصرخ "بكرية" وتطلب الشوافين، ثم تنطلق في ابتهالات إلى الولي الشاهين. يصرخ فيها "واكد" أن لا مكان لصلواتها الدنسة في حجرته. يمسح وجهه في توتر ويعتذر. يخبرني أنه ذاهب لإحضار شواف.

أعرف للمرة الأولى من "بكرية" أن "واكد" ملعون، لن يستطيع أن يتوغل في أرض كوم الحنت أكثر من هذا وإلا حرقه الشاهين. "واكد" يبتسم ساخرًا ثم يرتدي جلبابه الأسود فوق ردائه السماوي ويخرج قاصدًا الضريح.

ممزق أنا بين هذه وذاك، أريد أن أصحب "واكد" لأفهم، فروحي تغوص في طين الجهل أكثر كل لحظة. أنا أختنق، بينما تشير لي "بكرية" أن أهرب وأتركها حتى يعود التجار ويأتوا بالشواف، فـ"واكد" إن خرج لن يعود أبدًا.

تدخل من طاقة في السقف حمامة الخالة "ود"، تطوف فوق بطن "بكرية" وتغني. أعدو أنا خلف "واكد". لن تغفر لي "بكرية"، لن تغفر لي أمي.

أتبع "واكد" عاقد الحاجبين، عضلات فكه بارزة وقبضتاه محكمتان. أسأله عن كل ما يعتمل في روحي، أبي، الصندوق، اللعنة، كلماته في ركوعه. لم أعد طفلاً؛ أريد أن أفهم.

ترج كلماتي صمت المساء، وتختلط بأصوات دق الطبول البعيدة حول الضريح، أم أنها دقات قلبي؟

يخبرني "واكد" أن أبي هلك بحثًا عن الحقيقة، عن المستور. وأنه يرى روحه المتلبسة في جسدي، لن تتركني حتى أهلك أنا الآخر. يخبرني أنه كان سيعلمني ما يبقيني على الأعراف بين الحقيقة والضلال، لكنني أبيت إلا أن أحيد عن مصير أبي.

"واكد" هو السبب، هو من روى في نفسي بذرة الشك منذ طفولتي، هو من أجاب عن تساؤلاتي فيما أبي انشغل بصندوقه

وحقيقته وما سُتر عنه. "واكد" أبي وعليه ألّا يتخلى عني.

يتوقف "واكد" وقد كبلته كلمة "أبي". يستدير فتنزاح غلالة الحمرة عن القمر ويشرق الضياء الأبيض من خارطة العالم على وجهه.

يسير صامتًا جواري، يزفر ثم يحكي. "واكد" الذي يعرف كل شيء يفصح، فاليوم قد يكون الأخير لي في الكوم، وربما في هذه الدنيا.

* * *

وكل ما أزداد قراية، بالدنيا أزداد جهالة

قبيل الضريح، يقابلنا الرجال والنساء عائدين محملين بالطبول، يتوقف "واكد" ويوقفني خلفه. يتسمر الجمع أمامه. خطوتان أو ثلاث، كما يقولون، وسيدخل "واكد" أرض الشاهين ويحترق.

يتقدم "واكد" خطوة واحدة واثقة وأنا خلفه، يتمتم الجمع أمامه ويهتف أحدهم بـ"واكد" ألّا يقترب.

قال لي "واكد" إن جماعته وعائلته كانت تسكن حول البحيرة في الماضي، في الأطلال ذاتها التي دفنا فيها الحمامة القتيلة، ومن جماعته كان الحاكم وعلية الناس، وقد أبوا الانصياع لحكم الشاهين، واضطهدهم الناس لذلك، فنفاهم الشاهين خارج كوم الحنت، وطمر الجن ما عمروه من بيوت وزراعات كما أمرهم سيدهم المحتال.

أحذر "واكد" من التقدم أكثر، فلو أن الشاهين كما يقول محتال، فالجن والمستورون حقيقة يعترف هو نفسه بها.

يتقدم خطوة أخرى، فتبدأ النساء في الترنيم باللغة القديمة. أفهم

كلمات قليلة جدًّا لا تنير لي حلكة تعاويذهم. أتعجب حين أرى النساء تتقدم الرجال أمامنا، بعضهن من صغيرات السن لا يزلن في الخلف، يشاهدن في عجب وخوف. ما الذي يفعلنه؟!

من خلف الجموع أرى توهجًا لمشعل يشق الصفوف، مجموعة من خدم الولي يترأسهم الشواف الأعور، يتقدمون فتصمت النساء، وتعلو أعينهم النظرات الشامتة فينا.

أتحسس جبيني، هل سيسمني الشاهين الآن، أم أنهم سيفعلونها بأنفسهم كما يزعم "واكد"؟ أليس من المفترض -حسب زعمه- أن ينتظروا حتى أنام ويوهموني بأن الوسم قد ظهر من تلقاء نفسه؟

يسأل الشواف في رفق الأفاعي عن سبب مجيء نسيبه الشريف، متجاهلاً "واكد". أخبره في توتر أن "بكرية" تلد في منزل التجار وتريد المساعدة. يبتسم ويشمر عن ذراعيه ويشير نحو الطريق الذي جئنا منه. سيذهب معي بنفسه.

ألم يخبره من رآنا عن فعلتي أنا و"بكرية" بعد؟ أم أنه يعلم ويضمر أمرًا في نفسه؟ الأهم، ماذا لو تقدم "واكد" خطوة أخرى، أكان سيحترق؟ أكان ما في عينيه يقينًا خالصًا بنجاته، أم خالطته على استحياء عكارة الشك؟

* * *

يوم ما قالوا دي بنية، ويوم ما قالوا ده ولد

لم تكن "بكرية" تذهب إلى الضريح كي تطلب من الشاهين أن يكون ما في بطنها أنثى، فلماذا كانت تزعم لأمي أن أحد الشوافين بشرها بابنة؟ هل خافت أن تقتل أمي ابنها كما فعلت في المرة السابقة؟!

ماذا لو تمخضت عن ذكر؟ ما الضير في ذلك؟ ولماذا تفضل نساء كوم الحنت إنجاب البنات على إنجاب الذكور؟

راحت عين الشواف الوحيدة ترقب من يخرج من بطن أختي وهو يرتل الصلوات. ترفرف حمامة خالتي فوقنا وتغني.

لما قالوا ده ولد

قلت يا ليلة نكد

تاخده مني مراته

ولا ياخده الطلب

تـصرخ "بكريـة"، يتمتم "واكـد" بصلواته العجيبـة وهو واقف خارج الحجرة. الحمامات الأمهات من المستورين المتجسـدين بيننا. كـما قال لي "واكـد" وأنا بعد طفل، المسـتورون هـم الموكلون بحفظ كل مـا نفعله ونقوله، ثـم إيداعه في صندوق الدنيـا إلى يوم نقوم فيه للحسـاب. قال "واكـد" إن الحمامة الأم تتجسـد بمولد كل أنثى، ثم تـلازم كل مـن أصبحت أمًّـا، تحفظ ما كانـت تغنيه مـن مواويل في حياتها، ثم حين تموت الأم، تنطلق حمامتها لتحرس ذريتها وتذكرهم بما كانت أمهاتهم يؤمنّ به ويرددنه في حياتها.

يقـول "واكـد" إن الحمامـة الأم لا تمـوت بمـوت صاحبتها، ربما تختفـي لفترات لكنها دائمًا تعود حين يكرر الزمن نفسـه، لذا يتشـاءم ويتفاءل بها البعض.

يعلـن "واكد" أنه لا يعرف أين تنتهي الحقيقة لتبدأ الأسـطورة في تلـك القصة، ولم تكـن هذه هي المرة الأولى التي يخـبرني فيها "واكد" الليلة أنه "لا يعرف".

يرفع الشـواف الأعور الوليـد عاليًا ويخبرنا أنـه ذكر. يقترب من "بكريـة" ويركـع جوارها. تتنـاول منـه الرضيع وتبتسـم في إنهاك، بينما يهمس هـو في أذنها طويلاً، فتتحول بسـمتها إلى صرخة صامتة، وتقبض يدها على لحم الوليد الزلق.

أهـرع إليها وأقبل جبينها، تبدو في عالم آخر، تقطب جبينها وتنظر إلى السـقف، حمامة خالتي تدور صامتة. أنقل نظري بين الواقفين فلا تلتقط نظراتي سوى "واكد".

يبتعـد فأخرج خلفه، يخبرني أنه لن يتحـدث معي مرة أخرى عن

أسـاطير. لا أحد يعرف على وجـه التحديد ما قاله الشـواف، فهو لم يحـضر ولادة في كـوم الحنت قـط، لكنه سـمع الكثير عـن ولادات الذكور، وكيف تتغير نساء الكوم بعدها إلى الأبد.

* * *

قالت يا ليلة نكد

حمامة بيضاء جديدة راحت تحلق في سقف الدار، صامتة، لم تتشبع بعد بروح "بكرية" وأيامها. أتأمل النقوش الملونة على جناحيها وذيلها وحول رقبتها. تقف على كتفي وتميل برأسها يمنة ويسرة كعادة الحمام.

لم أر الحمامة الخاصة بأمي قط، ولم أسأل عنها. لطالما كانت الأسئلة خطيئة عند أمي. حتى تساؤلات الأطفال العادية التي ترد عليها الأمهات بحكاياتهن وأساطير الأجداد، كانت تأبى أمي أن تروي عطشي بها؛ لذا، كنت أكثر أقراني جهلاً بالحقائق والأكاذيب على حد سواء.

لماذا يخيل إليّ أنني الوحيد التعس في كوم الحنت؟ الجميع يهيمون كالبهائم خلف لقمة ونكحة. منسحقون تحت قبة الشاهين ووسمه وبطشه. راضون عن مرعاهم كالأنعام.

ملعون أنا بلعنة السؤال، فأنا شيخ صنعة الألغاز إن كانت للألغاز صنعة.

يسأل "باقي" لِمَ كل هذا الحزن، ثم لا ينتظر إجابة. فقط يحمل وليده ويجلس جواري، يفكر فيما قد يمليه على الشواف كي يكتبه في حجابه.

يبحث عن لقمة طرية يأكلها فلا يجد، فيلقي الرضيع على حجري، ويذهب ليرعى في مكان آخر حتى إنني لأسمعه يخور كالثور، وتتساقط كتل الروث من تحت ذيله فلا يبالي.

أدخل إلى "بكرية" وأتمدد جوارها كما كنا نفعل صغارًا تحت الشمس على سطح الدار. ينام ابنها على بطني فأملّس على شعره الرقيق وأتأمل ملامحه. يملك ذقن "بكرية" المشقوق ورموشها الكثيفة، بينما لا أثر لملامح "باقي" الغليظة الاستثنائية في قسماته.

أهمس لـ"بكرية" أن لا بد أن نرحل الآن، تخبرني أن الوسم لن يظهر عليها ولا عليه ما دمت سأتم زواجي بابنة الشواف. أقول لها إنني لم تعد لي رغبة في تلك الزيجة، لا أعرف السبب وراء تصميم الشواف على أن يزوجني بابنته على الرغم من علمه بعصياني وكفري. لِمَ يتغاضى عن كل ما أفعله؟ وكيف لا يبطش الشاهين المزعوم بكلينا؟

تنظر بعينيها نحوي محذرة، فـ"بكرية" تحتاج إلى الإيمان بشيء ما، قوى أكبر تعوض غياب أبينا. أما أنا، فأحتاج إلى يقين أرتكن إليه بعد وعثاء الشكوك.

سأتزوج كي أحميها، أقنع نفسي بذلك فتأبى. سأتزوج كي أروي فضولي، كي أقترب من قدس أقداس الضباع هذا.

أسـألها كيف كان اليوم الذي ذهبـت فيه إلى الولي كي يهبها حمليها الأول والثاني. تخبرني أنها لا تذكر شـيئًا بعـد الرقص ودق الدفوف. كانت تذهب مع أمنا في مواعيد محددة لا يحيدون عنها حتى حملت.

أريـد أن أسـألها إن كانـت واثقة بأن مـن ينام على بطنـي هو ابن "باقي"، لكنني أشفق عليها من زيادة همٍّ على همومها.

لم تخـبرني بـما قاله الأعـور لها بعـد ولادتها، قالت إنـه أمر خاص بالنساء ولا يجب أن أسأل عنه.

تغمـض عينيها وتغني موالاً خاصًّا بها لم أسـمعه مـن قبل، فتأتي الحمامة المستجدة لتقف على ركبتها.

أنا باشكي م الجتة والراس
والعقل شت ورايا
ومين في الجمع وراث
يحمي الجنازة ورايا

* * *

غيـر الحقيـقـة ما خـابـــر

أسـير في عمق الوادي الغربي وحدي، أرفع المشعل إلى أعلى لأرى طريقي.

بالأمـس تسـللت إلى حيـث تتـم كتابة الأحجبـة، بينـما الجميع مشغولون في طقوس الاحتفال بابن "بكرية" خارج الضريح.

تعـود إليّ ذكريـات ليلة تحنيـط أبي، الرهبة والوجـل ذاتها، فقط يزيد عليهما غضب مكبوت وأعـوام أضافت إلى براءة طفولتي دنس السؤال.

حجـاب ابن أختي لا يزال معلقًا فـوق البخور حتى يجف حبره. أقرأ ما فيه، لا أثر لاسـم "باقي" ولا لمهنته ولا لأي كلمة أعرفها من اللغة القديمة.

حـروف الحجـاب المتناثرة ترسـم في عقلي الحقيقـة، تاريخ الآباء ومفاخرهـم المكتوبة داخـل أحجبة الأبنـاء مجرد نقـوش بلا معنى؛

لذا حكم علينا بالجهل، لذا حكم علينا بحرام الشاهين وحلاله.

وفي الليل، فوق آخر تل في الوادي الغربي أقف مشرفًا على المقابر، آلاف الأجساد المغطاة بالسكر تقف تبادلني النظرات. ألف يدي حول عين الشاهين المدلاة على عنقي راغبًا في خنقها مثلما تخنقني.

أبي، أين أنت؟ عن ماذا كنت تبحث وكيف غرقت، أم... كيف قتلت؟

أشعر بثقل في أنفاسي، الشعور ذاته الذي شعرت به يوم تلوت عهود الجان مع "باقي". الشعور ذاته الذي صار يلازمني كلما ابتعدت عن أول الوادي واقتربت من المقابر وحدود الفلاة.

الدوار يزداد فأترنح نازلاً التل، يكاد نفسي يتوقف فتختل قدماي وأتدحرج نزولاً. ينطفئ المشعل في ملابسي ولا أدري بنفسي إلا وأنا عند السفح وركبتي غائصة بين الأحجار.

أشهق معاندًا الموت، وأحاول تخليص ركبتي. تصطدم أناملي بشيء أملس بارد يختلف عن ملمس الصخور.

أدقق النظر وأحاول أن أرى أكثر، أرى عينًا تشبه عين الشاهين منحوتة في جسم أكبر. أحفر أكثر لأجد رأس تمثال ذهبيًا مجوفًا لصقر لم أرَ له مثيلاً قط إلا في النقوش على اللفائف الجلدية، حيث رجال برؤوس صقور وتماسيح وفهود يقفون إجلالاً أمام السباع.

* * *

سهيت.. والليـــالي فـاتــتـني

لا أعرف كم يومًا مضى منذ وجدت الرأس الذهبي، ولا كم كلمة تعلمت من "واكد"، ولا كم كنزًا استخرجت مع "باقي".

موعـد زواجـي غدًا، ذهبـت "بكرية" منـذ أيام لرؤيـة العروس وأخبرتني أنها مليحة، ثم انطوت على نفسـها تحدق إلى السقف جوار أمي التي صار وقت نومها أطول من يقظتها.

رحلت أمس قافلة "واكد"، ولم يرحل هو معها. لا أعرف السبب، لكنه لا يزال مؤمنًا بأن الفرنج آتون لكوم الحنت، وهو لن يترك أرض أجداده دون دفاع.

أي أجـداد يا "واكد"، عمـن تدافع؟ عن الذيـن لعنوك ونفوك؟ عمن صدئت سيوفهم وتحولت خيول حربهم إلى غوازٍ؟!

يدخـل "باقي" إلى حجرتي مع عدد من شـباب العائلة والجيران، يصفقون وينشـدون أهازيج الـزواج. يفتح أحدهـم النافذة فيدخل ضوء الشمس، يحط الذباب فوق وعاء الحنة العملاق.

يخلعون عني ملابسي ويبدأون طقوس استحمام العريس. أشعر بالحرج والمهانة وأنا بين أيديهم، من النافذة تتراص أعين الأطفال يشاهدون ويصفقون.

الخيول ترقص وتتمايل، يعتليها ذوو الشوارب، يرفعون أذرعهم الطرية المتهدلة بسيوف أكل الصدأ نصالها.

يضعون الحناء في كفيّ وباطن قدميّ، ثم يجلسون حولي يحكون عن أعراسهم ويتبارون أي حكاياتهم أكثر خدشًا للحياء.

أتركهم وأقوم، لا أرد على نداء "باقي" ولا تساؤلات الآخرين. أكاد أنزلق بسبب الحناء في قدمي، أنادي على "بكرية"، فلا أجدها. ابنها الرضيع يبكي على الأرض في حجرة أمي، أقترب منه لأرى أمي تزحف نحوه بنصف جسد مشلول، أظنها تحاول تهدئته، إلا أنني ألمح أصابعها النحيلة المرتعشة تجثم على فمه وأنفه، تكتم أنفاسه.

أهرع إليه وأدفع يدها بعيدًا. هل جننتِ؟ أستقتلينه كما قتلتِ سابقه؟! تنفتح عيناها عن آخرهما وتحاول خمش وجهي بيدها. أمسك كفيها وأضربهما بالأرض، تلوث دماء الحناء الحمراء كفيها.

أنادي بأعلى صوت، "بكرية"، أصرخ، "بكرية". صوت الغناء والطبل في الخارج يثير جنوني. أطبق بيدي على الحجاب الذي أعدت خياطته عشرات المرات، أفتحه كل يومين وأعيد قراءة ما به، لعَلّي أكون مخطئًا، لعَلّي أكون جاهلاً.

تأتي "بكرية" وهي تمسح ماء الغسيل عن ذراعيها في جلبابها. تنظر إلينا فزعة. تحط حمامتها على الأرض تشاهد، وتسجل.

أحكي لها وأطلب تفسيرًا، تحتضن أمي وتخبئ وجهها في صدرها،

تمسح عن كفيها الحناء. تطلب مني ألّا أسأل، أن أكمل ليلة حِنّائي على خير، وغدًا أتزوج. غدًا أبتعد وأنساهم وأحرص على ألّا أنجب ولدًا مهما حدث.

أركل الأرض وأصرخ فيهما، أجذب ذراع "بكرية" عازمًا ضربها، تصرخ، فأتركها. أضرب الحائط بكلتا يدي، ثم أخرج من الدار لا أعرف إلى أين.

* * *

ولا بـد من يـوم معلـوم

يتعجب "واكد" من اتساخ ملابسي بالحناء، ومن شعري الأشعث وملابسي الخفيفة. كان يكتب في لفافة، فطواها وتقدم مني.

وحدنـا تقريبًا في منزل التجـار. يصحبني لصنـع مشروب البن. يخـبرني أن البلـدة التي تجاورنـا شرقًا قـد احتلها الغـزاة الآتون عبر البحـر. وأن التجـار قد أرسـلوا إليه يخـبروه عن رؤيتهم لحشـد من فرسان الفرنجة يستعدون للتحرك غربًا، ربما نحو كوم الحنت.

أخبره أن الشـواف لا يرى في ذلك خطرًا، يظن "واكد" أن الخطر كله في انقلاب النسـيم الـذي كان بين الفرنج وكـوم الحنت إلى ريح عاتية. لكن لماذا الآن؟ ما الذي أثار حفيظة الفرنج نحونا؟

كما أخبرني "واكد" سـابقًا، فإن كوم الحنـت تعطي طوعًا للفرنج كل ما يمكنهم أخذه غصبًـا، فهل من شيء تغير؟ هل نضبت الكنوز فجاءوا يتقصون أسباب التقصير؟

أسـئلة عن المسـؤول عن تسـيير تلـك الاتفاقيات، فيخـبرني أنه

الشـواف الأعور، أكبر رأس في خدم الشـاهين. يرشـف رشـفة من مشروبـه ثـم يضيف " والنسـاء". أقطـب جبيني متسـائلاً، فيخبرني أن لنسـاء كوم الحنـت دورًا فيما حدث ويحدث وسـيحدث. لكنه لا يعرف تفصيلاً هذا الدور. الحكايات تتناقل من جد لحفيد في منفاهم في الشـمال، ومع مرور الزمن تتآكل التفاصيل فلا ترى سـوى ظلال عملاقة لا تستطيع تحديد مصدرها.

يطلـب مني "واكد" أن أعود إلى عـرسي، وأن أنبش أكثر. هممت بالقيـام فأمسـك ذراعي يسـألني إن كنـت وجدت شـيئًا في الوادي الغربي لم أُرِه إياه؟ أهز رأسي نافيًا. يتنفس الصعداء، ثم يشـير لي بيده أن أذهب.

* * *

أعـود قبيل الغـروب، كان "باقي" واقفًا خلـف دارنا يشرب من قرعـة بوظة، يرمـي القرعة ويمسـك بذراعـي ويقربنـي من وجهه الغليظ عفن الريح. يتمالك نبرة صوته ويحذرني مما أفعل، ومن ضرره عليّ وعلى نفسـه. أعرف أنه لن يستطيع التمادي معي أكثر. أعرف أنه ككل رجـال كـوم الحنت، يهاب نسـاءه، يهاب امـرأة قعيدة لا تملك لنفسها نفعًا.

لمـاذا؟ أسـأله، فيخـبرني أنه لولاهـن ما عشـنا ولا عـاش آباؤنا وأجدادنا. لولاهن ولولا الشاهين وخدمه وشوّافوه.

يـترك ذراعـي ويدفعني كـي أدخل الـدار. الجمـع الصباحي قد انـصرف لحالـه، حاملاً معـه حكاياته عـن هروب العريـس من يوم

حنائـه. "بكريـة" وأمي، كل في طـرف من صحن الدار. تتحاشـيان النظر في عيني.

أدخل حجرتي، أجمع أغراضي كي أنقلها صباحًا إلى بيت العروس، ثـم أضم كنوزي في وشـاح كي أدفنهـا ليلاً في آخر الـوادي الغربي، حيث لا يستطيع الشوافون رؤيتي لسبب لا أعرفه حتى الآن. لكنني أتراجـع، أخشـى أن تضيع إلى الأبـد. أحفر أكثـر في أرضية حجرتي وأواريها التراب.

* * *

عريســـنا يا مُقلة العيـن

أتأمل النقـوش الملونة على أجسـاد الخيول الراقصـة. الرجال في جلابيبهـم البيضاء يجتمعون حولي ويهنئونني. الاحتفال على وشـك الانتهاء وأنا بعد لا أعرف ما ستؤول إليه ليلتي.

يصحبني الشواف الأعور إلى داخل الدار، أكثر من عشر حمامات تدور في السقف المقبب، وتصدح بصوت رفيع منغم:

عريسـنا يـا مقلـة العـين.. يــا زمـــردة في قــلادة

يا ريت أمـك جابت اتنين.. يــوم الحـبـل والــــولادة

يجلـس الشـواف أمامي ويمسـك عضدي بـين كفيـه الباردتين. يذكـرني بفضل الشـاهين علينا، وأننا في حضرتـه نمتثل لشريعته ولا نحيد عنها.

يخبرني الشـواف أنني سـأعاهد الـولي الآن على أن أطيـع امرأتي، وأمها، وأن أذكر فضلها عليّ وعلى ذريتي من بعدي.

أكتم أسئلتي، فإن سألت فلا يجب أن أسأله هو بالذات. لا بد أن يقتنع بأن لا ضرر مني ولا خوف.

يصحبني إلى حجرة جانبية مظلمة في آخر رواق كئيب، تتعالى في سمائها أدخنة البخور، وتتدلى من سقفها أعين الشاهين من الفضة والذهب.

تتكشف لي من خلف الأدخنة امرأة ضخمة، تحط على كتفها اليمنى حمامة غبراء، وعلى اليسرى غراب أسود. يخرج الشواف مغلقًا علينا الباب. تفتح المرأة عينيها، وبصوت حنون مجبر يتناقض مع مظهرها، تخبرني أنها أم "نجية" زوجتي.

تقول إنها للمرة الأولى تقوم بهذا الطقس، فهي لم تلد ذكورًا، فقط أخبرتها أمها بما عليها فعله. أسألها ولِمَ عليها فعل شيء لا تفهمه؟ فتخبرني أن الجن لن يسمح بالتلاعب. هذا عهد سفلي لفرض حمايتها عليّ، وعلى ذريتي من الذكور.

أسأل، وممَّ يحمينا العهد؟ فتجيب بكلمة واحدة همسًا "الطلب".

أهذا هو ما يجعل "باقي" عبدًا لأمي؟ أهذا ما يجعل الرجال في كوم الحنت أصنامًا مجوفة تصدح بداخلها أصوات النساء؟!

تغمض أم "نجية" عينيها الكحيلتين، فأرى فوق أجفانها رسمًا بالكحل لرموش كثيفة متفرقة. تتلو في تردد كلمات يبدو أنها تحفظها دون فهم لها، لكنني أفهم.

العهد، لإبعاد السباع في واحتهم في الفلاة، وضرب الحجاب بينهم وبين رجال كوم الحنت. العهد، بحق الولي الشاهين، حابس الوحوش.

أكاد أختنق، أغرق وأنا في مكاني، أهوي أرضًا فأسمع صوتًا أجوف من الأرض تحتي، كأننا نقف فوق لوح خشبي يعلو فراغًا. أمسك رأسي من الطرق المتزايد فيها. من فمي يتدفق ماء لا أعرف مصدره. تنكفي المرأة فوقي وهي تصرخ. يدخل الشواف الأعور ومعه سيدة أخرى. أرى السقف يدور فيه الغراب في جنون ويتخبط في الجدران. أكاد أفقد الوعي. صوت الصرخات حولي، وارتباك الشواف وهو يرفع عين الشاهين يحاول جرّي إلى خارج الحجرة.

أنا أموت، أغرق. يسقط الغراب ميتًا جوار رأسي، تتلاقى أعيننا وأغيب عن الدنيا.



المولى خلقك مُخيَّـرًا

أفتح عيني لأجد "بكريـة" وأم "نجية" جواري. يبدو أن الصباح قـد جاء. تحتي فـراش نظيـف ناعم لم أنم عـلى مثله مـن قبل. وعلى صدري عين شـاهين بحجم الكف. أقوم فتسـقط عني. تسـندها أم "نجية" وتقبلها ثم تضعها جانبًا.

تطلب "بكرية" شـيئًا آكله، فتهرع المرأة الضخمة الحنون خارجة. تنتظـر "بكرية" أن تغلق الباب، ثم تحتضنني بقوة تكاد تزهق روحي. أبعدها برفق وأسـألها عن ذلك الطقـس المريب ليلة أمس، ولِمَ حدث لي ما حدث.

تجيـب "بكريـة" في سرعة وبصـوت خفيض، إنـه "العهد" الذي تأخـذه الأم كـي تحمـي وليدهـا الذكر من الحـروب والمـوت فيها، وتأخذه النساء على أزواج بناتهن كذلك. عهد مع الجن، ويجب عليها بعـده ألّا تنظر خلفها أبدًا؛ لذا ترتدي نسـاء كوم الحنت الشماسـات كعادة قديمة، سواء كانت المرأة أمًّا لذكر أم لا.

تخبرني "بكرية" أن أمي قد أصابها المس حين خلعت شماساتها ليلاً، تخبرني بصوت مرتجف أن شيئًا ما مسني في الترعة. إنني عدت بحجاب مفتوح وهي من خاطته لي سرًّا. إن من مسني في الترعة هو ما يمنع عني العهد مع الجن.

أليس الجن والمستورون واحدًا؟ تنظر إليّ في حيرة صادقة، فهي لا تعرف أكثر مما أخبرتني به من أساطير مفككة تؤمن بها.

تصمت "بكرية" حين تعود أم "نجية" بالطعام. تنظر إليّ الأخيرة في محبة، تخبرني أنني الابن الذي رجته من الدنيا ولم يرزقها الولي به.

ولِمَ لم يرزق الولي أقدم شوافيه بالولد؟ أبتلع السؤال مع ما أبتلع. يدخل الشواف الأعور ويُخرج النساء. يجلس ويتكلم وهو ينظر إلى عين الولي جواري، لا يبدو مهتمًّا بالنظر إليّ، لا يبدو مرتاحًا.

يخبرني الشواف أنه متأكد الآن أن مستورة الماء مستني، وأن المستورين هم أعداء الجن المنشقين عنهم في غابر الزمان. المستورون رفضوا ولاية الشاهين ورفضوا عهده. رفضوا منح الأمان لأبناء كوم الحنت. طلب مني أن أقاوم تدنيسهم لجسدي، أن أستسلم للولي كي يبعدهم عني؛ وينير بصيرتي.

ينظر إلى عيني فجأة، ثم يقوم خارجًا.

أنحني وأفرغ ما في معدتي على الأرض، لقد سقطت في فخه بدلاً من أسقطه هو في فخي. ماذا سأفعل؟

* * *

حلمي ويّا الـ"بكرية"

كنت في الخامسة، أول مرة أذهب إلى مولد الولي الشاهين. أقف أنا و"بكرية" مكتحلي الأعين، نأكل الفول النابت والخبز منتظرين دورنا كي نشاهد الحكايات في صندوق الدنيا.

أشاهد الأولاد يلصقون أوجههم في فتحة يرون من خلالها حكاية عن الشاهين. أسمع صوت الحكواتي يعلو وينخفض حسب ما يحكيه من أحداث.

تعطيني "بكرية" طعامها وتبتسم. ثم تلف ذراعها النحيلة حول كتفي كي لا يجرفني الزحام. أبي يعطي الحكواتي المال مقابل مشاهدتنا وسماعنا للحكاية، فأقترب في فضول ولهفة، منفلتًا من ذراع "بكرية".

أرى الدمى الورقية السحرية تتحرك أمامي، أرى الولي الشاهين ينزل من السماء، عينا الصقر في وجهه تحدق إلى عيني. يحكي الحكواتي عن الشاهين الذي عاد من الموت ليخلص كوم الحنت منه.

يخرج وحش هائل مخيف من الماء، فيطعنه الشاهين. هكذا ينتصر

الشاهين على المردة المستورين. يقف جيش من الجن بشع الخلقة خلفه. تنظر إليّ "بكرية" لترى إن كنت خائفًا مما أراه، فأنظر إليها وعرق الحماس يغمر جبهتي. لست خائفًا، أريد مشاهدة المزيد.

تقرر هي أن ما شاهدناه يكفي، رغم الأعوام الستة بيني وبينها كانت الأم الحقيقية الوحيدة التي عرفتها. نسير متشابكي الأكف أمام أبينا في المولد. يبتاع لها أبونا شماسة ملونة صغيرة، عبارة عن خمس دوائر من القماش الملون، متشابكة على هيئة بتلات زهرة. تعلقها "بكرية" في فرح على ظهرها وتدور حول نفسها فينتفش فستانها ذو الخصر الضيق.

لا أعرف لمَ تلح عليّ تلك الذكرى اليوم. أفكر في التسلل والذهاب إليها، أريد أن أندس في صدرها وأبكي. أريدها أن تعود "بكرية" التي كانت قبل أن تنجب ابنها، قبل أن تتزوج "باقي".

الليل في الخارج هادئ، إلا من صهيل خيل وهمهمات حرسي من الشوافين. أفتح باب حجرتي وأخرج رأسي ببطء. يبدو أن الكل نائم. أسير بخطوات حريصة، لعلي أجد لسطح الدار منفذًا، فأتسلل منه إلى ما فوق الأسطح المجاورة. أتوقف حين أسمع أصواتًا من عمق الطرقة مقبية السقف، المؤدية إلى الحجرة التي فقدت وعيي فيها.

ألصق ظهري بالحائط وأقترب. أسمع الشواف الأعور يتحدث مع أشخاص ذوي لكنة غريبة. ربما ليسوا من كوم الحنت لكنهم يتقنون لغتها.

مع استماعي، عرفت أن الشواف يماطل في شيء ما قد اعتاد

إعطاءهــم إيــاه في الماضي. يبدو أنهم نافدو الصــبر، يتحدثون بطريقة قاطعة لا تعترف بتسويفاته ولا بوعوده.

أتســلل عائدًا لحجرتي قبل أن يقرروا الرحيل. أقف جوار النافذة أحاول أن أرصد تحركهــم. لم يطل انتظاري حتى رأيتهم يعبرون على أظهــر الخيل، يرتدون زي التجار وتحمل وجوههم ملامح لم أرها من قبل، وبشرة فاتحة لا شبيه لها في أهل كوم الحنت.

* * *

اللي ما يتكلم يا تقل همـه

في الصباح، يخبرني الشواف الأعور وهو على ظهر بغلته، أن دخلتي على ابنته متوقفة على تحرري من سطوة المستورة. ولا يتم هذا إلا بزار خاص سيعده لي قريبًا. ثم يسألني متخابثًا إن كنت ما زلت أرغب في استكمال الزيجة، وهو يحك بكفه جبينه، مذكرًا إياي بالوسم الذي ينتظرني وأختي إن تراجعت أو حاولت الهرب.

لم أكن أعرف إلى أين نذهب، حتى فوجئت بأننا نسلك طريق البحيرة الجافة. أتوتر فلا يخفى عليه هذا. تُرى ماذا يريد مني؟ أنظر خلفي لأرى الشوافين فوق البغال في زيهم الأبيض المترب يتبعوننا على مبعدة. هل سيقتلني؟ ولِمَ؟! ما الذي يريده مني بالضبط في مقابل التغاضي عن وسمي وأختي؟

يترجل فأحذو حذوه، يداعب الأرض المشققة بقدمه ذات الأظفار المصفرة، فأرى ريشات ملونات تبرز من الطين الجاف.

يسألني إن كنت أعرف مكان الصندوق تحديدًا، فأقطب جبيني.

يضيـف أنه يريد معرفة مكان صندوق الدنيا. هل كان أبي يبحث عن صنـدوق مثل صنـدوق الحكواتي؟ ومـا قيمته حتى يخطط الشـواف الأعور للحصول عليه؟ ما أهميته حتى يسألني عنه "واكد"؟

يقترب الشـواف ويمسـك بشـعري ويقربني منه، يخبرني أنهم قد قلبوا البحيرة وما حولها بعد وفاة أبي بحثًا عنه، ولم يجدوا سوى بعض اللفافات والآثار القديمة، وخطـر لهم أنه قد وجده ودفنه في الوادي الغربي، ودفائن البشر في الوادي لا يجدها إلا ذوو دم من دفنها.

لم يسـتطيعوا مراقبـة رحلاتي في آخـر الوادي لأن المسـتورة التي مسـتني في الماء تسـترني عنهم، يعرفون أنني أخاطر بحياتي في خضم صراع الجن والمسـتورين علـيّ، فهكذا تخور قواي كلـما أمضيت وقتًا أطول في الوادي الغربي دون عهد مع الجن.

تتجـلى الآن أمامـي الإجابـات واحدة تلـو الأخرى، المسـتورة تحميني من الشوافين حتى أجد الصندوق، أبي كان يبحث عنه أيضًا، وقد وصل في نبشـه إلى الـوادي الغربي، وإلا فمن أين لـه باللفافات والآثـار؟ لا بد أنّ مَـن دفنهم كان من دم أبي، ولا بد أن أبي كان تحت حماية المستورة هو الآخر.

لِمَ كان يخطـط أبي للرحيـل بي وبأختـي إن وجد ضالتـه؟ ولمَ كان سـيترك أمي؟ تفتك الأسـئلة بظلالها على تجليـات الإجابات، فأعود أتخبط وألهث كمن يعدو خلف سراب، أنهب الطريق وينهبني.

أمَا وقد سـقطت الأقنعة، أسأل الشواف عن كُنه ذلك الصندوق، فيصفعني، يسب أبي وأجدادي. يهددني بـ"بكرية"، يهددني بـ"واكد".

يدفعني الشـوافون لركـوب البغلة مرة أخرى، يدعس الشـواف

الأعور بقايا الحمامة المدفونة تحت قدمه ويحرص على أن أرى ذلك.

تسير قافلتنا الواجمة نحو الغرب، على الطرف الشرقي من الوادي أرى "باقي" ينتظرنا. يقترب مني ويهم بمعانقتي فأدفعه بعيدًا، لا داعي للمداهنة. يطلب من الشواف الأعور أن يختلي بي قليلاً فيأذن له. يبدو أنهما على اتفاق، يرمي بي الأعور فيلقفني "باقي". تبًّا لملاعيبهم!

يتحدث "باقي"، محاذرًا الاقتراب مني، عن صندوق الدنيا، تلك الأسطورة عن تجميع شهادات المستورين عن البشر لعرضها على الشاهين في نهاية حيواتنا. أرفع حاجبي مستنكرًا، الشاهين؟ أسيحاسبنا الشاهين أيضًا بعد موتنا؟ أخلقنا الشاهين حتى نؤول إليه في النهاية؟!

أسأله، وماذا سيفعل الشواف بالصندوق لو وجدته؟ يصمت "باقي"، لا بد أنه لا يعرف حقًّا، هو فقط يسعى وراء إرضاء الشواف الأعور كما تسعى الفراشات خلف وهج النيران.

يحاول "باقي" إقناعي بالانصياع، فأين لي أن أفر منهم؟ لو وجدته فسيقتلونني كما... كما قتلوا أبي؟ أحاول أن أهز ثقة "باقي" فأسأله إن كان يضمن ما يريده منهم لو وجدت أنا الصندوق؟ أليس من الأفضل أن نعرف لمَ يريدونه كي نؤمِّن مصيرنا؟

تعلو وجه "باقي" نظرة الثور الناعس، لا بد أن عقله ثقيل كالعجين، عصي على الحركة. يسألني إن كنت أخوّن شواف الولي، إن كنت أثق بالشاهين وعينه فوق الجميع.

أتركه وأمضي إلى مصيري، يسير الشواف الأعور وخدمه حولي،

يتفحصونني وأنا أنبش وأبحث. أفكر، هل لرأس الشاهين الذهبي الذي وجدته صلة بأجدادي؟ هل كل ما أجده دون عهد الجن دفنه أشخاص من دمي يومًا ما؟! من أنا؟ ومن أي نسل جئت؟

تتدحرج الشمس غائبة، فيوقد الخدم النيران كي أكمل البحث. أنفاسي تثقل والدوار صار غير محتمل، فيضطر الأعور إلى إعادتي إلى بيته كي لا أموت منه ويضيع الصندوق للأبد.

في أثناء عودتنا من عمق الوادي، لاحظت ولاحظ من معي تكاثر الحيات السوداء حولنا. يقول "باقي" إنها علامة رفض الجن عهدي الذي أخذه عليّ. يتعجب كيف لم يأخذ ما حدث لي يوم تلاوتي للعهود مأخذ الجد، لمَ صدق زعمي بأنني لم أر المستورة.

أسأل "باقي" عن "بكرية"، فيخبرني أنها وأمي بخير، ثم ينظر إلى الجهة الأخرى منهيًا هذا الحوار. أرى في ناظريه المزيد، ماذا يحدث لأختي وأمي؟

بالقرب من بيت الشواف الأعور، تتجمع عدة نسوة، تفترش ظلال شماساتهن أرضية الحارة، وتتكسر على البيوت في ضوء المشاعل اللاتي يحملنها. يسأل الشواف عن خطبهن، فتخبره إحداهن أن الكلمة تسري في كوم الحنت بأن الفرنج يضمرون شرًّا، وأن عددًا من رجالهن قد سمع الأنباء من التجار.

ينزل الشواف من على بغلته ويقف وسطهن، يسألهن إن كن واثقات بأن أزواجهن قد سمعوا الأخبار من التجار أم من غانيات منزل التجار.

تنظر النسـوة بعضهن إلى بعض، فمجالسة التجار محرمة إلا للبيع والاشـتراء فقط، أمـا مضاجعة الغواني فحلال عند الشـاهين، حرام عند كرامة النساء. فأي النارين يخترن؟

يخترق جمعنا صفوفهن وقد تعالى صوتهن الرفيع في خلاف وتبادل للتهـم. تنـادي إحداهن على الشـواف وتطلـب منـه أن يقيم معهن شعيرة ضرب الحُجُب لحماية كوم الحنت، فربما آن وقت حرب قريبة. فيتوقف لحظة مكانه، ثم يصرفهن للصباح.

هـذا الرجل كان يجالـس الفرنـج في بيته ويتفـاوض معهم، هذا الرجل يفقد تعقله بمرور الوقت. وعليّ أن أستغل هذا، لكن كيف؟

* * *

روحـك ماهيّـاش بإيـده

ما زلت في أسر الشـواف الأعور للأسـبوع الثاني. جسدي معتل وروحـي تخفت. لم أعد أقـدر على تمضية وقت طويـل في البر الغربي بحثًا عـن الصندوق. يجيء "باقي" ويسـلم عليّ، يعايننـي بعينيه، ثم يخرج. يغيب، وأغيب أنا في أضغاث يقظتي.

في المولـد، أقف منتظرًا دوري و"بكرية". والد أحد الأولاد أمامي يعطي الحكواتي المال كي يذكر اسـم عائلتـه بالبطولة في الحكاية التي سـيحكيها. الوالد والحكواتي والابن، وكل من شـهد المولد يعرف ما يفعلـه الحكواتي من إضافات ترفع سـيرة عائلة وتخفض أخرى. لكن الـكل يصـدق ويبتلع الوهم. أطلـب منك يـا أبي أن تدفع للحكواتي قطعـة فضية أخرى كي يذكر عائلتنا في الحكاية. تنظر إليّ طويلاً حتى تبتلعني عيناك الكحيلتان الحزينتان. كفك تطبق على القطعة الفضية، أظنك سـتدفعها للحكواتي، لكنك تدسها في ثيابك مرة أخرى وتنظر

إلى السماء. تخبرني أنني يوم أسمع حكايتنا الحقيقية سأعرف أنها أثمن من فضة الدنيا وذهبها.

يعود "باقي" والشواف، يجلسان أمامي ويخبرني الشواف أنه الوقت المناسب للدخول بزوجتي. لا أعرف لماذا صرف النظر عن طرد المستورة من جسدي. كيف سيكون الزواج صحيحًا دون العهد؟

يصحبني "باقي" قسرًا كي أغتسل. يخرج من قفطانه عشبة جافة، يطلب مني تدخينها، فستساعدني على إتمام مهمتي.

حين أعود إلى حجرتي، أجد عروسي، في فستان ملون ضيق الخصر، تعلق شماسات سباعية ملونة، كل حلقة فيها تعبر عن يوم من السبعة أيام التي أصلح فيها الشاهين كوم الحنت. فوق رأسها مباشرة الدائرة الزرقاء، يوم حبس الوحش.

تدخل الأم وتدير وجه الفتاة إليّ، ترتجف "نجية" وتهتز الشماسات في عنف. زيتونية البشرة، عسلية العينين، شفاهها غليظة تحت أنف مستدير قصير. لا تتجاوز الثانية عشرة بحال.

أنظر إلى "باقي" وإلى الشواف، فينصرف الأول ويجلس الثاني في ركن مظلم، ويبدأ في تلاوة شيء بلغة خفيضة خنفاء.

عشبة "باقي" تدفع الدم في جسدي، وتجعلني أرى كل شيء أبطأ من المعتاد. منديل أبيض تعطيني إياه الأم. شماسات "نجية" تُخلع. الثوب اللامع الأبيض يتبدى من تحت فستانها المنزوع عنها.

ما زالت مغمضة العينين، تكرر "لا يا أمي، وحياة سيدي

الشـاهين"، بينما لا أدرك أنا مكاني من كل هذا. يبدو أنني أفعل أشياء تبكي على أثرها الفتاة، يبدو أن المنديل قد تلطخ بالدماء، يبدو أن عين الشواف السـليمة تنظر في وجهي، وعين الشاهين تتدلى من صدري، تتأرجح بيني وبين "نجية".

شـعور بالخواء، بالنفاد. تعود ذكرى الشاهين يطعن مستورة الماء في صندوق الدنيا، ثم أرى سقف الحجرة، وأنام.

* * *

في الصبـاح، لا أجد "نجية" جـواري، لكنني أشـم رائحتها على الفـراش. أرتدي ملابـسي وأفتح النافذة. السـماء مثقلة بغيم أسـود تهطل منه الأمطار فتحيل الطرقات طينًا يغطي قصبات السيقان.

الشوافون محتمون في الخُص، متحلقون حول النيران. برودة الجو تثير القشعريرة فيّ، فألتحف العباءة الصوفية.

تدخـل أم "نجية" تحمل صحفة الطعام، تبارك صباحيتي. أسـأل عـن "نجيـة" فتخبرني أن أباها سـيحدد الوقت الذي سـتزورني فيه. ثم تمسـح عَبرة عن خدها، وتنـدب حظ ابنتها. أقـترب منها في رفق وأُجلِسُها أمامي. علها تطمئن فتحكي.

تفتـح فمهـا وتهم بالحديث، ثـم تغلقه وتهز رأسـها، تنفض عنها الفكـرة، وتقـوم مسرعـة للخـارج. لحظـات حتـى يدخـل "باقي" بابتسـامة التماسـيح، والطين يغلف قدميه وما تحت أظفاره وأطراف عباءته. يتربع ويبدأ في تمزيق الدجاج على الصحفة. يسألني عن ليلتي وهو يغمز ويعض شفتيه اللتين تلمعان من دهن الطعام. يسألني لمَ لا

أجلس وآكل معه، ثم لا ينتظر إجابتي.

يذكّرني "باقي" بأنه لا بد من أن أجامع زوجتي حسب التوقيتات التي يحددها الشواف؛ حتى تحمل في أسرع وقت، فالشوافون يفهمون في هذه الأشياء أكثر من سواهم. أسأله فيمَ العجلة؟ يجيب بأن الشواف لم ينجب ذكورًا، ويأمل حفيدًا يرث عنه خدمة الولي الشاهين.

كل هذا مفهوم، لكن، لمَ الآن وقد ظننت أن الزيجة لن تتم قبل أن يطرد المستورة مني؟

يمسح "باقي" كفيه في البساط من تحته، ويقوم معلنًا أنه مضطر إلى الذهاب إلى الوادي، فعليهم استخراج كميات مضاعفة تلك الأيام رغم الأمطار.

يرحل "باقي"، فأجلس ممسكًا رأسي الذي أوشك على الهرب مني. صوت الرفرفة يلفت انتباهي فأنظر، حمامة "بكرية" تدخل من النافذة وتدور حول السقف. أبتسم وأحاول أن أمسكها. بين كفي تنظر إليّ وهي تميل رأسها إلى الجانبين وتحدق إليّ. تغني للمرة الأولى بصوت رقيق عذب.

يا دي الحليوة يا أسمر   قلبي بيدور عليك..
وسط الدهب الأصفر   قبلي البلد وغرابيها..

موال جديد لم أسمعه من أي من الحمامات الأمهات. يبدو أنه من خيال "بكرية"، كما كان موال نعي الحمامة وأغانيها لابنها. أنتظر أن تكمل الحمامة بقية الموال لكنها تصمت. لحظات، ثم تغني الجملتين ذاتها وتكررهما مرارًا وتكرارًا.

تفلت من بين كفي وتقف على رأسي، تخلع بضع شعيرات وتطير خارجة، أمسك رأسي متألمًا وأنا أفكر، لا أعرف تفسير فأل الحمام كما كانت تفعل أمي، لكنني أشعر أن هناك معنى ما خلف زيارة الحمامة لي ونزعها لشعري.

* * *

استيقظت على هرج في الخارج. من النافذة أرى البغال المحملة بالعرائس الذهبية والمنحوتات مغروسة في الطين، يحاول خدم الولي إنقاذ حمولتها على عجل.

يتحدث الشواف الأعور وهو يرفع عباءته الخضراء وجلبابه حتى تكشّف فخذاه، يهتف في "باقي" أن يتعجل، فموعد "الناس" الليلة. من يقصد بالناس؟ وهل لهم كل هذا الذهب؟

أتحين فرصة انشغال الجميع وأتسلل خارجًا من حجرتي، أتلفت فلا أجد أثرًا لأحد. أبحث عن السلم المؤدي إلى السطح. أتسمر مكاني حين أسمع خطوات دقيقة، ألتفت لأرى "نجية" في ثوب زهري طويل، وقد ضفرت جدائلها فصارت أقرب للطفولة. كانت تناديني لكن لا يبدو أنها تعرف اسمي. أقترب منها فتلصق ظهرها بالحائط وتتبدى عروسة قماشية مكتحلة في يدها. أبتسم، فترتعش شفتاها في ابتسامة وجلة. أخبرها باسمي فتكرره مسبوقًا بـ"سيدي". أسألها إن كانت تريد شيئًا، فتهز رأسها نفيًا، ثم تقول لي إنها خائفة. أمها مع النسوة في حجرة التجلي منذ الليل، وأبوها لم يعد منذ الأمس. الخدم مشغولون في الخارج وهناك شيء عجيب يحدث في حجرتها.

أخـذت بيدها كـي تقودني إلى هذا الشيء الغريـب الذي تتحدث عنه. كلما هزم الرعد توقفت فزعة، فأربت على ظهرها ألّا تخاف.

في حجرتهـا، كان المـاء قد تسرب مـن فتحة صغيرة في السـقف، وأخذ يتلوى في مسـار معقد على الأرض. لا يمس بسـاطًا ولا يكسر في مسيرته أثاثًا.

ركعت على ركبتيها كي تشـير إلى مقصدهـا. انحنيت أدقق النظر وأنـا أدس الحجاب داخل صـدري. كانت المياه كثيفـة، كأنها زيت. كلما قربت "نجية" إصبعها منها ابتعدت. تلتفت لي "نجية" متسـائلة، فيفزعها ما تراه عند قدمي وتتراجع للخلف فزعة.

كان الماء يلف حول ساقي كاللبلاب، يكبلني ويثقل وزني فأسقط. أسـتغيث بـ"نجية" فتلطم خديها، ثم تمسك بالوسادة وتهش الماء عن ساقي في براءة.

يكسو الماء جسـدي كرداء ضيق، أختنق، فأسمع صوت المستورة يتسلل إلى روحي. تطلب مني أن أنبش كما تنبش المرأة، تخبرني، بصوت منغم عذب، أن الحلقة تغلـق من جديد والمكتوب في الصندوق تعاد كتابتـه مرة أخـرى. عليّ أن أنبش كـما تنبش المرأة، عـليّ أن أنبش كما تنبش المرأة.

كعـادة المسـتورين في التغنـي بالألغـاز، وتكرار العبـارات ذات الفائـدة، ظلت مسـتورة الماء تكرر كلماتها وهي تنسـحب من حولي. أجاهـد كـي أعب الهـواء، مبلـلاً أرقد عـلى الأرض، تهـرع "نجية" وتغطينـي بحِرام صوفي. تبكي وتسـألني ماذا تفعـل، أطلب منها أن تعيدني إلى حجرتي، وألّا تخبر أحدًا بما رأت.

* * *

أرتجف وأسعل، لا أنفك أفكر في المرأة التي تنبش، من تكون؟ وكيف أحذو حذوها؟ الأمطار لم تتوقف منذ ثلاث ليالٍ. يبدو تكرارًا للطوفان الأول، كما رأيته في صندوق الحكواتي. طوفان من الرمال قد دفن كل من وقف أمام الشاهين. السباع تنجرف في الموج الأصفر وتطمر كل ما شيدته.

لا بد أن عهد الجن قد تم تجديده، النسوة المجتمعات في حجرة التجلي في غفلة من الرجال، قد جددن العهد الذي ماطل الشواف في تجديده.

طرقات خفيفة على الباب، ثم يطل من فرجته رأس "نجية" الدقيق. تبتسم فأرد الابتسامة. تغلق الباب وتجري مندسة في الفراش جواري. أسألها هل أذن لها والدها، فتجيب بأنه لم يعد، وهي بعد خائفة. الكل مشغول كما هي الحال دومًا، وصوت الرعد يخيفها.

أطوقها بذراعي، وللمرة الأولى أشعر بدقات مختلفة في قلبي. كيف تكون تلك الزهرة ابنة لذلك الخبيث؟ ليتني أستطيع أن أهرب بها، لكنني أخشى أن أؤذيها بظلمة مستقبلي وتساؤلاتي التي لا تهمد.

تطلب مني أن أحكي لها حكاية، فأخبرها أنني لا أعرف سوى الألغاز. أسعل، فتعتدل جالسة جواري وهي تتأكد بنظرها من غلق الباب، ثم تحكي لي هي وهي تمشط شعري بأناملها.

تحكي عن الملتهمة، التي هي خليط من التمساح وفرس النهر والسبع، وكيف انتصر عليها الولي ونفاها في الصحراء. أسألها وماذا كانت تفعل الملتهمة قبل نفيها؟ تجيبني متسعة العينين بأنها كانت تلتهم الرجال العابرين الفلاة إلى واحة السباع.

أطمئنهـا بأنه لا شيء ممـا تحكي عنه يخيف، فنحن لم نر أيًا من تلك الأشـياء الخفية من قبل. تنظر إليّ رافعة حاجبًا مسـتنكرًا، تذكرني بما حدث معي في حجرتها. لا أجد ردًا فأغمض عيني، وتظل هي تحكي وتصدق حكايتها فترتجف، حتى أغفو على ذراعها.

* * *

مسحوب فـوق الرمـــال

أسـتيقظ عـلى "باقي" يلكـزني، أنظر جـواري في هلـع لأجد أن "نجيـة" غير موجودة. يطلب مني "باقي" أن آتي معهم، فالوقت يمر ولا بد أن نجد الصندوق. أخبره أن الجن سيجهز عليّ لو استمرّيت في النبش. يمســح على وجهه اللحيم ويجلس أمامي. يقول إنه سيخبرني بكل شيء يعرفه، وعليّ أن أقاوم المستورة وأنجد أهل كوم الحنت.

يحكـي "باقـي" عن صنـدوق الدنيا، ذلك الذي يحوي شـهادات المسـتورين عـن أفعالنا، وكيف أنـه قد طمر في أثناء حرب الشـاهين والجـن مـع المسـتورين الذين شـطوا عن حكمـه. ذلـك الصندوق يحـوي التاريخ الحقيقي لكوم الحنت، وهو مـا يريده الفرنج. فهم لن يقبلـوا بالذهب كما كانوا يفعلون في الماضي. فزعيمهم الآن يطمح إلى السـيطرة على كنوز الأجداد وأرضهم وتاريخهم. ولن يحكم السيطرة على تاريخ كوم الحنت ومستقبلها من دون هذا الصندوق.

أسأله إن كان الصندوق قد طمر في الرمال بالخطأ في أثناء حروب

الشاهين، فما علاقتي به؟ وكيف أنني الوحيد من يستطيع العثور عليه؟ إذًا لا بد أن أحد أجدادي قد دفنه ولم يطمر من تلقاء ذاته.

يصمت "باقي" كأنه قد أدرك فجأة صحة كلامي. أمسكُ كفيه وأمسك بالباب الذي واربته. أدس في فرجته المظلمة شكوكي. ماذا، يا "باقي"، لو كان الشواف يريد الصندوق لخدمته الخاصة؟ ماذا لو كنت أنا وأختي أحق بهذا الصندوق؟ أليس من الأضمن أن نبحث معًا عنه ونعرف حقيقته وأبعاده؟ ثم لو رأينا الصالح في تسليمه للشواف، نفعل.

تثقُل أنفاس "باقي" ويتدلى خداه فيما ينحني ركنا فمه لأسفل. يبرم طرف شاربه مفكرًا، فيدخل أحد خدم الشواف يستعجلنا. يقوم "باقي" ويساعدني في ارتداء ثيابي. يسألني عن "نجية" وإن كنت عاشرتها مرة أخرى أم لا، ثم لا ينتظر إجابة ويقتادني إلى الخارج.

* * *

محمولٌ على ساعدَيْ خادم عظيم الجسد، يسير بي في الوادي الغربي حتى لا يجهدني المشي، أنظر بعيني وأحدد مواضع معينة. ينزلني جوارها، فأنبش جالسًا ولا أجد شيئًا. فيعود يحملني ويخوض بي الرمال المبتلة.

على مقربة من المكان الذي وجدت فيه قناع الصقر الذهبي، أجد آثار نبش واضحة لم تطمرها الأمطار بعد. أعلم جيدًا أنها ليست لي. تتجمع فيها المياه كعيون صغيرة لامعة. يلاحظ الشواف نظراتي فيهمس لـ"باقي" متسائلاً عمن ينبش هنا بالذات، وكيف ينبش دون جهد؟! والأهم، عن ماذا يبحث؟

يرتجف "باقي" ويتلعثم. يجيب بأنه لا يعرف، فهو ليس النباش الوحيد في الوادي الغربي. لا بد أن أحدهم أخذ العهد على رجل ما، وساق الفضول الرجل إلى هنا.

يطلب "باقي" أن يعود إلى منزله، فهو لم ير أهله منذ قرر الشواف أن يستخرجوا الكنوز على نحو مكثف. يشيح الشواف الأعور بيده، ويخبره أنه لن يعود قبل أن يجدوا الصندوق.

أغيب عن الدنيا لحظات وأعود. أنفاسي تتسلل مني. ينظر الخادم الضخم في وجهي ويخبر الجمع أنني أضعف من أن أستمر اليوم أكثر.

يركل الشواف ويفقد عقله، يرغي ويزبد ويسبنا جميعًا، يسب مستورة الماء ويوشك على سب الشاهين ذاته.

نعود إلى حيث تنتظر البغال، نظري موجه للسماء الغائمة وأنا مسجى بين ذراعي حاملي، الشمس تغيب وتصبغ الغيوم بالأحمر. أرى الحمامات الأمهات تطير إلى حيث التل الفاصل بين الوادي والمقابر. للمرة الأولى ألاحظ طيرانها، فدائمًا ما ينظر النباش إلى الأسفل. تطوف حول بقعة بعينها على الحدود، تقترب وتبتعد منها في تناغم، ثم ترحل عائدة إلى كوم الحنت.

أتذكر موال حمامة "بكرية"، وأردده في وهن:

قلبي بيدور عليك.. يا دي الحليوة يا أسمر
قبلي البلد وغرابيها.. وسط الدهب الأصفر

* * *

والغُز قامت ع الرجـــال

نمـتُ إنهاكًا، واسـتيقظت مع أول شـعاع للشـمس على صوت صراخ يشق الصمت. قمت فزعًا ونظرتُ من النافذة. امرأتان تقفان وسـط الحارة تلطمان الخدود وتصرخان، إحداهما تنزف من ذراعها. يلتـف حولهما خدم الشـواف النائمون في الخُـص. تحكيان في كلمات لاهثة أنهما كانتا ذاهبتين مع زوجيهما وعدد آخر من النسـاء والرجال إلى السوق في منزل التجار، فاليوم هو الهلال الأول في الشهر، وفوجئتا برجال شـاحبي الوجوه يعتلون ظهور الخيل، ويحملون سيوفًا مدلاة من خصورهم. وقفتا أمامهم ورفعتا عين الشـاهين، فضحك الغرباء وتكلـم أحدهم بلغة كوم الحنت طالبًـا منهم الرجوع وأزواجهن من حيث أتوا.

تقدمـت "بهجة"، كـما حكت المـرأة، ولكزت الغريب في سـاقه، فضربها. تجمعت النسـاء حوله فاستخدم الغرباء أسلحة ذات صوت ونار وأردوا كل النساء والرجال قتلى، وفرت المرأتان منهم بمعجزة.

لقـد جـاء الفرنـج كما أخـبر "واكـد" ولم يصدقه أحـد. لا بد أن

المفاوضات مع الشـواف قد انتهت، وأنهـم بالفعل قادمون من أجل احتـلال كوم الحنت، وربما الاستيلاء عـلى صندوق الدنيـا كما قال "باقي".

يتجمع الناس حول النسـاء، وأرى الشـواف الأعور يهدئ القوم مرتجف الساقين. من خلفه تتعثر زوجته في ثيابها وتحاول تطبيب المرأة المصابة.

تعلن أم "نجية" بصوت عالٍ قوي أنها، والنساء، قد جددن العهد مـع الجن، فلن يقـدر الفرنج عـلى دخول القرى، وسـيحترقون على حدودهـا. يخطر ببال أحد الرجال أن يذهبوا إلى الضريح ويحتموا به، فلن يخذلهم الولي الشاهين أبدًا.

يدق قلبي وترتجف ذراعاي، أرتدي ملابسي وأخرج من حجرتي، لا بد أن أجد السـلم المؤدي إلى السـطح، لا بد أن أذهب إلى "واكد" كي يرشدني، ماذا أفعل؟!

أجد "نجية" أمامي متسـعة العينين، تسـألني أين أذهب؟ فأتردد. هل آخذها معي لتخوض طلاسم حياتي، أم أتركها لرعاية وليٍّ وهميّ؟

أسـألها إن كانـت تريد أن تأتي معـي، فتهز رأسـها إيجابًا وتذهب لارتداء شماساتها ثم تعود سريعًا، فأمسك كفها لترشدني إلى السطح. أجـد "باقـي" أمامي، يحاول منعي و"نجية" مـن الهرب، يطوقني من الخلـف ويصرخ فيّ أن عليّ أن أنتظر، أن أعطي لـ"نجية" ابنًا يبحث به الشواف عن الصندوق ولأذهب أنا إلى الجحيم.

أتملص منه وأمسـك ملابسـه، أقربه منـي وأصيح فيـه أن يفيق، أن ينظر حوله ويتقبل أنه بغل بجسـد إنسـان، يسـوقه الشواف يمنة

ويسرة. الفرنجة فوق رؤوسنا وهو يتحدث عن إنجاب طفل في علم الغيب. لا بد أن الشواف كان يأمل أن يشتري وقتًا بالمزيد من الكنوز المهداة للفرنج، وقت يمهله حتى تنجب "نجية" ويصير ابنها قادرًا على الحديث.

يتسمر "باقي" مكانه، وجهه محتقن وعيناه جاحظتان. يسألني همسًا كأنه يحدث نفسه، هل ما أقوله صحيح؟ أطلب منه أن يهرب معي وسأحكي له كل شيء، عليه أن يأتي بـ"بكرية" وابنه وأمي ويلحق بي عند "واكد".

أتذكر الصندوق، وأدرك أنني أتخبط. لا خطة لدي، فقط أخوض في رمال متحركة تبتلعني. أترك "باقي" تدور به الأفكار وأصعد مع "نجية" إلى السطح. تتمتم بدعاء للشاهين، فأمزق الحجاب من حول عنقي. تسقط عين الشاهين الفضية على الأرض فتهم هي بالتقاطها. أمسك يدها وأدعس العين بخُفي. تجحظ عيناها وتغطي فمها بكفها. أخبرها أنه لا وجود للشاهين، الشاهين وهم، كل ما عشناه وهم.

أخلع عنها حجابها فتتمسك به، تدمع. أتركه لها مؤقتًا. تتشبث بثيابي والريح تدفعنا دفعًا فوق سطح الدار. أنظر شمالاً لأرى أول صف من جيش الفرنج يتخطى حدود القرية، ويهتك ستر الشاهين علنًا.

أسمع صوتًا خفيًا، "باقي" خلفنا، يرى ما رأيناه للتو، يصرخ في يأس طلبًا لعون الشاهين. ألتفت إليه لأرى مصباح زيت في يد وفي اليد الأخرى عين الشاهين المعلقة في حجابه تتوهج بالحرارة من جراء تسخينها. يلصق الختم على جبيني فأصرخ وتحترق الدنيا أمام عيني.

* * *

عيـن الولي حارسـاك

أُسـاق إلى خارج الضريح مكبل اليدين خلف ظهري. الألم يتوج رأسي، تتوسطه عين الشاهين الدامية.

الجموع الملتهبة تنظر إليّ في غضب لم يستطيعوا صبه على شاهينهم فصبـوه عليَّ حـارًّا موقدًا. الشـواف الأعور يقف جواري، يمسـك بمرفـق ابنته المذعـورة الباكية. يشـهد الناس على أن الشـاهين يقظ، يراقب ويحكم، حتى زوج ابنة شوافه لم يهرب من عدله.

يطمئنهـم بأنه ما دام العـدل قائمًا بينهم، فما يمـرون به هو اختبار لإيمانهـم. الفرنج يحاصرون كوم الحنت ويطالبون بتسـليمهم البلدة. يطلب منهم الشواف أن يعتكفوا حول الضريح، ويبتهلوا للولي.

يـصرخ "باقـي" في الناس أن يصمـدوا أمام اختبار الشـاهين كما صمد. الجمع يجاهد كي يقنع نفسـه. يفقأ عينيه كي لا تُعميه الحقيقة. أنتم بائسـون يـا أهل كـوم الحنت. بائسـون وجهلاء وأنا لا أشـفق عليكم.

يلكز الشـواف "نجية" كي تحكي كيف رأت عين الشـاهين تظهر على جبيني عندما خلعت حجابي وأهنته. تحكي الفتاة وهي تتحاشـى النظر إلى أي شيء.

يسـلمها الشـواف لأمها، ثـم يقتادني إلى داخـل الضريح. يدخل "باقي" فخورًا بفعلته، بينما يأمر الشواف بقية الخدم بالمغادرة.

يسأل "باقي" عن مكافأته، يتأكد من الشواف من أنه سيظل ذراعه اليمنـى بعد أن يصل للصندوق ويحكم كوم الحنت. يصفع الشـواف الأعور "باقي" فيترنح كوم اللحم الشحيم في ذهول. صوت الجموع الغاضبة في الخارج تصب عليّ اللعنات وتحمّلني وزر ما حدث لهم.

يصرخ الشـواف في "باقي" بأنه أبله، كيف يفعل شـيئًا دون إذنه؟ يخـبره "باقي" أنه قد اسـتغل وسـمي على أكمل وجـه، ونقل غضب الناس من الولي إلى العاصي الذي شط عنه، فلمَ السخط إذًا؟

يعلن الشـواف أنه يكره المفاجآت في وقت عصيب كهذا. الجميع محاصر، ولا يوجد حل آخر سوى الاستسلام. عليه أن يترك كل شيء يسير كما يريد الفرنج، حتى يكسب وقتًا أطول ليبحث عن الصندوق ويتمكن من الانقلاب عليهم.

يسـأل "باقي" كأنه قد تذكر فجأة، كيف هتك الفرنج سـتر الولي الذي ضربه حول البلد؟ يجيب الشـواف بأن السـتر قد هُتك بسـبب العصاة من أمثاله ومن أمثال أخي زوجته.

يخرج الشـواف الأعور لملاقاة رسـول الفرنج. يقـف ضئيلاً أمام الحصـان الأبيـض المهيـب ويتحدث عـن هدنـة للتفـاوض. يقول

الرسـول إن الأوامر لديه ألّا يقبل إلا بالاستسـلام، فهل يستسلم أم ينقل ما قاله لقائده؟

يخـرج "باقي" مغلقًا باب الضريح بالقفـل. أنظر من النافذة فألمح "نجيـة" تقف جوار أمها مع النسـاء. تراني فتضـع كفها على صدرها وتهمـس "سـامحني". أبتسـم لها، وأنظـر نحو الشـواف، الذي يعلن الاستسلام.

نظـرات الراحة عـلى وجوه النسـاء جليـة لكل أعمـى. الرجال يتنفسـون الصعداء. الحسـرة تلتهم ما تبقى من روحـي، تنهي المذلة آخر أنفاسي فأخرّ على ركبتي. أبكي، أسـتعيد ذكرى الفضة المدفوعة للحكواتي كي يزيف حكاياته، منظر الحجاب المفتوح المنقوش بالعار، باللاشيء.

دمائي ليست دماءهم، أهل كوم الحنت موسومون، بينما جبيني أنا ينضح بالشرف. الآن أتحرر.

* * *

سأقتل من يقترب مني

أجلس داخل الضريح والليل قد أسـدل أسـتاره، في كفي إحدى أعـين الشـاهين الذهبية التي قطعتهـا من الحبال المدلاة من السـقف بأسـناني وثقـل وزني حتى أدميت فمـي، ومزقت بها قيـدي الليفي. طرفهـا حـاد يصلح للطعـن، وإن لم يسـعفني، سأسـتخدم أسـناني وأظفاري كما السباع في البرية.

اختفى الشـواف و"باقي" منذ أن اصطحبهما رسول الفرنج معه، لا أعرف مصيرهما ولا أهتم.

أحـاول خلع الحديد عن النوافذ فلا أسـتطيع. من سـجني، أرى العسـكر يدخلون الطرقات ويسـوقون الناس كالبهائم إلى زرائبهم. الليـل أتـى وهـو لا يصلح للجبنـاء والضعفـاء. تبتهل امـرأة للولي بصوت عالٍ، شاكرة إياه على حقنه للدماء ومرور الأمر دون حرب.

الرجال يُخرِجون سيوفهم الصدئة من البيوت ويناولونها للعسكر. أضحك؛ فهل يظن الفرنج أن رجال الكوم سيقاومون أو يثأرون؟

يبـدو أنه ما من سـبيل للهرب من الضريـح الآن، فرجال الفرنج يقفـون خارجـه، يقلبون الأواني ويدعسـون الشـموع. يزن أحدهم عين شـاهين من الفضة في يده ثم يدسـها في جيبه. أما خدم الشاهين المرابطون في داخل الحجرات الخاصة بطلب الـحَبَل، فقد وقفوا صفًّا أمامها منكسي الرؤوس. تقيء الحجرات محتواها من بخور ونساء شبه عرايـا، باكيات نائحات. لا بد أنهن قد جئن طلبًا للذرية، وأفقن وقد أدركـن أن ما بُذر في أرحامهن نبت حـرام. أما من حُرمت الإنجاب فقد باعت شرفها بلا مقابل، ووُسـمت بغضب الشاهين عليها، المرأة العاقـر في عرفنا مذنبة بذنب لم تقترفه، ككل من توزع عليهم الذنوب بكرة وعشية من أهالي كوم الحنت.

أعرف أنهن لن يبُحن بطامّتهن. سيلدن أوهامًا تُسقى بسراب آباء مغيبين، يكتبـون في أحجبة أبنائهم الزيف. هكـذا كوم الحنت دومًا، أقصد، كوم الباطل.

* * *

على فرس مُوشّى سرجهُ بالذهب، يدخل ما بدا لي أنه قائد تلك الجماعة. أحمر البشرة، طويل الأنف، أشقر اللحية والشارب. أعلى هامته غطاء رأس يشبه نصف الدائرة. المشاعل من حوله تضفي عليه هيبة لا شك فيها.

يتجه الرجل إلى الضريح، فأختبئ راكعًا تحت المقام المغطى بالحرير الأخضر. الرائحة غريبة هنا، رائحة قديمة خافتة تشبه رائحة التحلل. ركبتاي تدقان على لوح خشبي تحته فراغ. لا بد أن تحت الضريح بابًا ما.

أحاول النظر من بين ثنايا القماش، لأجد القائد يجلس وقد أتوا إليه بمقعد. ينظر حوله إلى حوائط الضريح ويبتسم ساخرًا. يتحدث لمن معه، فيبدأ عدد منهم في حك طبقة الجص التي نُقشت عليها عين الشاهين، ليظهر من تحتها الجدار الأصلي المزدان برسوم السباع والبشر ذوي أقنعة الحيوانات. رجل برأس صقر يضرب رجالاً ضئيلي الأحجام بمقرعة. مربع أسود منقوش بزخارف ذهبية يتوسط كل تلك النقوش. حوله حمامات ملونة ومن حولها كائنات تشبه البشر، لكنّ على أجسادهم رسمًا يشبه الأمواج بلون أزرق لامع. في أعلى الجدار صف من رسم للأجساد ملفوفة بما بدا لي كرسم بسيط للفائف قماشية مثلاً، رجال ونساء وأطفال. قطط وكلاب وتماسيح. شماسات النساء المرسومة مكونة من سبع دوائر، كل دائرة بلون مختلف كألوان الطيف.

المزيد من ملاحم الرجال ذوي رؤوس الحيوانات تتكشف على ضوء المشاعل. تتراص بين الرسوم حروف من اللغة القديمة أجاهد كي أقرأها فلا أستطيع أن أراها بدقة في الزحام والضوء المتراقص.

يقوم القائد ويلمسها في انبهار شديد. يتحدث مع رجاله فينظرون نحو المقام ويهزون رؤوسهم. أعتقد أنهم سيزيحونه ليروا ما تحته. أنبش سريعًا لأبحث عن مهرب، أو مدخل لما تحت المقام. تلمس أصابعي حلقة معدنية، أجذبها فتنفتح طاقة تسمح لرجل نحيل بالدخول فيها.

أدس جسدي، وأغرق في ظلام دامس ورائحة لا تطاق، وماء بارد يغمر جسدي.

* * *

أرتجف، أشهق! قدماي لا تلامسان قاع ما سقطت فيه. أمد يدي أمامي فلا تلمس شيئًا. على يميني حائط تشرّب الماء وصار لينًا، أشعر بأجسام معدنية صغيرة مغروسة فيه، تتساقط كلما لامستها أناملي.

أسبح في ذعر لأجد عن يساري حائطًا آخر باردًا لكن بلا أجسام معدنية. أسمع من فوقي على مَبعدة أصوات الفرنج، يتحدثون ويطرقون على الباب الخشبي. أسبح قليلاً كي لا يراني أحدهم، وألصق ظهري بالحائط. تنفتح الطاقة التي سقطت منها وأرى ضوءًا مشعلاً يندس فيها.

أرى الفتحة في السقف، وبجوارها سلم من حبال. الأجسام المعدنية في الحائط أمامي هي عدد لانهائي من أعين الشاهين الذهبية الصغيرة، يتبدى من خلفها شيء ما أثار في جسدي قشعريرة مضاعفة. لم أستطع أن أتبين صدق انطباعي عنه، فقد لمحتُ ساقي أحد الفرنج تنزلان السلم فلم أجد بُدًّا من الغوص والسباحة بعيدًا.

ضوء المشعل لا يقترب أكثر، لحظات ثم يبتعد الضوء مع كلمات متناثرة من الفرنج. يعود الظلام مرة أخرى.

أطفو كاتمًا السعال في صدري. يبدو أنهم قد أجلوا الخوض في المياه مؤقتًا. أعرف الآن أنني في حجرة أو نفق ما مملوء بماء عذب. ربما هو ماء من السيول التي اجتاحت كوم الحنت في الأيام السابقة. لو كانت المياه هنا منذ زمن لتساقطت الحوائط ولما ثبت ما خُيل إليّ أنني رأيته في مكانه.

أسبح مرة أخرى بحثًا عن آخِر للظلام المحيط بي. أسبح وأنا أرتطم بأشياء تطفو في الماء فأبعدها مذعورًا. الرائحة خانقة لكنها تخفت نوعًا كلما سبحت أكثر. أصطدم بحائط آخر، أتحسسه فأجد ما يشبه الباب المعدني المزخرف. أجد رتاجًا فأحاول أن أفتحه فأفشل. أدفع الباب فلا يبدو أنه سيتزحزح. أصوات من نوع آخر تتسرب من الأعلى، لا بد أنني في نفق يربط بين الضريح ومكان ما. صوت خطوات، وهمسات النساء من فوقي بلغة كوم الحنت.

يتحدثن عن عهد الجن، وكيف سار الأمر كما خططن له. تشكك إحداهن في أن العهد قد تم بشكل صحيح، فالمفترض أن العهد يمنع أي غزاة من دخول أرض كوم الحنت، وما حدث هو أن...

المرأة التي تتكلم هي أم "نجية"، تقول إن زوجها هو من اختار الاستسلام، وإن الجن لا دخل لهم في الأمر. أتذكر يوم زفافي، حين سقطت في الحجرة التي حاولوا أن يأخذوا عليّ عهد الجن فيها. ارتطم رأسي بباب خشبي أجوف في الأرض، ربما هو هذا الباب الذي يعلوني الآن.

إن كان هـذا النفق يوصـل بين الضريح وبيت الشـواف الأعور، ترى إلى أين يؤدي الباب المعدني؟ وهل للنفق تفريعات أخرى خلفه؟

أسـبح مرة أخـرى نحو الباب المـؤدي إلى الضريـح، أفكر في أي البابين أختار وما عواقب اختيار أحدهما دون الآخر. لن أموت هنا.

أهمس مناديًا المسـتورة، فهل تسمعني؟ في طفوي يرتطم رأسي في الحائط خلفي فيتسـاقط عنه المزيد من أعين الشاهين. أدور وأتحسس الحائـط في هلع. رائحة سـكر خافتة تؤكد ظني. من السـكر الذائب ألمس شـعرًا آدميًا مضفـورًا في ضفائر متعـددة رفيعة. مـا رأيته كان وجهًا لرجـل ذي لحية مضفورة بيضاء، وجلد متآكل مزرق. أسـبح سريعًا لجهة بيت الشـواف وأنا أشـهق كاتمًا الصرخات. أمسح كفي في ملابسي تحت الماء في جنون. هناك جثة محنطة في السـكر مدفونة في نفق. ما هذا الهول القابع تحت أقدامنا؟ وإلى أين يمتد؟

مع الوقت، يبرد جسدي وترتخي أجفاني. يبدو الموت الآن مقبولاً شـهيًا. ينزل رأسي تحت الماء فأشـهق وأسـعل في ذعر. أرتطم بالباب المعدني فيصدر صوتًا مكتومًا. أسـمع صوت نبش من فوقي، فأسبح مبتعـدًا ثـم أتوقف حـين يُفتح الباب وتتدلى منه يد تمسـك مشـعلاً. صـوت "نجية" تطلـب ممن فتحت البـاب أن تحترس مـن أن يكون الغرباء في النفق.

صوت أم "نجية" يتسـاءل في ذعر "من في الأسفل؟". أسبح نحو الضـوء فـأرى وجهها المنير بالمشـعل يشـهق في وجهـي. تطلب من "نجية" أن تغلق باب الحجرة سريعًا، ثم تمد يدها المكتنزة لي.

أمسـك بالحبـال المجدولة وأنـا أرتجف، أصعـد فتتلقفنـي المرأة

الضخمة بين ذراعيها. "نجية" تبتسم وتبكي في آن واحد. تنظر إلى أمها مستأذنة، ثم لا تنتظر إذنًا. ترتمي بين ذراعي وتهمس أن "حقك عليّ يا سيدي". أملس على جدائلها وأُقبّل جبينها. تأتي أم "نجية" بحرام صوفي وتضعه فوقي، ثم تغلق الباب الخشبي وتضع فوقه المنضدة النحاسية الثقيلة.

يتهدج سؤال على شفتي عن أمي وأختي، فتصمت المرأة وتنظر إلى نجية متحسرة، ثم تخبرني أن أخبارهما انقطعت منذ أن منع الأعور زيارات أختي لي. أسألها عن اللعين، فتقول إنه مع الفرنج لا أحد يعرف متى يعود وما إن كان حيًّا أم ميتًا. تلثم كفي وتخبرني أنني رجلها الآن. تتربع أمامي وتحكي مرتجفة عن شكوكها في أمر الجن. تتلعثم كثيرًا وتضيف أنها تشك في أمر ما يقال عن الشاهين، خاصة بعد ما حكته لها "نجية" عن الوسم ومن فعله.

أمد يدي للحجاب في عنق "نجية" فتغلق عينيها وتتركني أخلعه. أمزق خياطته بأسناني وأفتحه أمام عيني أم "نجية" الذاهلتين. أخبرها أنني أقرأ اللغة القديمة وأن المكتوب في الحجاب هراء. الشوافون لا يعرفون اللغة القديمة، فقط يقلدون النقوش على التحف التي يجدونها في البر الغربي.

هكذا يبحث الشواف عن التاريخ الحقيقي المتمثل في محتوى صندوق الدنيا، فهو لا يستطيع قراءة اللفائف، ولا يعرف شيئًا عما حدث على تلك الأرض قديمًا.

ليحكم، يجب أن يعرف. مَن يعرف الماضي، يحكم المستقبل.

* * *

لن ننتظر حتى الصباح، فلا يعلم أحد ما سيفعله الفرنجة في النفق وقتها. أنزل مرة أخرى ومعي مشعل. تصمم أم "نجية" أن تأتي معي. تخبرني أن المياه لم تغمر هذا النفق من قبل قط، فقد كان يستخدمه زوجها أحيانًا في الانتقال سرًّا بين البيت والضريح. أسألها، ولِمَ قد يحتاج إلى ذلك؟ فتخبرني أنها لا تعلم.

بأعين منبهرة، رُحنا نشاهد النقوش على الجانبين، والنجوم المحفورة في السقف. يبدو أن السباع والرجال ذوي أقنعة الحيوانات لهم دور عظيم في ماضي كوم الحنت.

أقرأ المنقوش على الحوائط بصوت تسمعه أم "نجية"، مكتوب أن أرض الجنة واجهت سبع غزوات من الطامعين فيها. وكلهم قد هُزموا على أرضها على أيدي ملوكها من الرجال.

نقشٌ آخر يمثل سبعًا مهيبًا يعلق شماسات مستديرة على ظهر امرأة راكعة أمامه. بعض النساء يرتدين أعدادًا مختلفة من الشماسات يقفن خلف السبع. النص المكتوب يتحدث عن منح مربيات المحاربين رموز الشجاعة، والمتمثلة في "الحلقات السبع المقدسة".

على الحائط المقابل مطموس الكلمات، أرى سبعًا ممسكًا بسيف يقف على مرتفع ما، وأمامه رجال، يتوج رؤوسهم بأقنعة مختلفة تمثل حيوانات وطيور.

أصل إلى حيث الجسد المدفون، فتصرخ أم "نجية". تسأل "نجية" عما يحدث فتطمئنها أمها، وتطلب منها أن ترقب عودة الشواف الأعور.

أبحث حولي عن شيء أنبش الحائط به فلا أجد. أخرج كف

الشــاهين الذهبية من جيبي وأبدأ في حفر الحائط. تتعلق أم "نجية" في ثيابي طالبة أن نرحل ونترك الموتى وشـأنهم. تذكرني بالمحرمات وأنا أنبش في جنون والعرق يغمر جبهتي.

جسـم ثقيل يسـقط من الحائـط تحت المـاء، يبدو مـن التماعه أنه سيف ما.

ألهث وأخبرها أنني قد نبشت جثة أبي المحنطة، وفتحت الأحجبة، وقتلت حمامة أُمًّا، و...

تتحرر الجثة وتتسـاقط من حولها الأعين الذهبية والفضية، تسقط في المـاء على ظهرها. شـعر الـرأس واللحية الأبيـض المضفور يضيء بضوء المشـاعل. يرتـدي الرجل زيًّـا أخضر وعمامة بيضـاء سرعان ما سقطت عن رأسه نازعة معها شعره الطويل وجلده المتآكل.

عـلى صـدر الرجل قـلادة عين الشـاهين منقـوش حولهـا باللغة القديمة الصحيحة "أنا الشاهين، فاركع".

أتراجع وأترك القلادة، تسألني أم "نجية" عن المكتوب عليها فلا أقـدر على التعبير. أنا الآن أنظر إلى الشـاهين حين تجـلى عفِنًا متآكلاً. نسـبح مذعورين، قبل أن نصعد السـلم، ألمحُ ما يترقرق تحت سطح الماء. أسبح إليه وسط تحذيرات السيدة الطيبة.

كان سـيفًا ذهبيًّا، وعلى مقبضه منحوت اسـم صاحب السـيف، اسم جدي الكبير.

* * *

والضل لــه ملاعيـــبه

أختبئ طيلة الليل على سطح دار الشواف، أرقب من مكمني وسط الدجاج المهتاج ما يحدث في الجوار. أرى الشـواف الأعور عائدًا بعد الفجر بقليل على بغلته، يسـير جواره "باقـي". كلاهما مكفهر الوجه مغبره. يتجهان نحو ضريح الشـاهين. كنت أود لو أعرف ردة فعلهم عندما يكتشفون هربي.

أنادي "نجية" بصوت خافـت فتأتي وأمها مسرعتين. أخبرهما أن الوقت قد حان لنتسـلل هاربين، فالشـواف الأعور أمامه الكثير من المفاجآت كي يبتلعها واحدة تلو الأخرى.

تخـبرني أم "نجيـة" أنها ستسـاعدني على الهرب، لكنهـا لن تهرب معي، ولن تترك "نجية" يبتلعها المجهول في مسـتقبلي. أقدّر ما تشـعر بـه، لكنني أرى أن الوضـع في كوم الحنت ليس أفضـل من خارجها كثـيرًا. كانت خطتي أن نذهب إلى "واكد" ليدبر لنا ولـ"بكرية" وأمي خروجًا من البلد. فلا طاقة لي بكل هذا الغموض الخانق.

تصمت أم "نجية" قليلاً ثم تمسك عضدي، تسألني إن كنت سأترك أرضي وأهرب؟ تذكرني بسيف أجدادي الذي وجدته، واختيار المستورين لي لحمايتي، وصندوق الدنيا. أُنزلُ كفيها بهدوء وأقول ضاغطًا كلماتي، إنني لن أتحمل خطأ البهائم وأجدادهم من أهل كوم الحنت. أنا موسوم، ولن يروا فيّ شيئًا آخر سوى الزندقة والكفر. ولا قِبل لي وحدي بجيوش الفرنج.

تهز أم "نجية" رأسها أسفًا. أنزل معها فتعطيني فستانًا أسود وشماسات وغطاء رأس. تطلب مني أن أرتديها كي أستطيع الحركة معها بسهولة.

أوليها ظهري مخفيًا العار الذي يكسو وجهي رويدًا رويدًا كقناع من نحاس منصهر. أنا الآن أهرب، أجبُن، فهل ارتداء زي النساء أكثر عارًا مما أنا فيه؟

تتركني المرأة الطيبة، فأرتدي الفستان المنفوش، وأكحل عيني، أربط غطاء الرأس على شعري وأرتدي الشماسات السوداء المتربة. أدس سيف جدي تحت ملابسي وأربطه جيدًا.

شعاع الشمس الوليد يرمي ظلي على الحائط، مجرد امرأة ملعونة أخرى.

* * *

أسير وأم "نجية" في الحواري الضيقة. تتحاشى السيدة أن تتكلم مع أحد. نظراتي الجانبية تكشف ملامح الخنوع على أوجه الناس. الخال "مهران" يجلس على أول الحارة ينظف أحذية الفرنج الملطخة

بالطين. يتقاضى ثمن خدماته بأعين الشاهين الفضية التي جمعها الفرنج وأخلوا منها الضريح وما حوله.

تبيع "نهيرة" الفطير كعادتها، يخطف أحد الفرنج منها "المشنة" بحمولتها. تعترض، ترفع عين الشاهين. يقف الشاب الباهت أمامها يضحك. يخطف من يدها عين الشاهين ويمزح مع رفاقه. تتمسك الصبية بالعين وتكاد تبكي. تنادي على سيدها الشاهين مستغيثة. يلكزها الباهت بكوعه في صدرها فتسقط أرضا وتسعل.

أنظر إلى أم "بكرية" وإلى الصبية، تهز رأسها معلنة أنه ليس الوقت المناسب لمساعدة أحد.

نسوة من الأهالي يجمعن بقايا هدم حوائط الضريح في أجولة. تمسك واحدة منهن قطعة من الجص محفورة عليها عين الشاهين، تهم أن تقبلها ثم تتوقف، تضعها في الجوال في وجوم.

لقد خذلهم الشاهين وهم يعرفون ذلك. لكنهم لم يصدقوا بعد أنهم في العراء، بلا ظهر ولا ملاذ. لكن هل يقبلن يومًا أن يرسلن أزواجهن في حرب حقيقية يستعيدون فيها الكرامة والظهر والملاذ الحقيقي؟

نركب عربة تجرها البغال مع النساء الذاهبات إلى السوق. نقطع الطريق بين القرية ومنزل التجار والصمت يحلق فوق الجميع. حتى الحمامات تطير فوقنا صامتة. تتلقى زخات الأمطار فتتلألأ ألوان أجنحتها وسط السماء الرمادية. تقرر إحدى النساء الغناء. ليس غناءً مصحوبًا بالطبل والصفق كالعادة، إنما هو موال نائح موجع يعتصر العبرات من أعين النساء حولنا.

قالت الوجيعة أنا المخبية　　　مسكين حاله اللي ابتلى بيا

يا سيدي لما مال وراني　　　حدف العميمة ما لفها تاني

يا سيدي لما مال ما اتكلم　　　حدف العميمة ما عاد يتعمم

تمسك أم "نجية" يدي وتضغطها، تهمس أنها ستنتظر عودتي يومًا ما من أجلها، ومن أجل "نجية". صوت الأسلحة النارية من جهة منزل التجار يتعالى. رغمًا عني أقف فوق ظهر العربة أتبين ما يحدث. يقف البغل ويرفض التقدم أكثر. تصرخ النساء ويطالبن بالعودة، تستدير العربة فأقفز منها وأعدو نحو منزل التجار. أهتف في أم "نجية" أنني سأعود حين أتخلص من وسمي الحقيقي.

أخلع الشماسات والفستان وأرفع السيف الثقيل على ذراعي اللينة. لأموت الآن أو أصل لمبتغاي. لا مجال لحل وسط.

تنظر النساء بعضهن إلى بعض مستنكرات فعلتي ويصرخن أنني أنا ذو الوسم الزنديق. تأمر إحداهن بتوقف العربة، وتنزل خلفي، فتجذبها أم "نجية" وتُسقطها أرضًا. أقف في منتصف الطريق مترددًا، هل أعود وأدافع عن التي آوتني وآمنت بي، أم أمضي إلى مصيري وحملي الثقيل؟

تتجمع النساء حولها وهي تقذف بهن بذراعيها الضخمتين وطولها الفارع يمنة ويسرة. تهتف بي أن أتركها، فحياتي أثمن مما أدركه وأعرفه.

أعدو، وصوت النساء يتعالى. صراخ أم "نجية" المختلط بالاتهامات الموجهة لها. النسوة يطالبن الشاهين بالوسم الفوري

لـها. هذه زوجـة كبير الشـوافين أول من خرج عن الـصراط، فالوأد للفتنة. "اقصد هنا الوأد للفتنة قبلها فاء"

أمســح دمعة أفلتــت من عقال عيني، أصرع أفـكاري عن مآل أم "نجية" الشهمة، أمي التي لم تلدني. أمامي كان عسكر الفرنج مشتبكًا مع عدد من التجار. يبدو أنهم كانوا يسـعون للاستيلاء على البضائع أو الخيـول أو السـلاح. أطوح السـيف العظيم فأسـقط منكفئًا على وجهي. سنابك الخيل حولي تخبرني كم أنا ضئيل، ضعيف، بلا قيمة.

أتسـلل جوار الحوائط وأنا أخفي السـيف خلف ظهري. أبحث بعيني عن "واكد" وسط سحب الأتربة والرجال.

للمرة الأولى أرى معركة حقيقية، التجار يضربون ببراعة. أشاهد سواعدهم القوية تلوح بالسيوف، ونظراتهم الغضبى خلف أسلحتهم النارية المصوبة. تعبر جواري كرة معدنية صغيرة فائقة السرعة وترشق في الحائط. لا بد أنها نتاج قذف تلك الأسلحة العجيبة.

أكمل تسللي إلى داخل مبنى منزل التجار. شابان يجمعان الأسلحة وآخر يطبب رجلاً مصابًا. أدخل حجرة "واكد" وأنفاسي تكاد تتفلت هربًا من صدري بلا عودة.

في الركـن المظلم القـصي رأيتها، تحتضن ركبتيهـا وترتجف. تفتح عينيهـا الكحيلتـين ببطء وتنظـر نحـوي. "بكرية"، نحيلـة، مغبرة، مذعـورة. تقفـز من مكانها وتعتـصرني بين ذراعيها. تجهـش ببكاء لم أسـمع مثله قط. تقبل وجهي وتمسّ على عين الشاهين فوق جبيني، تقبلها وتقبل يدي.

مـن خلفها، في الركن ذاته الذي كانت تحتمـي فيه، أرى صندوقًا

خشــبيًّا أسود، منقوشًــا بالذهب. صندوق الدنيا، تقف فوقه في فخر حمامتها.

* * *

نصــل في الظلام الدامس إلى الأطـلال القديمة. يوجهني "واكد" من فوق حصانه الذي أجرُّه أنا إلى مبنى متهدم قديم.

حــين رأى "واكــد" أصدقاءه من التجــار يتســاقطون من حوله، ولمح بعضًا من رجال كوم الحنت يساعدون الأعداء في خنوع وتملق، وبــدا له أن الغلبة للفرنج. عاد سريعًا لحجرته كي ينفذ وصية صديقه الأعز، أبي، بألّا يمسنا أنا وأختي سوء من بعده.

لحســن حظنا جميعًــا، وجدنا مختبئـين في الركن وصنــدوق الدنيا ضئيل الحجــم عظيم المكانة بيننا. أخرج جــوالاً من خيش وضع فيه مــا وجده من مؤن. ومن حفرة في أرضية حجرته، أخرج كنزي الذي تركته في بيت أبي.

لم يكن ثمة وقت للدهشة والأسئلة. مزق قميصًا قديمًا وربطه على ذراعــه اليـسرى النازفة. من مكاني كنت أرى قطعــة من لحمه متدلية فوق كفه. ينقبض قلبي لمرآها، ورائحة دمائه تحرك أحشائي.

ربطــت "بكرية" صنــدوق الدنيــا، الذي هو في حجــم قط كبير، حــول بطنها، وأســدلت الفســتان المنفوش موارية إيــاه عن الأنظار، ولنأمل ألّا يلحظ أحدهم ذلك الانبعاج الذي أحدثه في ملابسها.

توقف "واكد" قليلاً لدى مرأى ســيف أجدادي. أســقط الجوال أرضًا وتقدم مني في انبهار. تناوله بين يديه كأنما يتناول شــيئًا مقدسًا.

مرر أنامله فوق اسـم جدي الأكبر، الذي بالمناسبة هو تنويع على اسم أبي، وكاد يدمـع. أخبرني أن أجداده أخـبروه أن جدي الأكبر هو من صنع سيفه بنفسه. وضاع هذا السيف بعد غرقه.

جـدي الأكـبر غـرق؟ أم لعلـه قُتل؟ هل الشـاهين هو مـن قتله واستولى على سيفه؟

لف "واكد" السـيف في قطعة قماش وربطه حول جسـدي محذرًا إياي من اسـتخدامه كي لا أؤذي نفسـي. فهو لم يصنع لأمثالي كما هو واضح.

كان التسـلل من الأبواب الخلفية صعبًا، ركب ثلاثتنا على حصان "واكد"، ورحنا نشق الصحراء تحت الأمطار المتكاثفة فوقنا.

قبيـل وصولنـا، سـقط "واكد" إعياءً مـن فوق حصانـه، كان قد نزف كثيرًا للأسـف. نزلنا وحاولت "بكرية" اسـتخدام حجر القدح كي تشـعل نارًا لتكوي جرحه. لكن محاولاتها فشـلت في ظل السيل المنهمر فوقنا. رفعناه على الحصان وربطناه، وسرنا جواره نخوض في الرمال المبتلة.

عنـد وصولنا أشـار "واكد" في وهـن إلى بيت مهدم تمامًـا بعينه، دخلنا فيه وأنزلناه، وتحت سقف نصف متماسك وحائطين بلا ثالث، راحت "بكرية" تحاول إشعال النار مرة أخرى.

يقـول "واكد" إن هذا هو بيت عائلتـه. يعرف وصفه أبًا عن جد. كان يـأتي هنا أحيانًا يشرب البـن، ويتخيل كيف كانت تلك الأطلال يومًا.

يحكي لي أنه تخيل نفسـه يافعًا، يسـتحم في البحيرة ويتلصص على

فتاة جميلة كحيلة تغسل ملابسها على الضفة الأخرى. تخيل أولاده الصغار وأولاد أبي، صديق عمره، يلعبون معًا ويشيخون معًا.

كان يصف لي مكان كل شيء تخيله كأنه يراه. هنا تكعيبة العنب، وهناك معبد الإله الواحد. فوق تلك التلة، المبنى الأبيض لمجلس الحكماء. كدت أشم رائحة الياسمين التي يصفها، وأسمع خرير الماء في البحيرة. هكذا كانت أرض الجنة التي نُبذنا منها.

تسخن "بكرية" طرف خنجر "واكد" وتباغته بكيّها للجرح. يكتم "واكد" صرخته، ليتردد صداها في عقلي. يرتجف جسده كالمحموم و"بكرية" ما زالت تجثم على صدره وذراعه بثقلها. ثم أخيرًا يفقد الوعي، تسحبني "بكرية" كي أجاورها في ركن خفي.

تحكي "بكرية" وهي مغمضة العينين، تحط حمامتها على كتفها وتهز ريشها لتنفض ماء المطر عنه.

في اليوم التالي لزفافي، انشغل "باقي" ولم يكن يعود إلى الدار إلا لمامًا. ولم تكن هي قادرة على الاحتفاظ بعقلها مع تزايد جنون أمنا، وبكاء ابنها المتواصل.

كان الشواف قد طلب منها ألّا تعاود زيارتي مرة أخرى، فعرفت أنه ينوي شرًّا، كأن نيته لم تكن مفضوحة من البداية. صارت تمضي جُل وقتها في حجرتي. تتشمم أرديتي القديمة. وحنت إلى عادتها القديمة، تمضية الوقت في الأطلال.

في أول أيام المطر، وقد كانت زخاته متفرقة، حملت رضيعها وارتحلت إلى ضفة البحيرة الجافة. خداها مبتلان فلا تدري أمِن دمعها أم دمع السماء، وبلا مقدمات، انهمر الماء فوق رأسها فانحنت

ل ابنها تظلله. ولدهشتها، كان الماء يتجمع في البحيرة الجافة بسرعة بالغة. حاولت الرحيل فانغرست أقدامها في الطين الذي راح يسحبها إلى البحيرة.

ظنت "بكرية" أنها النهاية، فتركت صغيرها الباكي واستسلمت، صوت غريب يتسلل إلى عقلها لم تستطع مقاومته، صوت ذكّرها بصوت مستورة الماء في حكايا الجدات. لكنها امرأة، ولطالما كانت المستورة مغوية للرجال؛ لذا كانت السباحة ليلاً محرمة عليهم.

حين غمرها الماء، ولفظت آخر نفس في صدرها، شعرت براحة غريبة، وكيان حانٍ يلفها. يغني هامسًا في أذنها أن تبحث، أن تجد الصندوق الذي طالما بحث عنه أبوها.

وعندما لفظها الماء، وجدت حجابها مفتوحًا. بينما ابنها ينظر إليها في تعجب وهدوء غريب.

جلست على ضفة البحيرة وراحت تنظر إلى الماء يُبتلع في جوفها حتى صارت بركة من وحل. صندوق الدنيا ليس أسطورة، وعليها أن تجده. لقد قُتل أبوها وهو يبحث عنه، وربما يُقتل أخوها أيضًا. لن يشك أحد في امرأة أبدًا، فلطالما كانت مهنة النبش للرجال. وإن كان من دفن الصندوق من أجدادها، فلا بد أنه قد دفنه في الوادي الغربي، حيث لا يجد أحد دفينة من ليس من دمه.

هكذا راحت "بكرية" تغني أمام حمامتها موالاً عن بحثها عن "الحليوة الأسمر في غرابي البلد وسط الذهب الأصفر"، وأرسلت الحمامة إليّ لعلّي أفهم أو أحاول المساعدة. تعجبت "بكرية" من فهم الحمامة لأمرها بالذهاب إليّ، ولم تتأكد من نجاح مهمتها إلا حين

عـادت لهـا وفي منقارها خصلـة شـعري. هناك وعي خـاص لتلك الكائنات يفوق ما تصورناه عنها.

أخبرها أن المستورة زارتني وطلبت مني أن أبحث عن الصندوق كما تبحث المرأة. كانت تقصد "بكرية" بالطبع. إذًا، هناك خطر ما من أن يجد الشـواف الصندوق قبلنا. لكن ما هو؟ هل هو خطر أن يحكم كـوم الحنت فقط؟ والأهم، هل يعرف الفرنـج بأمر الصندوق؟ لقد رأيت نظرات قائدهم إلى نقش الصندوق على الحائط في الضريح.

في أثنـاء بحـث "بكرية" في الـوادي الغربي، ذلك المكان الوحيد المحمـي مـن فضـول النباشـين، أرشـدتها ملاحظتهـا للحمامـات الأمهـات، كيف تطـير وتتجه في كل غـروب إلى بقعة محـددة، تقف فوقها وتبـدأ الغناء المتداخل، كأنها تفرغ مـا في جعبتها هناك. وتحت أقدامهـا الصغيرة، نبشـت، فوجدت كنزها. لذا رأيـتُ أنا الحمامات حائرة. لم تجد صندوقها من يوم أخرجته "بكرية".

أنظر إلى الصندوق بتمعن للمرة الأولى، يبدو لي مصنوعًا من مادة ما بين الحجر والخشـب. مليء بالخـدوش حول فتحته، كأن هناك من حاولـوا اغتصابـه مرارًا. أمـا النقوش الذهبية فهـي نقوش لحمامات وأشـباه بشر. وضعت أذني عليه فسـمعت صوت غناء خافت جدًّا، متواصـل، أصوات تشـبه الترانيم، لا أفهم من اختلاطها شـيئًا. على قاعـه، كان نقـش أراه للمرة الأولى. رسـم ملتف يشـبه المتاهات، في أماكن متفرقة منها كائنات مرعبة وفي منتصف المتاهة ميزان على أحد كفتيه رسم لقلب، وعلى الأخرى رسم لريشة.

يشـق صمت الليل صوت خيول تقـترب. تطفئ "بكرية" النيران وتعيـد تخبئـة الصنـدوق. بينـما أحـاول أن أوقـظ "واكـد". من بين الأطـلال ترى "بكريـة" مجموعة من الناس يحملون المشـاعل. الهواء يتلاعب بعباءاتهم، فلا بد أنهم ليسوا من الفرنج.

يسـتيقظ "واكد" فزعًا مصفر الوجه، يقـوم مترنحًا متحاملاً على نفســه، ويعد سلاحه الناري وسيفه. يناولني خنجرًا ويطلب مني ألّا أستخدمه إلا للضرورة.

أختبـئ أنا و"بكرية" كما طلب منـا "واكد"، بينما يجلس هو خلف حائط شاهرًا سلاحه الناري، يتلصص على القادمين ليخبرنا أنهم من الشـوافين وخدم الشـاهين. العمائم والعباءات تميزهـم عن غيرهم. كيف عرفوا مكاننا؟!

يطلب "واكد" من "بكرية" أن تعطيه الصندوق وتحاول الاختفاء تمامًا معي. أسأله ماذا سيفعل به، يخبرني أن الصندوق مسؤوليته، ولن يترك أي شيء يؤذيني أو يـؤذي أختي. وإن تفرقت بنا السُّـبُل لأي سبب، سيعود ـلو ظل حيًّا ـ إلى الأطلال.

تطلـب منـه "بكريـة" أن تدفـن الصنـدوق هنا حتـى ينتهي هذا المـأزق، فيخبرها أنه مـا دام دُفن خارج الوادي الغربي، سـتزول عنه حراســة أرض الوادي السحرية التي كانت تحفظه لمن يستحق دمه أن يجده، وسيجده أي شخص.

تناول "بكرية" لـ"واكد" الصندوق في تردد، ثم تعود وتطلب مني أن ننزوي في الركن الوحيد كي نختبئ عن الأعين.

تجذبني "بكرية" وأنا أتشـبث بنافـذة مهدمة، أحاول أن أرى منها

ما يحدث. آخر ما رأيته كان أحد خدم الشواف ينزل عن ركوبته ويتفحص الأرض من تحته. يبدو أنه يقتفي آثار حصان "واكد" أو ما شابه.

كأنه قد شعر، يحمحم الحصان ويحفر في الأرض، يفضحنا، فيعلن "واكد" عن نفسه شاهرًا سيفه.

تخلع "بكرية" شماساتها وتتقوقع معي داخل الحفرة الصغيرة، خلف الجلمود الرطب، تكتم "بكرية" أنفاسها وتمسك بكفي. وبكفها الأخرى تكتم أنفاس حمامتها كي لا تُفشي سرنا.

أسمع الشواف الأعرج يسأل عني، فقد عرف أن "بكرية" قد استخرجت الصندوق، من سواها وهي ابنة أبيها ومن دمه؟ وأين ستختبئ به إلا عند صديق أبيها، الزنديق الضال؟

تهمس لي "بكرية" بكيفية معرفة الشواف بأنها قد وجدت الصندوق؟ أكان يراقبها بشكل ما أم أنه فقط يرمي لـ"واكد" طعمًا؟ رجحت أنا الاحتمال الثاني مع معرفتي بخبث الرجل وألاعيبه. هل أنبه "واكد" أم أبتلع شكي؟

أحد رجال كوم الحنت الذين كانوا يساعدون الفرنج، قد أخبر الشواف الأعور عن رؤيته لي مع "واكد" و"بكرية"، نفِر برقابنا حين اشتد الوطيس.

يخبره "واكد" أننا افترقنا، وإن كان أنا ما يريده فليذهب ليبحث عني، أما إن كان يريد الصندوق، فالصندوق معه، وعليه أن يقاتل في سبيله.

ساد الصمت، أتبادل و"بكرية" النظرات، ابتلع "واكد" الطعم

مع كل ما يعانيه من تعب جسـدي ونفسي. من الظلم أن أعتبره فوق وهن البشر وزلاتهم.

طال صمت الشـواف، لا بد أنه يقيّم موقفه، فالخدم، كسائر أهل كوم الحنت، لا يستطيعون قتالا وإن أرادوا. الفرنج جمعوا كذلك كل السيوف الصدئة الموجودة. فبم سيقاتلون؟ بالنبابيت؟

أسـمع أحد الخـدم يهتف بشـوافه أن يسـتدعي الجن، فيخرسـه صوت "باقي". لم لا يستعينون بالجن فعلاً إن كان لهم عليه سلطان؟

يطلب الشـواف من "واكد" أن يترك الصنـدوق ويرحل. فحالة إصابته لن تمكنه من مقاومة أعدادهم، حتى إن كان يملك السـلاح. صوت سـيف "واكد" يشـق الهـواء، أطل بـرأسي قليلاً كـي أرى ما يحدث. تجذبني "بكرية" فأبعد يدها. "واكد" يمتطي حصانه، فيخرج خدم الشـواف عصيهم وهراواتهـم، يهتف فيهم الشـواف بأن رضا الشاهين المطلق سيحل بمن يأتي له بجسد "واكد" خاليًا من الحياة.

يتراجع الشـواف إلى آخـر الصفوف، بينما يهجـم الخدم في حماس مبالغ فيه، يهتفون باسم الشاهين ويطلبون بركاته.

"واكـد" يصوب رصاصته نحو الشـواف الأعـور، فيتلقاها أحد الخـدم، مهديًـا روحـه لوليهـم العفن. تجذبنـي "بكريـة" في جنون، فأبعدها. يغلبها فضولها فأشـعر برأسـها ينـدس في الفرجة جواري. أتحسـس خنجـري وأنا أشـاهد "واكد" يطـوح سـيفه في صفوفهم، متجهًـا نحـو الأعور الـذي راح يلهبهم بابتهاله للشـاهين ووعْدهم بمجاورته في عليائه.

الحصان يتلقـى ضربة على جبهته فيترنـح، يتكالب مجاذيب الولي

حول "واكد" فيسقطونه، ويسقط سيفه في مكان ما تحت الأقدام.

الدم يرتفع إلى رأسي، أقبض على الخنجر وأحاول أن أنسى فشلي مع السيف صباحًا. أقفز من مكمني فتلطم "بكرية" خديها وتحاول أن تتمسك بي فتسقط على جنبها أرضًا.

أرفع الخنجر وأرى "باقي" اللعين يتحين فرصة الهجوم على "واكد" بخنجره. لقد انتظر حتى تُنهك قواه ويسقط لقمة سائغة بين شدقيه. أصيح باسم "باقي"، فيهرع نحو "واكد" مسرعًا، محاولاً الوصول إليه قبلي.

نواجه بعضنا، يدفعنا الرجال في فورة حماسهم فتطيش ضرباتنا طاعنة الهواء.

أرى سيف "واكد" تحت قدمي فأحاول أن ألتقطه، يهجم "باقي" بجسده اللحيم فوقي فيطير الخنجر من يدي، خنجره يبعد عن صدري مسافة شبرين، أبعد يده بكل ما أوتيت من قوة. وجهه المحتقن يقطر بالعرق فوق وجهي. من خلف أسنانه المصفرة يسبني ويسب أختي.

ثم يسقط فوقي فجأة بلا حراك.

أدفعه لأجد "بكرية" تحمل صخرة ملوثة بالدماء وفمها فاغر عن صرخة ضاعت في الوغى. "باقي" راقد جواري يتشنج، ومؤخرة رأسه تنضح بالدماء وفتات العظام.

أتناول سيف "واكد" وأحاول الاقتراب منه، كان يتصدى للضربات بيديه العاريتين، بينما تسيل أنهار الدماء في أراضي العالم المنقوشة على وجهه. رآني فدبت فيه صحوة مضاعفة، يلقف مني

السيف ويصيح فيّ و"بكرية" أن نبتعد.

يصيح الشواف في الرجال أن يحضروا له الصندوق الذي مع "واكد"، من يأته بالصندوق له النعيم الأبدي في جوار الشاهين. من يأت بي قتيلاً فله النعيم الأبدي في جوار الشاهين.

تقف "بكرية" ذاهلة، بينما يترك الرجال "واكد" ويتفرقوا ما بين باحث عن الصندوق وباحث عن رقبتي.

أصيح في "بكرية" أن تبتعد، فتتنبه فجأة لتجد الرجال يتكأكأون حولي. تصرخ وتضرب بهراوة قتيل ما. تغرس أسنانها في رجل آخر فيصرخ ويسبها.

أحاول أن أتملص منهم، أرى "واكد" يهيب بنا أن ننضم إليه الآن بأي طريقة. تحاول "بكرية" أن تحيطني بجسدها، تتلقى الضربات عني، بينما أرى "واكد" يقدح شررًا، يمسك في كيس البارود الذي يستخدمه لسلاحه الناري. يرمي الكيس بعيدًا نحو الشواف الأعور ومن بقي من الرجال حوله. يلحظ الأعور ما يحدث فيعدو مبتعدًا. لحظات رأيت الشك في أعين الرجال، لقد هرب قائدهم من النعيم الذي يعدهم به.

ينفجر الكيس فننبطح أرضًا. انفجار ضعيف لكنه كان كافيًا كي يموت من مات ويهرب الباقون. يهرع "واكد" نحونا يضمنا إلى صدره. للمرة الأولى أشم رائحة أبي منذ قُتل. أتمسك في ملابسه وأتمنى لو توقف الزمن هنا والآن. ماذا يمكن أن يحدث لي وأنا محصن بين ذراعي "واكد" و"بكرية"؟ ماذا يمكن أن يحدث؟

* * *

قولــوا لحمـام البلـــد

رغم جراحنا لم نتوقف، لا نعرف متى سيعود الشواف، أو يدرك الفرنـج أن ما يبحثون عنـه معنا. نعبر الوادي الغـربي ليلاً، فيضعني "واكد" وأختي فوق الحصان المصاب، تكاد تزهق أرواحنا من رفض الجن لوطئنا سحره.

هل الجن حقيقي؟ هل أي شيء في هذه الحياة حقيقي؟

مـع أول ضوء للفجر، كنا قد عبرنا التل الفاصل بين نهاية الوادي الغربي والمقابر. شـعرتُ و"بكرية" بتحسـن مكننا من أن نسـير، بينما "واكـد" يـكاد يلفظ أنفاسـه تعبًا فوق الحصـان. أحـاول أن أحمل الصندوق عنه، لكـن يفتح عينيه فجأة مهددًا. أترك الصندوق وأنظر إلى الأعداد المهولة من تماثيل السـكر أمامي. هي أرض لم يطئها سوى الشوافين وخدم الشاهين. يحنطون الموتى في السكر ويحيلونهم تماثيل، ثم ينقلونهم إلى هنا وحدهم.

نسـير فوق ظلال التماثيل على الأرض. تذكرني بشخصيات خيال

الظل التي كنا نشاهدها في صندوق الدنيا. أقترب من أحد تماثيل الرجال وأطرق على جسد الحصان، أسمع صوتًا مكتومًا. أتناول سيف جدي من الجعبة فتسأل "بكرية" عما سأفعله. فقط أختار تمثالاً يبدو قديمًا وأضرب الحصان فيتشقق السكر ويتهاوى. غبار عفن الرائحة يغمرنا، وأبصر من خلفه عظام حصان، وأجزاء من رفات راكبه.

تنهرني "بكرية"، فأخبرها بما حدث يوم تحنيط أبي. لم يكن ثمة حصان ولا سيف، ماذا لو لم يكن ثمة جثمان من الأساس؟ تقول "بكرية" إنه لم تعد هناك فائدة من تذكر الماضي، فأصيح فيها أن الماضي هو كل شيء. ما نفعله الآن من فرارنا هو بحث عن الحقيقة، والحقيقة كلها تكمن في الماضي.

رفض الحصان أن يكمل أكثر، فترفقت به "بكرية" وراحت تملس على رأسه وتعطيه من الماء الشحيح الذي معنا.

نُنزل "واكد" من فوقه ونجلس لنلتقط أنفاسنا. حين فتح "واكد" فمه، أخبرنا أنه لم يكن ليصحبنا معه إلى تلك الرحلة الخطرة أبدًا، لكن ها أنا موسوم، وأختي قتلت زوجها أمام الشواف، ولا مكان لها في بلدنا. يصمت قليلاً ثم يضرب بكفه السليمة الأرض. ينعتنا بالغباء والتهور، وأننا نزيد خطورة الرحلة أضعافًا.

تسأله "بكرية" عن وجهتنا للمرة الأولى، وأين سنذهب بالصندوق. يجيبها وهو يتحاشى النظر إلى وجهينا بأن الصندوق لا بد أن يُرد إلى السباع. إليهم ينتمي وهذا ما أراده أبونا وآباؤه من قبله، ولن يستطيع أحد فتحه إلا بمعاونة السباع.

تـضرب "بكرية" صدرها، فتحط حمامتها على كتفها وتحملق إليها كأنها تنتظر رد فعل ما. أمسك كف أختي فتضغط كفي وتهمس لي ألّا أخاف. ما كان أبي ليفزع من عبور واحة السـباع، فكيف لنا أن نهاب ما لم يعد محرمًا علينا حتى؟

يـرى "واكد" أننا غريران، لا نعرف ما قـد نواجه في الفلاة. حتى هو نفســه لا يملك إلا حكايـا قديمة منقولة عمن عـادوا من هناك. وكلها لا تتفق على رواية واحدة، فلكل رجل رحلته، وخبرته.

نتناول لقيمات معدودة، ثم أريح رأسي على كتف "بكرية". أتذكر أننـي لم أعرف منها بعد، لم كانـت عند "واكد" يوم وجدتها هناك، ولم تتحاشَ إجابة أسـئلتي عن أمنا. يطول صمتها كأنها تفكر. أعتدل في جلستي وأعيد السؤالين.

تتدحـرج دمعة وحيدة مـن عينها اليسرى، وتقول إنها لم تسـتطع العيش وحدها في الدار، بعد أن أحرقت أمنا نفسها وحفيدها.

* * *

بعد أن وجدت "بكرية" الصندوق، عادت إلى الدار ودفنته مع ما تركته من كنوز في حجرتي. كانت تأمل أن تسـمع مني أخبارًا بطريقة مـا. لكنها ما عادت تسـتطيع الاقتراب من بيت الشـواف بعد منعها عني بشكل مباشر.

قُبيل الغروب، كانت تغسـل جسـد أمي وتمشـط شعرها ساهمة. حتى لفظت أمي اسـمي بشـكل مدغم وهي تحـدق بعينيها إلى وجه

"بكريـة". وكما كانت تفعل دومًا، تهلـل وجهها وانطلقت تحكي عن عرسي، ثم اختنق صوتها وهي تحاول نسـج كذبة بخصوص اختفائي ومنعهم لزيارتي.

أشـارت أمـي لها نحـو حجـرتي وراحت تـزوم وتكرر اسـمي. فحملتهـا "بكرية" إلى هناك، ووضعتها فوق فرشـتي. فتحت النافذة الصغـيرة فوجدت الأمطار تغـرق المكان، فأغلقتها وأشـعلت نيرانًا في "منقـد" معـدني، ثم أضاءت مصبـاح الزيت وقربته مـن أمنا كي لا تشـعر بوحشـة. بعدها جلسـت ترضع صغيرها بينما أمي تمسـك بالفرش تتشمم رائحتي فيه.

بُعيد المغرب بقليل، سـمعت طرقات على النافـذة، فناولت ابنها لأمي ونظـرت، لتجد حمامتهـا تدخل وتدور في الحجـرة. تنزل عند موضع دفـن الصندوق فيها، تهبط وتعلو، تغنـي أغنيتها عن البحث عن "الحليوة الأسمر" وهي تنقر في الأرض.

هشـتها "بكرية" وحاولت إخراجها بالغصب، كادت تفلح، لولا أن دخلـت من النافذة مئات الحمامات تدور حول ذات البقعة وتغني بصـوت صاخب. كانـت تصرخ، وكانـت أمي تـصرخ، وكان ابنها يصرخ.

لحظات وكانت الحمامات قد كشـفت موضع الصندوق وراحت كل واحدة تقف عنده وتغني، ثم تطير خارجة لتسـمح لأخرى بفعل مثل ما فعلت.

مر وقت كالدهر حتى رحلت الحمامات، "بكرية" في ركن الحجرة تغطي أذنيها، وأمنا تضع ذراعها فوق الرضيع في الجهة المقابلة وتحدق

إلى الصندوق في صدمة لم ترها "بكرية" على وجهها من قبل. ربما رأينا معًا شبيهًا لها يوم عاد أبي غارقًا محمولاً على الأعناق.

للمـرة الأولى تدرك "بكرية" أن أمي تعرف شـيئًا بخصوص هذا الصنـدوق. حاولت "بكريـة" الحديث وهي تقترب عـلى أربع نحو أمنا، إلا أن الأخيرة زامت في وجهها آمرة أن تلزم ركنها القصي.

حكـت لها "بكرية" أنها كانت تعرف أن أباها يبحث عن صندوق ما، كذلك أخبرها "باقي" أن الشواف يبحث عن الصندوق بواسطتي ـأنا أخاهاـ لمصلحة الجميـع. وإن كانت تريد أن تزورني مرة أخرى، فعليها أن تقنعني بالتعاون أكثر معهم.

تخـبر "بكرية" أمي أننا لا بـد أن نرحل جميعًـا، لا تعرف إلى أين، لكـن أبانا كان يأمل ذلك. لا بد أن تحاول تهريبي من بيت الشـواف، ثم لنذهب جميعًا إلى "واكد" ليساعدنا على الهرب.

لطمـت أمي بيدهـا الوحيدة وسـبّت "واكد" بفـم ملوي. كانت تجاهـد كي تتكلم. للمرة الأولى تحاول الحديث فعليًا منذ أن سـقطت أنا في الترعة واختارت هي الصمت رغم قدرتها على الكلام المتلعثم.

قالـت ما معناه أن "بكرية" سـتقتلني بهذا الصندوق، سـتحرمها مني، وكل ما ضحت به من أجل حياتي في عمرها سيضيع هباءً.

قامـت "بكرية" وأخبرتها أنني ما عدت صغـيرًا، وأنها قادرة على حمايتـي من أي شيء يخطر لها ببـال. تعترف لها "بكرية" باكية بأنها من خاطت لي حجابي المفكوك، ومن وارت معي حمامة جدتي التي قتلتها. تعـترف أنها قد قابلت مسـتورة الماء ولم تمت. فأين الشـاهين من كل هذا إن كان للشـاهين وجود؟ ما يجب أن نخاف منه حقًا هو الشواف

الأعـور ولا أحد غـيره. وإن كان يريد الصنـدوق، فلن يحصل عليه أبـدًا. وإن كان إخراج الصندوق من كـوم الحنت هو مهمتي من بعد أبي، فستحميني إلى آخر نفـس في صدرها. أما إن أرادت أمي البقاء، فعليها أن تعطيها ابنها ولتفعل بنفسها ما تشاء.

قامـت "بكريـة" وأخرجـت الصنـدوق والجـوال الـذي دفنت أبـا فيه كنزي قبـل زواجي، سـمعت أمي تحاول الحديـث، فالتفتت إليهـا. كانـت تقول "ابنك مقابل ابني"، وهي تسـكب زيت المصباح فوق رأسـها ورأس الطفل بذراعها السـليمة. ثم بقدمها تقلب المنقد المشتعل عليهما فتمسك فيهما النيران.

تقسـم "بكريـة" إن أمها لم تـصرخ، ولم تطرف عينهـا وهي تنظر إليها في تحدٍّ. تحـترق الأم فتصرخ الابنة وتحاول اختراق النيران لتنقذ رضيعها الذي يبدو أنه فارق الحياة للتو. تسـحب كفيها وتلطم، تهيل عليهما من تراب الحجرة في محاولة للسيطرة على النيران.

لم تبـكِ "بكرية"، ظلت تنظر إلى الجثتـين المحترقتين وهي تحتضن ركبتيهـا في الركـن. لم تدرك أنها ظلـت على هذه الحـال طويلاً حتى تسلل ضوء النهار الغائم إلى الحجرة.

قامت، حملت الجوال والصندوق بداخله وواريتها التراب في حجرة الكرار. ثم خرجت أمام الـدار تصرخ وتصب الطين المبلل بالأمطار فوق رأسـها دون دمعة واحدة. تجمع الناس حولها، واخترقت النساء الدار ليفهمن ما حدث. فتوالى الصراخ منهن والنواح. ورحن يحمدن الشـاهين على ستره، فلولا أن أهالت "بكرية" التراب على أمها وابنها لاحترقت الدار ومن فيها وما حولها.

في الظهـيرة جاء الشـواف الأعـور واجمًا، عبر مـن أمامها ودخل

الدار. دخلت "بكريـة" خلفه فوجدته ينظر إلى الجثتين في صمت. ما إن شـعر بها حتى راح يبتهل للولي أن يرحم أمها ويغفر فعلتها، ثم في طريقـه للخروج وقف أمام "بكرية" وطلب منها أن تسـتغفر الولي لما تفعله ويستأهل هذا العقاب. سألته إن كانت تستطيع أن ترى أخاها، فهز رأسه نفيًا وركب بغلته ورحل.

جمعت النساء بقايا الجثتين في قماش أبيض، وذهبن بها إلى الضريح كي يدفنها خدمة الشـاهين بمعرفتهم. بعد المغرب، جاءت الحمامات مـرة أخرى، تبحث عـن موضع الصندوق في الـدار، لكنها لم ترحل فور أداء مهمتها بإيداع شهاداتها في الصندوق. حطت حولها، تتمسح في جسـدها وتغني بصوت خفيض. في المسـاء رحلت، بينما انتظرت "بكرية" حتى نام الجميع، وهربت إلى منزل التجار.

* * *

هكـذا أفهم سـبب تلـك النظـرة على وجههـا منذ رأيتهـا. ذلك النحول والوهن، وتلك الصدمة التي مزقت الابتسامات عن شفتيها وتركت مكانها بقعة دامية للأبد.

كان "واكد" يصغي لحكاية "بكرية" مرة أخرى وهو متكئ بظهره عـلى إحدى الجثث المحنطة. أخبرني أنه كان يخطط لتهريبي عن طريق هجمـة بالسـلاح على بيت الشـواف الأعـور مع عدد مـن أصدقائه التجار. ثم كان سيرسـلني و"بكرية" إلى بلـد بعيد، حيث يعيش من تـم نفيهم مـن كوم الحنت مـن أمثالـه، وكان سـيعيد الصندوق هو إلى السـباع مهما كان الثمـن. لكن الوضع تغير بين يـوم وليلة. دخل الفرنج، وتم وسمي وحبسي في الضريح. العسكر المسلحون يملأون الطرقات ليل نهار، ولم تعد خطته صالحة.

أسـأله، ماذا لو لم أفلح أنا في الهرب؟ فيعتدل في جلسـته وينظر في عيني. يخبرني أنه كان سـينتزعني مـن بين أنياب الهول ولو كان الثمن فقدانه للصندوق نفسه. فكل شيء يعوض، إلا أبناء صديقه.

يقوم ويتجـه نحو الحصان يطمئن عليه، كاتمًا ألمه الخاص، فنشـم رائحـة عفنـة خفيفة. تمسـك "بكرية" ذراعـه في رفق لتجـد الرائحة تصدر منه. يتبادلان النظرات فيهز رأسه في شجاعة.

أسـألها إن كان ما فهمت صحيحًا، هل ستقطع ذراعه؟! لا يجيب أحـد، فقط تمد "بكريـة" يدها الراجفـة نحو سـيفه. فيخبرها أنه لن يصلح، سيقطع اللحم ولن يهشم العظام.

بيد واحدة، يخرج سـيف جـدي الضخم من الجـوال. ثم يعلمها كيف تمسـكه، وكيف تضرب بقوة. أهرع إليه وأطلب منه أن يعلمني أنا، لِمَ يصر على تجاهل قدراتي؟

يزفـر "واكد" ويقـول إن "بكرية" أقـوى مني جسـديًا. ذراعاها اللتـان اعتادتا العجن والتنظيـف وحمل البضائع أفضـل من ذراعي النحيلتين الطريتين للأسف.

أخـبره أنني قادر عـلى ذلك، لقد حملت "بكريـة" على ذراعي من قبل ولسـت ضعيفًا أبـدًا. يُذكرني "واكـد" أن "بكرية" قتلت "باقي" بضربـة واحـدة ولم تجبُن أو تـتردد، وكل ما يحتاجه هو شـخص مثل "بكرية" يستطيع أن يطيح بذراعه بضربة واحدة.

أنظـر إليه في غيظ، وأتراجع إلى مكاني. أنظر إلى كل الفوضى التي أحدثتها بسـيفي منذ قليل، ألا ترى ذلك يـا "واكد"؟ أما زلت تراني طفلاً وتفضل عليّ امرأة؟!

راحت "بكرية" تتدرب سريعًا على حركة السـيف الرأسـية التي

يتطلبهــا قطع ذراع "واكد"، بينما طلب هــو مني أن أوثق ذراعه جيدًا كي أمنع تدفق الدماء فيها. أساعده وأنا بعد لم أنسَ ما قاله لي.

لِمَ يُسرق مني كل ما هو لي؟ ألقي نفسي في الترعة فتنقذني مستورة ما، أتزوج فيمنعها أبوها عني إلا بأمره، الصندوق صندوقي، فتجده "بكرية" ويعيده "واكد" للسـباع. أخوض معركة وأكاد أقتل، فتقتل "بكرية" عدوي. عمل يتطلب رجلاً فيختار "واكد" أختي بدلاً مني.

ما دوري في كل هذا إذًا؟ أنا عالق في تلك الدوامة التي تدور رغمًا عني. لا خيار لي ولا فائدة ترجى. ورقة شجر جافة سقطت وراحت تركلها أقدام المارين من مكان لآخر.

صارت ذراع "واكد" زرقاء، لا يشعر بها مطلقًا. أثبتها على صخرة وأمسكها جيدًا بينما أضع بقية جسدي فوق جسده مكبلاً حركته. ترفع "بكرية" السـيف إلى أعلى وهي تحكم أصابعها حول مقبضه. ترفرف الحمامة فوقنا تشـاهد، وتسـجل. تلك حمامة فخورة بصاحبتها فعلاً.

ينهال النصـل على الذراع مع صرخة مجلجلـة من "واكد" كادت تشـق السـماء. تسـقط الذراع عند ركبتـي فأتراجع مذعـورًا. كانت تتحرك حركة مرتجفة مرعبة.

يفقـد "واكد" وعيه، وترتجف "بكريـة" وهي تحملق إلى ما فعلته. لكنهـا تنتزع نفسـها وتكـوي الجرح مرة أخـرى. ثم تتهـاوى أرضًا جـواري. "بكرية" شـجاعة، "بكريـة" أفضل مني بالفعـل، عليّ أن أعترف بهـذا. إن كان هناك شـخص مختار من أحفـاد جدي الكبير، فهو أختي بالتأكيد.

* * *

أول طريـــق الليـــل ضِـــلال

نامـت "بكريـة" ولم يسـتعد "واكد" وعيه بعـد. أصعد فوق أحد الجثامين المحنطة رأسـيًّا، لأرى أبعد ما يمكن. كنت أخشـى أن يعود الشـواف، أخشى هجمة غير متوقعة من الفرنج، أخشى ألّا تكون لي فائدة في تلك الرحلة فقررت أن أبحث لي عن عمل ما.

الضبـاب المتكاثـف يزداد وأبدأ بالشـعور بثقل في نفسي. شـعور مشـابه لما عانيته أنـا و"بكرية" في الوادي الغربي نتيجة مس المسـتورة لنا، وغضب الجن من وطئنا لحرمه.

أنزل وأوقظ "بكرية"، فتشـهق، وأفهم أنها تعاني ما أعاني وإن كنا بخير نسـبيًّا. أطلب منهـا أن تنام، فلا طائل من سـهرها الآن. تريح رأسها على ساعدها مرة أخرى وتغلق عينيها. أتوسد الجوال فتنغرس حمولتـه في ضلوعـي، لا أبالي. أتأمـل وجهها الذي نحـل، وقطرات الدماء الجافة على وجنتيها وشفتيها.

أذكر أمي، شابة، سمراء، عابسة على الدوام. تجلس جوار "بكرية"

وهـي بعد طفلة، تضع خرقة مبللـة بالماء فوق جبينها كي تخفف عنها حمـى أصابتها، بينما تغزل "عروسـة" مـن جريد النخل، ترشـق فيها شـوكة طويلة من نبات ما وهي تتعوذ بالشاهين من مس الجان الذي ربما أصاب أختي.

بصوت راجف رفيع أسـألها، هل الجن مؤذٍ؟ فتهز رأسـها إيجابًا، ثـم تضيـف أن الجن مراوغ أكثر مـن كونه مؤذيًا. ينقـض العهد كلما وجـد من البشر ضعفًا. أسـأل وما ضعف البـشر؟ فتجيب "عصيان الولي الشاهين".

حين تنتهي من وخز "العروسـة"، تخلع عين الشاهين الفضية التي تعلقها "بكرية" مع الحجاب، ثم تدسـها في قلب "العروسة" وتلقيها في نيران فرن الخبيز.

بعـد تمام الاحتراق، تسـتعيد أمـي العين وتكحل عينـي "بكرية" بالرماد الملتصق بها، ثم تخيطها في الحجاب مرة أخرى.

لطالما كانت حكايات الجن تثير قشـعريرة ما في نفسي، ثم أضافت سني عمري إلى القشعريرة التساؤلات. الجن يتحكم فينا، يخيفنا تارة، ويحمينا تارة. نسـخره تارة ويسـتعبدنا تارة. يمنعنا ويمنحنا، يسعدنا ويشقينا. لم لا نبتهل للجن بدلاً من ولي غامض، متعالٍ في عليائه؟

أبلـل إصبعي بلعابي وأمسـح الدمـاء عن وجـه "بكرية"، تسرح عينـاي في الحجـاب المعلق فوق رقبتهـا. ألف أصابعـي حول الحبل وأفكـر في تحريرها منـه. أجذبه ببطء فتفتـح "بكريـة" عينيها فزعة، وتدفعنـي بعيدًا. تعتذر عن تصرفها، فقد زارها كابوس ما، تزعم أنها لا تذكر تفاصيله.

تطلب مني أن أنام، فقد هرب النوم من عينيها. تنظر إلى الصندوق الـذي كانت تتكئ عليه لبرهة، كأنها تتحقق مـن كونها تراه فعلاً، ثم تعيد ربطه تحت ثيابها.

تقـوم، فتطمئن على "واكـد" لتجده قد اسـتيقظ. يخبرها في لهجة جافة أنه بخير. يسألها عن الصندوق، فتخبره أنه في مكانه الأمين.

يتكئ "واكد" على ذراعه الوحيدة قائمًا ويسير نحو حصانه، يسأل "بكريـة" دون أن ينظـر إليها إن كان من الأفضـل أن يظل الصندوق معه. فترد عليه ردًّا مقتضبًا بأنه معها مستور عن عيني أي شخص.

لا أعـرف أهـو الظـلام أم أن هناك شـيئًا مـا يسري بـين ثلاثتنا. ففكرة أن تخبئ "بكرية" الصندوق تحت ملابسها ظالمة. هذا صندوق أجدادي الرجال، وأنا الرجل الوحيد المتبقي من عائلتي، فلم لا أحمله أنا؟! إن كان "واكد" مهمًّا لمسـاعدتي في الطريق، فما فائدة "بكرية" من الأسـاس؟ لم لا نوصلهـا لأقرب طريق للقوافـل، فيوصلونها للبلدة التي تحدث عنها "واكد" شـمالاً؟ يبـدو أن "بكرية" تحمل الصندوق معها كي ترغمنا على اصطحابها إلى واحة السباع.

يأمرنا "واكد" أن نشـد الرحـال، لا فائدة ترجى من طول مكوثنا داخل حدود كوم الحنت. في تشـتت فكري، أحمل الجوال من الناحية المغلقـة فتنسـكب محتوياتـه عـلى الأرض، وتتدحـرج رأس الصقـر الذهبي حتى تصل عند قدمي "واكد".

ظننـت أنـه سـيحملها ويناولها لي، إلا أنه أشـاح بوجهـه ونعتني بالأخرق، وركب حصانه يدور حولنا ببطء ليختبر صحته.

تجمع "بكرية" معي ما تناثر، وتسـاعدني عـلى حمله. ينزل "واكد"

عن حصانه كي نركب نحن، ويلكز الحصان كي يسير جواره.

رغم الوهن الذي حل علينا أنا و"بكرية"، لاحظنا أن هناك شيئًا غريبًا في "واكد"، صوته، ردود أفعاله، حتى صلواته التي كان لا يكف عن ترديدها منذ خرجنا من منزل التجار ساد بدلاً منها صمت كئيب.

على آخر جسد محنط في المقابر، حط غراب أسود ضخم، يشبه كثيرًا الغراب الذي قتله وجود المستورة يوم زفافي. حمامة "بكرية" تصيح، هديل عال متصل لم أسمع مثله من قبل. تحاول "بكرية" أن تمسكها لكنها تنفلت من بين يديها، وتحوم حول الغراب الذي لا يكف عن النعيق.

في عصبية بالغة، يرفع "واكد" سلاحه الناري ويصوبه نحو الغراب. تحذره "بكرية" من فعلته، فالغراب يعني وجودًا قويًّا للجن، خاصة مع اهتياج الحمامة بهذا الشكل.

يطلق "واكد" رصاصته فتطيش. يتململ الغراب لحظة، ثم يعود لوقفته المراقبة، بينما تطير الحمامة وتحلق على مقربة. يدس "واكد" السلاح بين ساقيه ويحاول إعادة تعبئته؛ فيده مهتزة مضطربة. أنزل عن الحصان وأحاول أن أساعده، فيدفعني. تنزل "بكرية" وتقف بيننا. تكلم "واكد" فلا يبدو أنه يسمعها.

يرفع سلاحه مرة أخرى لكننا نكتشف أنه لم يكن يصوب على الغراب من الأساس، فقد كان يبغي قتل الحمامة. تتعلق "بكرية" بذراعه بينما أنزع أنا عنه السلاح وأركله بعيدًا.

كان "واكد" يزمجر بجنون، وجهه محتقن واللعاب ينتثر من فمه.

عيناه بيضاوان مرعبتان، يتحدث باللغة القديمة. يقول إن الصندوق لن يخرج من أرض كوم الحنت أبدًا.

يضرب "بكرية" بذراعه فتتطوح لمسافة كبيرة كأن وحشًا هو الذي هاجمها. الحصان يقف على قائمتيه الخلفيتين ويصهل، لكنه لا يهرب.

لا أعرف كيف يعمل السلاح الناري، فأجري نحو الجوال أريد إخراج السيف. أنفاسي تثقل، بينما "بكرية" ساقطة على وجهها خلفي. يهجم "واكد" عليها ويحاول أخذ الصندوق من تحت ملابسها عنوة. يداي ترتجفان وأنا أبحث عن السيف في العتمة.

لِمَ يريد الجن أن يظل الصندوق داخل كوم الحنت؟ هل يريدون للشواف الأعور أن يأخذه؟ أم يريدونه مطمورًا مخفيًّا للأبد؟

أنكفي للأمام بعد أن دفعني الغراب وهو ينعق في جنون، بينما الحمامة الواهنة تحاول أن تصيبه بمنقارها. الريش الملون والأسود يمطرنا بزخاته.

"واكد" يمسك الصندوق ويكاد يقوم، فأجري وأغرس رأسي في بطنه. نسقط معًا، ألف ذراعي حول الصندوق فيلكمني "واكد" في وجهي. آه! ألم لم أشعر به من قبل. طعم الصدأ في فمي مُدوخ قاسٍ. لكنه ليس أقسى من حقيقة أن من ضربني هو "واكد"، أبي الثاني.

تتمسك "بكرية" بقدمي "واكد"، تصيح باسمه، عمي "واكد"، تذكره بأبي، صديق عمره. تذكره بوعده له، وعد يفوق كل عهود الجن مجتمعة.

أخبره أنا أن الصندوق هو ما قُتل أبي لأجله، يتوقف لحظة ويستدير لي. الصندوق تحت إبطه وخارطة العالم على وجهه غارقة

في العرق والدماء. يسألني إن كنت أريد أن أموت وأختي في سبيل صندوق فضّله أبونا علينا. يسألني عن عدد المرات التي مكث فيها معي، مقابل العمر الذي أضاعه في الوادي الغربي والأطلال بحثًا عن صندوق لا أحد يعلم على وجه الدقة جدواه.

كان صوته صوت "واكد" ولهجته وتعبيراته، أسمعه في الصمت الذي ساد فجأة. الغراب يقف على أطول الجثث المحنطة، والحمامة تقف فوق الحصان، ينظران إلى ما يحدث كأنهما عاقلان بشكل ما.

ينسى "واكد" أن ذراعه قد قطعت، فيرفع عضده متصورًا أنه سيستطيع أن يمسح وجهه في كمه المتدلي الفارغ. يقف أمامي ويخبرني أن هوس أبي بأن "يصبح شيئًا" قد دمر عائلته كما أرى. لقد كان شيخ النحاسين في سن صغيرة جدًّا، فلم يقنع وأضاع نفسه خلف سراب. فهل أريد أن أفعل مثله؟ أم أفر مع أختي إلى مكان جديد، وأمامي كل الفرص التي تخيلتها والتي لم أتخيلها؟ حرية مطلقة من الشاهين والشوافين وكل ظلال كوم الحنت الممتدة الرهيبة.

أسألهُ إن قبلتُ، فماذا سيفعل بالصندوق؟ سيعطيه للشواف؟ يضحك "واكد"، كيف أظنه بهذا الحمق؟ كل ما سيفعله هو أن يعيد دفن الصندوق في الوادي الغربي في مكان لا يعرفه سواه. هكذا يُفقد الصندوق للأبد، فهو لا ينوي الزواج أبدًا. بعدها سيرحل ثلاثتنا بعيدًا عن كوم الحنت. يمكنه أن يجد زوجًا أفضل لـ"بكرية" من أحفاد أبناء كوم الحنت، أرض الجنة، الأصليين. ويمكنني أن ألف العالم معه، أتاجر، أتعلم، أحصل على وشمي الخاص وتاريخي ومستقبلي.

تهتف "بكرية" سائلة عن السبب الذي غيّر من أجله رأيه ووعده بأن يعيد الصندوق للسباع. هل خاف؟ هل جَبُن؟ هل تخلى عن حلمه

بأن يعود وتعود كل العائلات القديمة لتبني الأطلال من جديد؟ هل تبخر حلم "أرض الجنة"؟

يصيح "واكد" فيها بأنها لم تفقد ذراعها، لم يُقتل أصدقاؤها أمامها ولم تخسر تجارتها من أجل تراب قذر يسمى بكوم الحنت، فكيف تجادله وتنعته بالجبن والتخاذل؟

بثبات غريب، تتقدم منه "بكرية" وهي تعد على أصابعها ما فقدته، فقدت شبابها بزواجها بـ"باقي"، فقدت ابنيها، قتلت زوجها وانتحرت أمها وفقد أبوها حياته، كل هذا بسبب كوم الحنت. كل هذا لم يجعلها تكرهها، هي فقط تكره ساكنيها ووليّها وذلها. كل هذا يجبرها على أن تستمر في رحلتها، تنفذ وصية أبيها، لعلها تُعيد أرض الجنة سيرتها الأولى بدلاً من الفرار منها.

تخطف "بكرية" الصندوق من يده بحركة مباغتة وتعدو، وأمسك أنا الجوال من طرفه، أطوحه بحمولته لتصدم "واكد" في مؤخرة رأسه.

لا أريد قتله، بل وأخجل من الاعتراف بأنني أريده أن يدفن الصندوق ونرحل جميعًا، ولتُحرق كوم الحنت بمن فيها. لكنني إن تركته سينال من "بكرية"، إن تركته سيقتل كلينا، فمن تكلم يستحيل أن يكون صديقي "واكد" أبدًا.

يطير الغراب خلف "بكرية"، ومن خلفه الحمامة، تتعلق بمنقارها في ذيله، فيرتفع للأعلى. "بكرية" تركب الحصان وتنادي عليّ. أحمل الجوال وأعدو، ألتقط سلاح "واكد" الناري وأدسه فيه، ثم أركب خلف "بكرية".

ينهب الحصان الأرض بنا، أنظر خلفي لأجد "واكد" يقف على قدميه بصعوبة ووهن، عيناه عادتا للونيهما الأصليين. لم أكن أعرف أن الجن قادر على تلبس البشر هكذا، لكن تُرى هل زال خطر تأثيره؟ يشير إلينا ثم يسقط على ركبتيه مرة أخرى.

الحمامة تصرخ وتنتزع المزيد من الريش الأسود، كلما اقتربنا من حدود الفلاة يزيد تنفسي و"بكرية" ثقلاً. أطلب منها في ضعف أن تعود بنا، فأنا أموت. تقبض هي على الصندوق أكثر وتنظر إليّ بشفتيها المزرقتين ولا تستطيع الحديث. تغلق عينيها وتفتح فمها، تكاد تختنق.

آخر ما أذكره هو صوت الغراب يمزق أذني، وسيل من ريش أسود يغرقنا. تسقط "بكرية" من فوق الحصان وأتبعها أنا.

* * *

أفيق فزعًا، أنظر حولي فلا أجد حدودًا لما أراه. مساحة شاسعة من الصحراء بيضاء الرمال. "بكرية" على الأرض محتضنة الصندوق، ومن حولنا كمية مهولة من الريش الأسود لا يمكن أن تكون لغراب واحد.

السماء بيضاء، بلا سحاب. الهواء غريب، نظيف كأنه هواء لم يتنفسه أحد من قبل. أوقظ "بكرية"، رقبتها دامية، يتدلى منها حبل ممزق ولا وجود للحجاب أو عين الشاهين في آخره. تتساءل، هل متنا؟ أهز رأسي، إنني لا أعرف حقًا.

الحصان واقف يهز ذيله، على شعره ريشات ملونات متناثرات. هل ماتت الحمامة البطلة؟!

إن كنا سقطنا في موضع مقتل الغراب، فلا بد أن المقابر قريبة من هنا، لكنني سرت في كل الاتجاهات ولم أجدها. تخبرني "بكرية" أننا في الفلاة المحرمة، أو التي ظنناها محرمة. لا بد أن هذا ما كان يراه الذاهبون للطلب قديمًا. تخفي عني عبرة سالت من عينها وهي تفرك ريشة ملونة بين أناملها.

تسألني، في أي اتجاه علينا أن نسير؟ فأخبرها أنني لا أعرف، كنت أود لو أن "واكد" قدم لنا عرضه الأخير بالفرار شمالاً قبل أن نكابد كل ما كابدنا. الآن نحن وحيدون، بلا سند، بلا اتجاه واضح.

نسير غربًا، عكس الاتجاه التي تشرق منه الشمس الآن. على الرغم من أننا المفترض في بكور النهار، فإن الفلاة مضاءة بشكل كبير، كأن هناك مصدرًا آخر للضوء سوى الشمس.

أفكر في "واكد"، هل مات؟ هل عاد إلى كوم الحنت؟ هل أجهز عليه الجن أم هام في المقابر مشردًا فاقدًا العقل؟

تتفحص "بكرية" مؤننا، فلا تجد إلا القليل من كل شيء. المشكلة أننا لا نعرف كم تبعد وجهتنا ولا كيف نصل إليها في أقرب وقت.

أراها تعطيني قطعتين من الفاكهة المجففة، وتشرب هي بعض الماء. ألوك القطعتين وأنا أضيق عيني، في الأفق، جهة الغرب، أرى ما يشبه الأعمدة الضخمة المتراصة على الجانبين. ألكز الحصان فيجري بنا. "بكرية" تحكم يديها حول خصري فأشعر بزوايا الصندوق الحادة على ظهري. لم تكن الأعمدة على مسافة بعيدة، السماء تميل للون الأزرق المحمر، وهو لون غريب على السماء المعتادة.

تحكي لي "بكرية" أن تلك الأعمدة تذكرها ببناء دارنا، فقد

تهدمت دارنا التي تزوج فيها أبي وأمي، فبنى أبي دارنا الجديدة على أطراف الحارة، مستعينًا ببنّاء معروف. ولأن أبي كان موسر الحال إلى حد كبير، فقد اقترح عليه البناء أن يبني الدار على أعمدة. لم يفهم أبي الفكرة حتى عاد البنّاء إليه بعد عدة أيام، محملاً بحجارة ضخمة منقوشة، بعض تلك الأحجار منحوتة على شكل زهرة حالت ألوانها. قال له البنّاء إنها أعمدة أصلية باهظة، لكنها متاحة لمن يدفع.

تعلقت "بكرية" في ثوب أبي وهي تملّس على الزهور المنحوتة، نظرت إلى جدتي بعينيها الواسعتين، فابتسمت الأخيرة ولكزت أبي من طرف خفي. فطلبات البنت البكرية "بكرية" واجبة التنفيذ.

هكذا تم بناء الدار على تلك الأعمدة، وفوجئت "بكرية" عند انتهاء البناء، بأن البنّاء الأبله قد غطى نقوش الأعمدة بالجص ونقش عليها برسم بدائي رسمًا للضريح ولعين الشاهين والحمامات الأمهات. "تلك أشياء مباركة" كما برر البنّاء فعلته.

لم يمكث الجص كثيرًا، فسرعان ما تساقط، وتبدت من تحته الرسوم الأصلية التي أبهرت أبانا، وكان يحاول نقشها كما هي على جلد مدبوغ، ثم توقف الجص عن التساقط، وتوقف الأب عن العودة إلى الدار كل ليلة، وبدأت رحلاته إلى البحيرة الجافة.

الحقيقة أني لا أملك ذكريات كافية مع أبي، أحيانًا ما تختلط عليّ الأمور، فأتذكر نفسي في مواقف مع أبي لم تحدث معي، وإنما حدثت مع "بكرية"، ومن كثرة ما تحكيها وتسرد كل تفاصيلها، أشعر أنني قد خضتها وعشتها بالفعل.

لا أذكر أنني رأيت نقوشًا على أعمدة دارنا، ربما لأن أمي ألصقت

فيما بعد أقراص الجلة حول النصف السفلي من الأعمدة كي تدعمها كما زعمت. الآن أرى أنها قد كرهت ما سببته تلك الرسوم القديمة لأبي، وأحبت أن تخفيها عني، ربما كانت على حق على الرغم من كل شيء.

نسير بين الأعمدة، تتسع عينا "بكرية" في انبهار وهي تشير إلى الأزهار العملاقة التي تزين نهاية كل عمود. تلك هي الأزهار التي أبهرتها طفلة. تلتفت لي وتسألني إن كنا نحلم؟ فأجيبها أن جوعي شعور حقيقي أكثر من أي واقع عشته.

أنا لم أتعرض للجوع قط، حتى في أحلك الأيام التي تلت وفاة أبي وقبل زواج "بكرية". لم تُشعرني أمي أن الطعام قد شح، أو أني لن أستطيع الحصول على الكسوة المعتادة في موعدها. لطالما كنت أنا صورة الدار ومثال ستره أمام أهل الحارة.

تمسك "بكرية" كفي فجأة وهي تشير نحو بئر من حجر أبيض أمامنا. دققت أكثر لأرى ما الذي يفزع "بكرية"، فلمحت ما يتسلل خلف البئر. بدا لي كحيوان ما. كان ظله متبديًا من خلف البئر، ممطوطًا على الأرض. ما أراه هو جسدا حيوانين من ذوات الأربع، ربما كانا قطين كبيرين أو ما شابه، لكن لهما عنقين طويلين جدا لا ينتهيان برأسَي حيوان مألوف.

كان العنقان الطويلان يلفان حول بعضهما ثم يفترقان. يتعانقان ثم يقتنص كل منهما الآخر. لم أجد الجرأة كي أقترب أكثر، فأوقفت الحصان وحاولت أن أستدير به ببطء.

من خلفنا، كان ممر الأعمدة لا ينتهي، يمتد حتى مطلع الشمس.

هنا لاحظت أن الشمس قد صعدت أكثر في قبة السماء بشكل غير متوافق مع ما شعرنا به من مرور الوقت. وسط الأعمدة سمعت صوتًا كأنه خبز جاف يتشقق، مع رائحة أعرفها جيدًا ولطالما ذكرت جميع أهل كوم الحنت بالموت. رائحة السكر المذاب.

أدير الحصان كي نهرب من خلال الأعمدة، فقط لنجد أنفسنا داخل ممر آخر موازٍ. كان المنظر يثير الدوار، خلفي في كل الأروقة، البئر البيضاء ذاتها، وأمامي شيء ما يتقدم، له رائحة السكر وصوت تكسيره.

كنت مرتعبًا، أرتجف، أود لو أننا نحلم، أقرص نفسي، أتكئ بظهري أكثر على الصندوق خلفي فيؤلمني. لا أفيق مما أنا فيه.

تحتضنني "بكرية" وتهمس في أذني ألّا أخف، نحن في الفلاة التي لم يجتزها سوى أشجع الرجال، فلا بد أن فيها ما يختبر شجاعتهم. أسترجع ذكرى أمي، التي كانت تخبئني في صدرها وأنا طفل، حين أخبرها أني خائف من مرأى خفاش أو قط أسود. تبدو ذكرى من عصر سحيق، كأنها لم تحدث قط. كانت أمي تحتضنني وتكرر لي أن عين الشاهين تحرسني، فمن ذا الذي يحرسني الآن؟

كان الهول القادم هو رجل يمتطي حصانًا، لكنه رجل محنط بالسكر الوردي، ذراعه متصلبة للأعلى وهو يمسك بسيف مشقوق الطرف. عيناه مرسومتان بالكحل، لا تطرفان. السكر متشقق عن مفاصل الحصان، يصدر صوت التكسير المنتظم الرتيب.

أنا أعرف تلك الملامح، أعرف ذلك الانبعاج في جسد الحصان الناتج عن سقوطي فوقه عندما أفزعتني حمامة خالتي "ود". هذا أبي.

في دهشة تنادي "بكرية" أبي متسائلة إن كان هو، سؤال غبي، لا أدري ما يمنعه من الكذب إن لم يكن أبي! أشد على ذراعها، أستبقيها كي تجلس خلفي على الحصان، إلا أنها تخبرني أن المطلوب هو المواجهة، ولأنظر حولي، هل أرى مفرًّا؟

نزلت عن الحصان ومشت في تؤدة نحوه، لعجبي، توقف حصانه ونزل هو عنه، صوت تكسير السكر يثير فيّ القشعريرة. عيناه المرسومتان المفتوحتان عن آخرهما تذكرانني بعين الشاهين التي لطالما اخترقت روحي وأحرقتها.

تغلب عليها عاطفتها فلا تلتفت لندائي، تهرول نحوه وترتمي في حضنه. تحيط وجهه بكفيها وتكرر سؤالاً بلا إجابة، لِمَ تركتنا؟

أجيبك أنا يا "بكرية"، تركنا أبي بحثًا عن أسطورة تعزز اسمه وتجعله ندًّا لصديقه "واكد"، الذي يعرف كل شيء. كان يريد أن يشعر بأهمية ما، هو المختار، هو المنتظر، هو الذي يقع على كاهله عبء الأبطال، عبء إنقاذ البشرية. أليس هذا ما تركتنا لأجله يا أبي؟

يتقدم أبي مني وهو يمسك بكفي "بكرية" وينزلهما عن خديه. أرتجف كلما تذكرت أنه مجرد جثة مكسوة بالسكر. يقف أمام حصاني، فلا أترجل. لن أدعه يمسني أبدًا. عيناه ثابتتان، لكنني أشعر بهما تتفحصانني. يخبرني أنني صرت شابًّا. صرت أبحث لنفسي عن أهمية ما، أن أكون المختار، المنتظر، الذي يقع على كاهله عبء إنقاذ البشرية. أليس هذا ما تركت بلدتي لأجله؟ تراني تخليت عنها، أم تركتها حتى أعود أقوى؟

ألعن كوم الحنت وأهلها، فهم لا يستأهلون شيئًا. أخبره عن

الذكـور الذيـن لم يعودوا رجـالاً، أخبره عن الولي الـذي صار جيفة نخرة. نعم، أنا أبحث لنفسي عن اسـم وتاريخ، بعيدًا عن اسـم كوم الحنت وتاريخها، بعيدًا عن اسمه وتاريخه.

تنهـرني "بكرية"، كيف أهين أبي، وهو اسـمي وتاريخي والطريق الـذي اخـترت أن أجتازه؟ لن أنقذ نفـسي دون أن أنقذ من أكره قبل من أحب. لن أسـتطيع أن أنتقي من الحياة ما يعجبني، الحياة تمنحني ما فيها، وعليّ أن أقبله كله، أو أتركه كله.

يسألني أبي، ماذا أريد؟ أجيب، حياة جديدة. يقول إنني على بداية درب الحياة الجديدة، فأحدد له أن حياتي الجديدة شمالاً، في أبعد نقطة عن كوم الحنت.

تسـأله "بكرية" عن سبب ظهوره لنا، وهي تعلم أنه ليس حقيقيًّا، فهل هو مجرد أضغاث أحلام؟ يجيبها أبي أن ما سيرونه هنا حقيقيًّا، لا يمكـن الفرار منه. يمكنه أن يقتل أو يُحيـي، كما يمكن للمرء أن يقتل نفسه أو يحييها.

أضحـك، فكيـف لتمثـال من سـكر أن يكـون حقيقيًّـا؟ تعبس "بكرية" وتسـألني أي تمثال؟ أُدهَـش إذ أعرف أنها تراه أبانا، كما كان قبل موته، شـابًّا قويًّا، بينما أراه أنا جثة مغطاة بالسكر لا حول لها ولا قوة.

تعطي "بكريـة" أبي ماءً، فينظر في القربـة ويطلب منها أن تشرب هي. تتردد لحظة ثم تعلقها في مكانها مرة أخرى. أعرف أنها عطشـى لكنها فضلت أن تدخر الماء لي إن احتجته.

يطلب أبي مني السـماح إن كنـت قد فهمت أنه قد تخلى عني، فمن

يوم ولادتي، ضربت أمي الحجاب بيني وبينه، كأنني ابنها هي ولا نصيب له فيه. يعترف بأنه قد تركني لها، تحميني مما تخافه، لكنه أبدًا لم يكن ليتركني لها بعد أن يجد الصندوق. كان سيرسلنا مع "واكد" إلى خارج كوم الحنت حتى يعيد الصندوق لواحة السباع، ثم يعود ليغير كل شيء، ويعيد لكوم الحنت ماضيها الحقيقي الذي نستحق أن نعيش فيه.

أنا لا أصدق تلك الصبغة البطولية في كلامه، ما زلت مصرًّا أنه قد فعل ما فعل بُغية مجد شخصي. تسأله "بكرية" عن المفترض أن يحدث حين يعود الصندوق إلى واحة السباع؟ فيجيب أنه لا يعرف، فقط أخبره أبوه وهو على فراش الموت عن الصندوق، وعن مسؤوليته تجاهه، ولم يعر أبي اهتمامًا لكلام أبيه إلا بعد أن قرأ النقوش على أعمدة دارنا الجديدة بمساعدة "واكد"، وأسرّ لصديقه بما يعتمل في نفسه.

يطلب أبي من "بكرية" أن تعطيه الصندوق ليسلمه للسباع، وأن تظل معي حتى نجد طريقًا للعودة إلى كوم الحنت. ترفض "بكرية" بينما أصيح أنا فيها أن تترك الصندوق اللعين هنا، هذا ما يريده السباع، وها هو في فلاتهم. فليظهروا ويأخذوه.

أرى نظرة خيبة الأمل في عينيها، تطلب مني أن أعطيها سيفًا وطعامًا وستكمل هي رحلتها. وإن وجدت أنا طريقًا للعودة فلأعد. وإن لم أجد، فلأنتظرها هنا جوار البئر إن عادت.

كنت أقيس الاحتمالات في عقلي، هل أستطيع العودة وقد رأيت بنفسي أن المقابر قد اختفت من خلفنا بلا أثر؟ هل ستعود "بكرية" من رحلتها؟ هل سيكفيني الطعام والماء حتى تعود؟ وماذا عن ذلك الحيوان العجيب القابع خلف البئر؟ ماذا عن تلك الكائنات المرسومة

على قاع الصندوق؟ ماذا عني، عن مخاوفي ونفسي؟

لست جبانًا، لكنني أكره الخسارة. "بكرية" لن تلين. أبي يهز رأسه لها وداعًا ويقبل جبينها. ثم يتقدم مني، يمد يده السكرية المشققة لي. أرى من خلال الشقوق جلده المزرق المتعفن. السكر الوردي يميل للحمرة أكثر مع انحدار قرص الشمس نحو المغيب.

أخفض عيني لوجهه، حاجباه منعقدان كحاجبي، أهدابه الكثيفة تماثل أهدابي. عين الشاهين الذهبية المغروسة فوق جبينه هي ذاتها وسمي المحروق على جلدي. هو، الباحث عن بطولة، المختار، المنتظر، هو أنا.

تقبض كفي على كفه دون أن أدرك أنني قد فعلتها. أذكر جولاتنا في المولد، مشاهدة حكايات الحكواتي، الفول النابت، الشال الحريري المعبق برائحته. تسلله ليلاً إلى حيث أنام والتمدد جواري. حكاياته السرية عن "واكد"، ورحيله من جواري قبل أن تشعر أمي أنه ليس في فراشها.

لقد كان معي وبشدة، كان معي رغم كل شيء لكنني لم أرد أن أرى تلك الحقيقة. كنت أريد شيئًا أتباكى بسببه كما كنت أفعل طفلاً. أسير حافيًا فتصاب قدمي بشوكة رفيعة من الأرض، فأبكي حتى يأتي الجميع ويلتفوا حولي، ماذا فعلت الشوكة اللعينة في قدمي الصغيرة؟ تلك الشوكة التي أسلمتها قدمي كي أحظى بالتعاطف.

كنت غاضبًا، لكنه بالفعل قد أوحشني، أنزل عن الحصان وأعانقه، أتدلى من رقبته كطفل وأمرغ وجهي في السكر الخشن حتى يتساقط. أوحشتني وأعرف أنني لن أراك مرة أخرى إلا في انعكاس

وجهي على صفحة الماء. أحـدق إلى وجهه، أجاهد كي تزول ملامح "واكد" عن ملامحه، أعافر كي أستعيد أبي الحقيقي، فيطغى "واكد".

لقـد كان معـي رغم رفض الجميع لوجودي معـه، تحمل إهانات أمـي، ذهـب معي إلى القرية حتـى يلبي طلب أختـي في ولادتها على الرغـم من عـدم اقتناعه بـما تعتنق. أرشـدني، أضاء ظلمات شـكي، سقاني، ائتمنني على حكاياته. تحمل كل شيء من أجلي وكان الأسهل أن يرحل عن كوم الحنت ولا يعود مرة أخرى.

لكن، تـراه فعل ذلك مـن أجل مصلحة شـخصية؟ من أجل أن ينفرد بالصندوق ويحظى بالمجـد؟ لمَ كان يمنحني الإجابات مقتطعة مجـزأة ويتركني في الظلمات أتخبط؟ لقد فضـل "بكرية" عليّ، أنا مجرد شخص في حياته، بينما أنا كالأحمق، اعتبرته محور عالمي.

يزول وجه أبي، وجه "واكد"، ليعود قناع السكر المتصلب، بعينين باردتـين محملقتين. أجهش بالبكاء، لا ماضي لي ولا مسـتقبل، مجتث الجذور، مريض الثمار.

ذراعا "بكرية" تحوطانني من الخلف فأستدير لها مغمض العينين، فتختلـط أدمعنا عـلى خدينا المتلاصقـين. أفتح عينـي، آخر جزء من الشـمس يغيـب خلف خط الأفـق، لا أعمـدة حولنا، فقـط الجثث المحنطـة في المقابـر، والغروب، وريـش الغراب الأسـود منتثر تحت أقدامنا.

كيـف عُدنا ولمَ؟! تتجمع الحمامات الأمهات حول بطن "بكرية"، تودِع الصندوق مواويلهـا، تتقدمها حمامة "بكرية" وقد فقدت بعضًا من ريشـها الملـون، لكنها بدت أهم مـن الباقيات بشـكل ما. لم تعد

حمامة مرددة للمواويل، فهي رغم كل شيء لم تكن ملك امرأة عادية.

أبحث بعيني عن أي أثر لـ"واكد"، فلا أجد. تسير "بكرية" نحوي والحمامات تطير حولها، تعبث بقدمها في الرمال المبتلة. كانت آثار أقدامنا واضحة، بينما آثار أخرى أقدم قليلاً تتجه غربًا نحو الفلاة. آثار أقدام "واكد".

هل لحق بنا؟ هل تركه الجن أم عبر معه إلى القفر؟! طمأنتني "بكرية" بأن الغراب قد مات، انفجر، تلاشى، ولا تظنه قادرًا على عبور الفلاة من الأساس. نتساءل عن السبب الذي عدنا من أجله، فالصندوق مكانه ونحن لم ننجز شيئًا هامًّا بعد. تقترح "بكرية" أن أختبئ هنا بينما تحاول هي العودة مرة أخرى لإعادة الصندوق للسباع. تؤلمني نظرتها إليّ بعد أن أفضيت بكل ما يعتمل في نفسي علنًا. لستُ جبانًا، أنا فقط لا أكترث لكل ما يحدث لكوم الحنت، وقد اكتفيت منه ومن أهله.

نجلس أرضًا، تحط الحمامة على كتفها وتنظر إلينا كأنها تنتظر أن نحكي لها عن مغامرتنا. تسرح "بكرية" في السماء وقد تبدى البدر من خلف السحاب. كان أبونا حقيقيًّا جدًّا في نظرها، كان شعوره بالفخر حقيقيًّا، كذلك حضنها الأخير له، كان حقيقيًّا أكثر من أي شيء خبرته في حياتها. تلتفت لي وتطلب مني ألا أضيع لحظة الفخر تلك، فلنعد إلى الفلاة ولنكمل طريقنا.

أما أنا، فقد انتزعت مقابلة أبي كل وهم تدثرت به في حياتي. فماذا تحمل الفلاة لي أكثر من ذلك؟ وإلى متى أتحمل قبل أن أجن؟

لم تترك لي الرحلة فرصة استرجاع خبر موت أمي، ولن أترك

لنفسي كي أنجرف في حـزن قد يقضي عليّ. رغم قسـوتها وجهامتها، كانـت هي الوحيدة التي أحبتني دون غرض ما. كنت أكفيها وكانت تكفيني. كانت مريضة بي، ولعل الموت شفاها أخيرًا وأمرضني.

تتحفـز حمامة "بكرية" وتحلق وهي تنظر ناحيـة أولى المقابر. نقوم فزعين، أتسـلق إحدى الجثث المحنطة لأرى سربًا أسـود من الغربان يقترب. أنزل مسرعًا وأنا أشـعر بثقل في نفسي، وكذلك "بكرية". لو وصلت إلينا الغربان لفتكت بنا.

نعتـلي ظهر الحصان وألكزه، فيجري بنـا نحو الفلاة. أنظر خلفي لأجد الغربـان تقترب، تكاد تحلق فوق رؤوسـنا. أفكـر في أن أنتزع الصندوق من "بكرية" وأسـلمه لها، أرفع فستان "بكرية" وأنا ألهث، محاولاً الوصول للصندوق، تنظر هـي إليّ وقد فهمت، فتنتزع الحزام عنـه. ينظر كلانا إلى الآخـر، نحن متعبان، ولا قبل لنـا بهذه المعركة، سنلقي الصندوق هنا ونفر، شـمالاً أو جنوبًا، العالم واسع والمستقبل منير.

يصهل الحصان ويتوقف فجـأة، "واكد" يقف أمامنا، على حدود الفلاة، يمسك لجام الحصان ويجره جرًّا نحو الغرب، وعيناه معلقتان بالغراب الذي ينقض على الصندوق بين أيدينا.

* * *

وإن عادوا عُـدنـا.. وإن ماتـوا عشنا

الشروق مرة أخرى، وريش الغربان يكسو بداية الفلاة. الصندوق على الأرض، "واكد" متربع على مقربة منه، لا يرفع عينيه عنه، "بكرية" تفتح عينيها بصعوبة وتمسك رأسها، تزحف نحو الصندوق وتظلله بجسدها. أنا، متدلٍ من فوق الحصان، أرى كل شيء بشكل مائل.

يلتفت "واكد" إلى الشمس، فيركع ويبدأ في صلاته. يبكي، يترجى الإله الواحد أن يحميه من شر نفسه.

تُنزلني "بكرية" من فوق السرج، وتعطيني طعامًا، أطلب منها أن تعطي شيئًا لـ"واكد". لا يبدو أن شيئًا قد تبقى معها كي تأكله. تتوقف اللقمة في حلقي، فكيف لم يخطر ببالي أن أسألها إن كانت قد أكلت؟ الماء أوشك على النفاد، ولا بد أن نبحث عن البئر مرة أخرى قبل غروب الشمس.

تعيد "بكرية" ربط الصندوق حول خصرها، وألاحظ أنها أدارت العقدة للخلف، كي لا تطولها بسهولة كما حدث وقت أثر علينا الجن.

أسأل نفسي، لِمَ ضعفنا هذه المرة؟ هل ضعفت سطوة مستورة الماء علينا، أم أن هجوم الجن كان أشـد؟ يبدو أنهم قد استهانوا بنا في أول مواجهة، أعني، قد استهانوا بـ"بكرية".

يحكي لنا "واكد" أنه قد لحق بنا بُعيد رحيلنا إلى الفلاة. كان متعبًا، جريحًا، لكن ما آلمه حقًّا هو ما فعله بوصية صاحبه. أتعجب من تمسكه بهـذه الوصية، هو الذي تم نفي عائلته ومنعه من دخول حواري كوم الحنت. يخبرني أن الخارطة على وجهه هي ما تذكره دومًا بأن له أصلاً مهـما ابتعدت خُطاه. من تم نفيهـم ما زالوا يتوارثون حكايات أرض الجنـة ولغتهـا، يعترف بـأن الحماس لتذكر تلـك الحكايا قـد خَفُت، والأجيال الجديدة لم تر أرض الجنة، ولم تسمع عن كوم الحنت إلا كل ما ينفرها من مجرد سيرتها. لكنه، "واكد"، قد سافر، ورأى، وعلم أن كل شيء بدأ في أرض الجنة وكل شيء سينتهي بنهايتها.

رغم كل شيء، تسـتقبل العائلات القديمة رسائله من كوم الحنت بحفاوة واشتياق، ينتظرون وقتًا يتقبل فيه أهل كوم الحنت وجودهم، لكن يبدو أن أكف الشـاهين ما زالـت تعمي الأعين رغم كل العقود التـي مضـت. فقد حاولا العـودة كثيرًا بعد رحيل الشـاهين، لكنهم قوبلوا بالاضطهاد والرجم. ولم يسـتطع أحد منهم أن يحارب ويقتل أهله ولو كانوا عصاة.

ما زلت بعيدًا عن فهم ما يقوله "واكد"، لِمَ يصرون على وضع بلدة صغـيرة بلا قيمة في كفة واحدة أمام العـالم أجمع؟ ماذا لو انتهت كوم الحنت؟

نسـير ثلاثتنا، يحكـي لنا "واكد" لقاءه مـع أبي في الفلاة. كان لقاء

قصيرًا، روى عطشه لصديقه وأعاد إنبات ما ضعف من همته. فقد طلب منه أبونا أن يجدنا، ويخرجنا من كوم الحنت ويدفن الصندوق، ترجاه أن ينقذ ولديه مما قد يحدث لهما في القفر الرهيب هذا. هنا شعر "واكد" أن من يحدثه ليس أبي، هو فقط ينظر إلى نفسه، يحدث ما ضَعُف فيه متجسدًا في رفيق عمره.

كان قرارًا عسيرًا، أن يترك أبي ويكمل طريقه، رغم ما لمحه في الأفق من مخلوقات لا قِبل لبشر بها، كان متأكدًا أن هوى نفسه لن يغلبه مرة أخرى أبدًا.

ظل يحكي لنفسه بصوت مرتفع كيف كانت لقاءاته وأبي في منزل التجار، تذكر حفنة التراب التي أهداها له أبي من البحيرة الجافة. وكيف تحداه "واكد" أن يذهب معه إلى هناك ولن يستطيع الشاهين أن يردعه. لكن أبي كان مترددًا، لم يجرؤ على التضحية بصديقه في مقامرة كهذه.

يخبرني "واكد" أن أبي كان من المؤمنين بولي كوم الحنت، ولم يخطر بباله ما خطر ببالي أنا، رأى "واكد" فيّ إكمالاً لما نقص في أبي. لدي الآن اليقين ببطلان الولي وعباداته، لدي مفاتيح ما أغلق أمام أسلافي، فكيف أتراجع؟

نسير صامتين، نبحث عما يصلح لاصطياده، فلا نجد. كانت الشمس في طريقها لتوسُّط جبين السماء، حتى رأيناها. سيدة طويلة، نحيفة، ترتدي فستانًا أسود ضيق الخصر، وعلى ظهرها شماسات سباعية سوداء. صوت بكاء رضيع يصدح في المكان.

كان أول من عرفها "واكد"، نطق باسمها، أمي. حين اقتربت،

كانت تحمل صقرًا بين ذراعيها، صقرًا بجسد وليد، الهواء يعبث بريشه البني، فيفتح منقاره باكيًا.

يستوثق "واكد" من أننا نرى نفس الشيء، فأعرف أنه يرى أمي فتاة مراهقة ترتدي شماسة خماسية ملونة، بينما تراها "بكرية" جثة متفحمة تحمل رضيعًا مشتعلاً، وأراها أنا أمي، الواجمة، تحمل صقرًا.

اقتربَت، الكحل الأزرق يحيط بعينيها، تبتسم لي، كأنها لا ترى سواي. نحن في دارنا، أشم رائحة الخبز والبيض المسلوق. ملابسي نظيفة وشعري مصفف. أشعر أن كل ما مضى كان حلمًا، أنا هنا والآن في الحقيقة الوحيدة التي مرت بي.

يمر "باقي" ويسألها مداعبًا عن أرغفة الحنون، فتهشه بطرف طرحتها. ينادي على "بكرية" صاعدًا السطح. تضع أمي الصغير الذي هدأ جوارها وتجلس، تجذبني كي أتكئ على فخذها وتغني لي وهي تمسد شعري.

أما قالوا ده ولد.. اتشد ضهري واتسند

الصقر الصغير يدير وجهه لي، عيناه كعيني الشاهين، أجفل، فتمسك أمي بي، وتحكي لي عن السوق والسيدة النصابة بائعة الأقمشة.

كان يومًا عاديًا، إلا أن أمي لم تكن بهذا الحنو أبدًا. لم تكن تبتسم، كأن شيئًا ما انتزع بسمتها وروحها بضربة واحدة. لكنها كانت تحميني، تسمح لي بالاندساس في صدرها حين أخاف. تحميني كما تحمي الضواري أبناءها حتى كادت تأكلني كالقطط.

تسألني، كيف جرؤت على كسر قلبها؟ فلا أستطيع الإجابة. لقد

أغوتني الدنيا يا أمي، أغواني الفضول. تقاطعني، إن المستورة هي من أغوتني وألقت بي إلى الهلاك.

تُلبسني حجابًا جديدًا، وقبل أن تغلقه، تريني اسمي المكتوب فيه، أنا، ولا شيء قبلي أو بعدي. تمسح بكفها على عين الشاهين المحفورة على جبيني، ثم تمسك كفي وتضعها عليها. اختفى الوسم، واختفت الجروح والقروح من جسدي.

تقوم فجأة وتسحبني ضاحكة، ستحممني كما كنت صغيرًا. لستُ خجلاً، فمنها نبتُّ، من تلك المرأة التي لم تتخلَّ عني أبدًا.

كانت تفرك جسدي بلوفة خشنة، أتأمل وجهها المحمر من المجهود. يختفي من ذاكرتي كل ما كان وأتجمد في تلك اللحظة. تسألني إن كنت أريد أن أظل معها، فأهز رأسي، لن أتركك يا أمي، أنا خائف، جائع. أنا عارٍ من الأوهام، تنهشني الحقائق. أخفيني في صدرك.

تحيطني بذراعيها المبتلتين، يَلفني البلل ويضيق عليّ، يتسلل الماء من جسدها إلى حلقي فأشهق وأبعدها. الماء من حولي بلا أول ولا آخر. الحجاب ينفتح أمام عيني فلا أجد اسمي، بل اسم "بكرية".

للحظة، أفكر أن أستسلم، فلأغرق الآن ولأمُت. فلأكن نسيًا وليخلد اسم "بكرية"، أو "واكد"، أو حتى الشاهين.

أغوص إلى القاع، يبتلعني الظلام. أصل إلى أرض باردة رملية، "واكد" و"بكرية" يحاولان قلبي على جانبي فزعين.

كنت أسعل والماء يخرج من صدري في دفقات. آثار صفعة محمرة على خد "واكد"، بينما فستان "بكرية" محترق الصدر، وكفاها منتفختان محمرتان.

حولنا، الموتى المحنطون يسخرون من عبثية ما يحدث لنا. لقد عدنا إلى كوم الحنت مرة أخرى! أركل الرمال وأقرر أن أسلك أي درب يوصلني إلى طريق القوافل. "واكد" يخبرني في برود وهو يستعد للعودة إلى الفلاة، أن أغلب التجار في كوم الحنت قد قُتلوا، ولا يعتقد أن قوافل أخرى ستعبر من هنا بسبب الفرنج.

أثور وأسأله لِمَ يحلو له ولـ"بكرية" أن يتشفيا فيّ؟ لِمَ يسعدهما أن يغلقا كل الطرق في وجهي؟ لقد تخليا عني فلِمَ أبقى على صحبتهما؟ يقترب مني "واكد" غاضبًا ويمسك ذراعي بكفه الوحيدة، يعتصرها ويرجني رجًّا. يسألني ما مشكلتي؟ وما الحلول التي أقترحها؟

لم يعد أحد من الفلاة اللعينة إلا من اجتازها ذهابًا وعودة، يموت من يفرّ، يموت من يجبن. فأي حلول أرى؟ كفا "بكرية" محترقتان، وتكاد تذوي جوعًا وأنا أتذمر كل لحظة من حِملي الذي يحملانه عني. يخبرني "واكد" صراحة أن رجال كوم الحنت، جميعًا، لم يعودوا رجالاً. ويبدو أن أبي كان آخرهم.

أحرر ذراعي وأدفعه، دفعة واهنة لم تزحزحه أنملة. يطلق ضحكة قصيرة ويهش الحمامات من حول "بكرية"، ويساعدها كي تعتلي الحصان، كانت تضم كفيها إلى صدرها وتحملق أمامها كأنها لا ترى شيئًا، تغمغم بكلمات مختلطة وترتجف. يرمي لي "واكد" خنجرًا ثم يتجهان نحو الفلاة تتبعهما حمامة "بكرية". يختفيان في الضباب الخفيف، وتعود الحمامة محلقة فوقي.

أنا لست رجلاً يا "واكد"؟! حسنًا، فلتشبع برجولتك كما تراها. أدس الخنجر في ملابسي وأسير بمحاذاة الفلاة، محاذرًا أن أعبرها بالخطأ. صدري يؤلمني من الماء الذي دخله، أسعل وأرتجف بردًا.

تُرى ماذا حدث لـ"بكرية" وماذا خَبُرت؟ لا بد أن ما رأته تلاعب بذكرياتها عن موت ابنها وأمنا. هي بشكل ما كانت السبب في موتها، فلم يكن عليها أبدًا أن تضغطها بهذا الشكل وهي تعلم مدى تعلقها بي وخوفها عليّ.

أتوقف حين أسمع خفقات أجنحة تأتي من خلفي. لم تكن حمامة "بكرية"، فقد اختفت الآن، كان صقرًا كبيرًا، يعبر من فوقي فأخفض رأسي. يغيب في الضباب برهة، ثم يعود محلقًا فوقي مباشرة ويختفي في الأفق الشرقي.

كنت جائعًا، ولم يكن ثمة ما يؤكل. أجلس متكورًا على نفسي، عالمًا أن الجن لن يعودوا، فالصندوق ليس معي، ولست ذا أهمية لأي مخلوق على كل حال.

رائحة السكر من الجثة خلفي تبعث فكرة قاسية مجنونة في رأسي. أستدير وأحك طبقة من السكر بالخنجر وألعقها. شيء مقزز، لكنني بالفعل جائع جدًا.

أكلت حتى كادت تتبدى من خلف الطبقة الوردية، الرائحة العفنة. أدركت فجأة ما فعلت، فتقيأت كل ما أكلته ورحت أمسح لساني بكمي. في وهدات على الأرض كانت بقايا مياه الأمطار المجتمعة مغرية بالشرب. ألصقت وجهي بالرمال، كالكلاب، ولعقت الماء في شراهة حتى وصلت ملوحة الرمال إلى حلقي. من بعيد، كان صوت دوي كدوي الأسلحة النارية مع الفرنج، لكنها أقوى بكثير. لا أعرف ما الذي يحدث في كوم الحنت الآن، لكنه بالتأكيد لا يغري بالعودة.

أتذكر "نجية" وأمها، ترى ماذا تفعلان؟ إن كانتا حيتين بالطبع.

أتصور ردة فعل أم "نجية" لو رأت ما آلت إليه حالي الآن. ما كان لها أن تتخلى عن كل شيء من أجلي أبدًا.

أغيب عن الوعي لفترات متقطعة، ثم أستيقظ فزعًا أتلفت حولي. كل شيء هادئ، أغفو مرة أخرى. بشكل ما يتسلل إلى عقلي صوت فحيح، أفتح عيني وأديرهما حولي. على مسافة قريبة، كان ثعبان ضخم يتحرك نحوي في ضوء الشروق الخافت. أعدو مبتعدًا لأجد شيئًا ثقيلاً يهاجمني من الخلف فأسقط أرضًا. أنظر خلفي لأجد الثعبان هو من فعلها. كان ثعبانًا مجنحًا رهيبًا. يشرع أجنحته الذهبية ويفتح فمه لينقض على كتفي. أصرخ وأحاول إبعاده. كان شيئًا مفزعًا قويًا، ينثر الرمال حولنا وهو يعاود غرس نابيه في جسدي. كان اللعين يجرني جرًّا نحو ما أعتقد أنه الفلاة وهو ينهش فيّ، كدت أستسلم لولا أن ظهر الصقر الذي حمل الثعبان من مؤخرة رأسه، فراح الأخير يتملص ويضرب بجناحيه ويفح بصوت يصم الآذان.

أزحف قدر استطاعتي وأنا ألهث حتى اختبئ خلف تمثال سكري مهدم. كانت الشمس تشرق من خلف صراع الصقر والثعبان، فيفترش ظلاهما الأرض. كنت مذعورًا، أتمنى الموت، لكنني لم أمت. يتوقف صوت الفحيح ولا يبقى سوى صوت أجنحة الصقر. أنظر إلى السماء فلا أجده.

كف توضع على كتفي المصابة، فأفزع وألتفت خلفي. مرتديًا عباءة خضراء وعمامة بيضاء، تزين وجهه لحية مجدولة، وينسدل على ظهره شعر أبيض في جدائل لا تحصى. تتدلى من صدره قلادة عين الصقر الذهبية. كان هو، الولي الشاهين.

* * *

لا منك يا عين منجاة ولا خلاص

لست متأكدًا من صدق ما أرى، لكن عضات الثعبان تبعد عني أماني في أن يكون ما أرى وهمًا. يمد الشاهين يده إليّ بخبز ساخن. أقبض عليه بكلتا يدي وأدسه في فمي وأزدرد دون مضغ. يرمقني بنظرة لا أعرف تحديدًا معناها، نظرة شفقة، شماتة، حُنُو، لا أعرف.

يجلس جواري ويمضغ عشبًا أخرجه من جعبته، ثم يضع العشب الممضوغ على جروحي فتفور ألمًا. أجفل فيمد يده يمسد شعري، يهدئني.

أخبره أنني قد رأيت جثته المتعفنة، فكيف يتجسد أمامي بشرًا. يجيبني بأن لكل ولي كرامات، وإلا فكيف يكون وليًّا؟! يشير إلى جروحي فألاحظ قرب اندمالها من تحت العشب الممضوغ الذي جف وتغضن. هذه كرامة لا شك فيها، سحر.

أكاد أوقن بأنني واهم، فالكثير من الأحلام تبدو حقيقية ولا يمكن الاستيقاظ منها مهما حاولنا. أجاريه كأنما أجاري حلمًا، فما الذي يمكنني فعله سوى هذا؟

يطلب مني أن أسير معه، فهو متجه شمالاً بمحاذاة الفلاة. أسأله من وجهته، فيخبرني أنه يدور حول كوم الحنت منذ الأزل، وسيظل يفعلها للأبد. هذا قدره، أن يحميها وإن كفر به الكافرون. أحكي له كيف أن أهل كوم الحنت يؤمنون به ويبجلونه حد العبادة، كيف سمح للفرنج بأن يؤذوهم؟ يتوقف وينظر إلى السماء، فيحط الصقر على ذراعه كأنما استجاب لنداء خفي. يظن الشاهين أن أهل كوم الحنت قد كفروا به وآذوه حين عبدوه. هو مجرد ولي، واسطة بينهم وبين قوى أعلى تدير كل شيء. إنما خطاياهم هي ما هتكت الستر عنهم وجلبت عليهم الوبال.

أسأله كيف لم يطلب منهم عبادته وعلى قلادته أمر لهم بالركوع؟ فيجيب ساخرًا أن ركوع الأعداء له كان من باب الخضوع لا العبادة. أطلب منه أن يحكي لي تفصيلاً ما حدث منذ البداية.

نصعد كثيبًا رمليًا نكشف منه الصحراء الممتدة تحت الضباب غربًا، والمقابر شرقًا. يجلس الشاهين فأجاوره. يناولني الماء فأشرب حتى يأخذه مني في رفق كي لا أؤذي أحشائي.

يرشف رشفة، ثم يحكي.

كان الشاهين شابا كشباب أرض الجنة، وكان معاصرًا للحرب السابعة والأخيرة التي أجبرتهم السباع على خوضها. كان يعيش في مجتمع عسكري قاس، يعدون فيه الصبية للحرب من سن الخامسة. من كان مريضًا أو ضعيفًا، يخدم في البلاد كعبد بلا قيمة، لا يتزوج ولا ينجب.

هو من أسرة متدينة متوافقة مع كل مخلوقات أرض الجنة من

سباع وجن وبالطبع، بشر. تحكي جدته أنه من نسل مختلط مع الجن، لكنه لم يصدقها. كان فخورًا بكونه رجلاً بشريًا بلا قوى خارقة سوى شجاعة قلبه.

كانت للسباع عادة ممجوجة، وهي التفاخر بقوتهم وقوة من تدرب على أيديهم. وكانوا قادرين على إقناع الحكماء من أرض الجنة على خوض حروب طاحنة بين الحين والآخر؛ ليرهبوا كل من تسول له نفسه أن يطمع في الأرض.

وكانت الحرب السابعة، أُخذ الشاهين ليعبر الفلاة إلى واحة السباع، حيث يستعر معدنه ليكشف عن أصالة أو خبث. لكن قُبيل الوصول، أغارت على البلاد قوى من أربعة بلدان مختلفة، تحالفت سرًا وتخيرت الوقت الأمثل للهجوم.

استمرت الحرب سبعين يومًا متواصلة، هلك فيها كل المقاتلين من البلاد، وأهلكوا كل القوى المعادية. ونجا الشاهين وجدي الأكبر، صديقه الوحيد.

كانت إصابة جدي عنيفة، حمله الشاهين حتى حدود الفلاة على ظهره، وهناك، لفظ جدي آخر أنفاسه وهو يطلب منه أن يحتفظ بسلاحه كتذكار لآخر أيامهما معًا.

حين عاد الشاهين وحيدًا، اكتشف الطامة الكبرى، فقد تيتم كل أطفال البلدة، ولم يبق سواه وأفراد مجلس الحكماء وبعض أفراد العائلة الحاكمة من العجائز.

اعتكف الشاهين وحيدًا أعوامًا، يتعبد ويخدم النساء والأطفال والضعفاء. حتى جاءه وفد من النساء، يطلبون منه أن يوقف الحروب

نهائيًا، أن يقنع الحكماء بهذا بأي طريقة.

لم يوافق الحكماء على إنهاء تقليد عتيق في بلادهم واتهموه بالزندقة. كذلك ضيق عليه السباع، وسعوا لعزله بعيدًا عن أهل أرض الجنة كي لا تسول لهم أنفسهم الاستعانة به مرة أخرى.

وفي العام التالي، كان يشاهد من محبسه الأطفال دون العاشرة يساقون فزعين باكين إلى واحة السباع. لن يصبر السباع حتى يشتد عودهم، ولن يراعوا تفطر قلوب الأمهات على أطفالهن.

بلغ بالشاهين الغضب مبلغه، وللمرة الأولى يطلب الاجتماع بالجن، يذكرهم بعلاقة عائلته الطيبة بينهم، ويطلب منهم العون. فالجن يعرفون جيدًا طبائع أهل أرض الجنة ومنهم المستورون الذين يحفظون أفعال البشر في صندوق الدنيا المقدس. بعد جدل طويل وتساؤلات من طرف الجن عن مصلحتهم من وراء مساعدته، وعدهم الشاهين بأن لهم نصف أرض الجنة يعيشون فيها كما شاءوا دون خوف أو معاداة من السباع، لو استطاعوا إنقاذ هؤلاء الأطفال وأهلهم.

قام الخلاف بين الجن وبعضهم، فالمستورون من المدونين رفضوا الاتفاق، وكان من رأيهم أن يظلوا على الحياد بين البشر والسباع كما أراد لهم خالقهم أن يكونوا. وأن أرض الجنة تحتاج لمن يدافع عنها على الدوام. إثر هذا الخلاف الشديد، قامت حرب ضروس بين الجن والمستورين رغم كونهم من جنس واحد، وانتصر الجن، فتم نفي المستورة الكبرى في الماء، تعيش فيه أبدًا، بينما مُسخ تابعوها في جسد الحمام الملون للأبد، يؤدون وظائفهم كما أرادوا لكن بقدرات محدودة واهية.

ثم انتشر الجن على الحدود الغربية لأرض الجنة، ضربوا الضباب وسحروا الفلاة بيننا وبين واحة السباع، فلا يستطيع السباع عبورها إلى أرض الجنة مرة أخرى. وظلت أرض الوادي الغربي محمية مسحورة، يعيش فيها الجان ويخبئون كنوزهم الثمينة تحت عاصفة الرمال التي قامت فيها أيامًا، فطمرت كل أثر لما أقامه السباع، وجففت البحيرة، وأهلكت المدينة القديمة، وبالطبع دُفن الصندوق في غياهبها.

لم يسعد الشاهين بتلك النتيجة، وكان يتصور حلاً أقل دمارًا مما حدث. لكن النساء كن له شاكرات، وطلبن منه أن يحكم البلاد، فهو الماكر الذي خدع كل من ظن أن له ولاية على أرواح الناس، هو الِحنت، الثعلب.

رحل من تبقى من العائلة الحاكمة شمالاً باختيارهم، فما عادت لهم كوم الحنت وطنًا وما عادوا قادرين على حكمها في غياب مجلس الحكماء القديم. وأضحت أرض الجنة "كوم الحنت"، وحكم الشاهين من المبنى الذي صار ضريحه فيما بعد، عدل بين الناس وعاشوا تحت قيادته في سلام، حتى مات، ودفنه الناس في السرداب مع سيف صديقه الحبيب. ثم صار مع انقضاء السنين وليًّا، أقاموا له الموالد وأحيوا ذكراه برسم عين الصقر الذي اتخذه شعارًا، فخوذته في الحرب كانت على هيئة رأس الصقر.

أسأله إن كان روحًا أو شبحًا، فيجيب بأن الموت نقله من حياة إلى حياة أخرى، فقد عاش للناس، وندم على كل روح هلكت بسبب استعانته بالجن، لكن دعاء الأمهات والأطفال وصل للخالق الذي غفر له زلاته، وجعله في خدمة الناس حتى بعد فناء جسده.

أنظر إليه ذاهلاً، فهذا رجل عظيم، لم يبحث عن مجد شخصي ولم يخن أبدًا ولا ذنب له فيما جناه الناس على سيرته من بعده. على الرغم من كل شيء، فالماضي ليس كله زيفًا.

يخبرني الشاهين أنه أتى ليحميني، ولطالما كان يحمي حفيد صديقه. لطالما رغب في حماية آبائي وأجدادي، لكنني الوحيد الذي كنت أبحث عنه، الوحيد الذي وصل إلى هنا وخاض ما خضت، الوحيد الذي يستحق الإنقاذ.

ما الذي ينويه لي؟ يقول إنه سيخرجني من كوم الحنت، وسيتركها تفنى بما فيها ومن فيها، وذلك أمر وشيك، ثم يعيدني إليها لأصلحها وأبنيها من جديد. سيعرف الناس على يدي من هو الشاهين الحقيقي، وسيعود اسم أرض الجنة، لكنها ستكون أرضًا للبشر فقط، دون سباع أو جن.

أسأله كيف سيهلك الجن، فيجيب بأن الزمن كفيل بتصفية القوى المتناحرة. الكل يبحث عن الصندوق، عن الماضي، والكل سيفنى في سبيله. على الماضي أن يموت كي يبدأ مستقبل جديد بلا أخطاء.

و"بكرية"؟ و"واكد"؟ يقوم الشاهين نازلاً الكثيب، أقوم متطوحًا متعثرًا في الرمال أتبعه. لم يُجبني، يبدو أن الإجابة أقسى من احتمالي.

كانت الشمس تغرب، ومن بعيد ألمح قافلة. يشير الشاهين إليها وهو يبتسم لي. أخبره أنني سأستعيد السيف وخوذة الصقر وأرجعهما له، فيقول إنهما لي، فهما ما سيتبقيان من الماضي بعد فناء كل شيء.

أعدو نحو القافلة وألوح بيدي، الغروب يجعل ظلال القافلة ممدودة ضخمة على الأرض، كلما اقتربت امتد الظل أكثر وقصرت

الأصـول. أتوقـف عـن العـدو. أدقق النظـر فلا أجد سـوى ظلال تتحـرك فوق الرمال، صدى لأصوات رحلت منـذ زمن، أم لعلها لم توجد قط.

لحظة انطفاء الشـمس في الأفق، تنبت من الظلال أجساد جديدة، جثث محنطة في السـكر تستطيل من الأرض. خلفـي، ضباب الفلاة يجثـم على أنفاسي، ومنه يخرج "واكـد" و"بكرية". الخارطة على وجه "واكـد" غارقـة في دمـاء تنز من عـين محروقة على جبينه، وسـم عين الشـاهين، حجاب جديد مخاط إلى لحم "بكرية". لا بد أنهما قد واجها شـاهينهما، من تحدى الوسـم قد وُسم، ومن تسترت على جريمة فتح الحجاب، خِيط حجابها إلى لحمها.

أما أنا، فلم يصبني من الشاهين شيء سوى الشبع والارتواء. شبع حقيقي؛ أشـعر بثقل الخبز في معدتي. لم يكـن هذا وهمًا، كما لم يكن ما حدث لـ"بكرية" و"واكد" وهمًا.

أتسـمر مكاني غير عالم بما يجب عليّ فعله. إلا أن أول ما رسـخ في ذهنـي أنني غير قادر على الهـرب من الفلاة وتكرار ما يحدث فيها من الشروق للغـروب. لكن، هل أحكي لهما ما حدث لي، وأحذرهما من مصيرهمـا إن أصرّا على التورط في النزاع على صندوق الدنيا، أم أتحلى بالصمـت كما يتحلى به كلاهما؟ هما رغـم كل شيء تخليا عني ولم يعد أحدهما يعبأ بي.

تترنـح "بكرية" وحولهـا تتجمع الحمامات العاصيـات النائحات التي رفضت مسـاعدة البشر حين احتاجوا إليهـا، والآن تدفعنا دفعًا هي ومستورتها للهلاك. الكل يبحث عن طريقة يميل بها كفة الصراع لصالحه.

تقترب "بكرية" مني أكثر، أرى في عينيها تساؤلات حول ما حدث لي، وكيف نجوت أنا في المرات الثلاث دون أذى يذكر. عين الشاهين تحرسني يا "بكرية"، فأنا المختار قبل كل شيء، أنا المختار للنجاة ولاستعادة أرض الجنة. وأنت المختارة للفناء يا "بكرية"، أنت المختارة للتضحية.

* * *

تجلس "بكرية" تبكي أخيرًا، انهارت قواها ولم تعد تتحمل. تعرف أننا في طريق بلا عودة لكنها ما عادت قادرة على المواصلة. قلة النوم والطعام والشراب أنهكتها، فراحت تهش الحمام في عصبية عنها.

يبحث "واكد" في جنون عن شيء يؤكل. يطلب مني أن أقوم وأساعده، فإن كنت فشلت في الرحيل فلا بد من أن أصحبهم مرة أخرى؛ وعليّ أن أجد طعامًا.

يعجز "واكد" عن استخدام سلاحه الناري أو سيفه بيد واحدة مهتزة متوترة. كان يستشيط غيظًا ويركل ما حوله. في هدوء أقترب منه وأتناول منه سيفه، يسألني عما أنوي فأجيبه بأنني سآتي بطعام وفير في لحظات.

رحت أطوح السيف حول "بكرية" قاتلاً عشرات الحمامات، بينما "بكرية" تصرخ وتلطم، و"واكد" يلف ذراعه حول كتفي محاولاً أن يوقف ضرباتي الطائشة.

أصيح فيهما أن يصمتا، لقد أرادا طعامًا، وها هو طعام يكفي لأيام. تلك المستورات اللعينات المضللات يستحققن القتل وبجدارة.

تلملم "بكرية" الحمامات وهي تصرخ وتسبني، تنعتني بالجنون، بينما يأمرها "واكد" ألا تدفنهن، فما حدث قد حدث وعلينا الاستفادة القصوى منه. يجمع "واكد" الحمامات القتيلات فأساعده كي ننتهي سريعًا قبل هجوم الغربان التالي. تهتز الأرض ويتعالى صوت الفحيح، من تحت كل حجر تنبت أفعى، تشبه تلك التي قتلها "باقي" يوم أخذ عليّ عهد الجن في الوادي الغربي. لقد طور الجن هجومه وصار هجومًا مزدوجًا.

الأفاعي تلتف حول نفسها استعدادًا للقفز علينا، نعدو نحو الضباب ويعدو أمامنا الحصان الذي هزل وتبدت ضلوعه. "بكرية" تلف كفيها المحترقتين حول الصندوق تحت فستانها وتعدو، "واكد" يتعثر، ألمحه يدفعني كي أتفادى هجمة من أفعى.

نعبر إلى الفلاة، الشمس تشرق، الصحراء ممتدة أمامنا كالكابوس. يبحث "واكد" في الجوال عن شيء ما، يخرج بعض اللفائف والتماثيل الخشبية ويكومها على الأرض. ثم يحاول إزالة الريش قدر المستطاع عن الحمام. أما "بكرية" فقد تكورت تحت قوائم الحصان، تنهمر الدموع من عينيها اللتين لا تطرفان. أجلس جوارها فتنكمش على نفسها أكثر، كأنها تخشاني.

أمد يدي إليها، أعانقها، لا تكف هي عن الارتجاف والنشيج. أسألها عما حدث لها مع الشاهين، فتسألني عما فعل هو معي. ترى "بكرية" أنني لم أعد أنا، لا تتحدث عن الخوف أو التخاذل الذي أصابني، هي تقصد قتلي للحمامات في قسوة ونعتهن باللعينات.

أحكي لها ما عرفت من الشاهين، وتزداد ابتسامتها متشققة الشفتين سخرية. تضحك حين تعرف أنه كان صديقًا لجدي، تخبرني

أنني واسع الخيال حقًّا، وأن ما تمنيته هو ما سمعته من الشاهين. تظن أنني أتمنى لو كان الشاهين مظلومًا، ولو كنت أنا المختار، ولو أن فناء كوم الحنت فيه الخلاص والحياة. لم أخبرها بما قال الشاهين عن مصيرها ومصير "واكد"، بالطبع ستفهمها على أنها أضغاث أمنيات مكبوتة داخلي. تسألني لو أن الصندوق قد طمره الجن ولم يدفنه أحد أجدادنا، فكيف وجدناه نحن دون غيرنا؟

لا أجد إجابة لسؤال واهٍ كهذا، نحن نجهل أكثر مما نعلم في هذه القصة، فلا تزعم أنها قد وجدت ثغرة في قصة بلا تفاصيل كافية.

يأكل "واكد" حمامة نيئة، ويلقي إليّ أخرى، بينما يطهو واحدة لـ"بكرية". أنظر إليه متسائلاً فيهتف أن الرجال في الشدة لا يعبأون بترف الطعام المطهو.

ألقيها إليه، فلست جائعًا إلى هذه الدرجة. أقترح على "بكرية" أن تترك الصندوق هنا ونحاول العودة مع الغروب، لن نخسر شيئًا من المحاولة، على الأقل في غياب الصندوق ستتمكن من النوم قليلاً في المقابر دون الخوف من هجوم الجن. هذا ما جربته أنا، فقد خلت المقابر من الغربان وقت أن كانا هما في الفلاة. تسألني إن عدنا إلى الفلاة ولم نجد الصندوق، فهل نظل عالقين في تلك الحلقة للأبد؟

يسمع "واكد" طرفًا من حديثنا، ويقترح هو أن نظل مكاننا ونرى ما الذي سيحدث. وسيذهب هو إلى البئر وحده لجلب الماء. يتوقف في طريقه ويسألني إن كنت واثقًا بأنني لم أعبر الفلاة في المرة السابقة حقًّا.

أشعر بتوتر في علاقتي بـ"بكرية" و"واكد" لم يكن موجودًا من

قبل. قسوة تسري بين ثلاثتنا فتكاد روابطنا تتشقق جفافًا وتذروها الريح.

يطلب مني "واكد" أن أراقب طهو الحمامة ريثما يعود. أجلس أمام النار الضعيفة وأنظر إلى "بكرية"، أذكر أيام المولد، وأيام الخبيز، وليالي الضحك والمواويل فوق سطح الدار بعيدًا عن وجوم أمنا وكآبتها. لكن "بكرية" لم تعد "بكرية" القديمة الحانية، صارت نسخة أقسى من أمي.

تقوم "بكرية" وتخرج سيف أبي، تنظر إلى التماعه في ضوء الشمس، ثم تكيل به الضربات في الهواء. بينما أنا أطهو الطعام كالنساء، "بكرية" تتدرب على السلاح!

ألقي الحمامة على الرمال وأنتشل السيف منها، هذا سيف جدي. تصيح فيّ بأنه سيف جدها أيضًا وقد سرقه الشاهين منه، لربما قتله وأخذ سيفه كذلك. أيا كان، أرى أنني أحق بالسيف منها فأدفعها وآخذ السيف غصبًا. أبتعد خلف النار وأطوحه يمنة ويسرة، أحاول أن أزن نفسي فلا أنكفئ من ثقله مرة أخرى.

تهتف "بكرية" أنها ستعيد الصندوق، وسوف تدربها السباع جيدًا، وستعود لتحارب الفرنج وتخرجهم من كوم الحنت. لقد دفعت ثمن كل ذلك مقدمًا وستحصل عليه مهما حدث. أما أنا فلأفرح بالسيف كما أشاء، ولأرقص به كذكور كوم الحنت الذين لم يعودوا رجالاً.

الدماء تمزق أذني مطالبة بالرد، لن أقبل إهانات أكثر. أهجم عليها رافعًا السيف قاصدًا عنقها. لم تهتز "بكرية" ولم تجفل، كأنها موقنة أنني غير قادر إلا على التهديد. يتوقف نصل السيف عند عنقها،

وطرف الخنجر في يدها عند قلبي.

تخبرني أنني لا أستحق كل ما فعلته أمي من أجلي، لا أستحق تضحيتها بابنها وأمها من أجل تحريري. باردة كانت، تخرج الكلمات من بين شفتيها حادة كريهة.

لدهشتي لم أجد ما أدينها به، فكل ما فعلته لم تفعله لنفسها. لقد عاشت لأبي وأمي و"باقي"، وعاشت لي، وستموت من أجل كوم الحنت. تلك هي الحقيقة التي تضربني في وجهي كل لحظة.

أنزل السيف، ألقيه أرضًا، أمسك كفيها وأغرس النصل في صدري. لو قتلتني لارتحت، فلتفعلها.

دماء ساخنة تسيل من صدري، جرح بسيط لكن ألمه يفوق حدود الجسد.

تنزل "بكرية" عينيها لصدري، تترك الخنجر وتبتعد للوراء خطوة، تشهق وتغطي فمها بكفها.

أبتعد، أطفئ النار بالرمال، أطوح لها الحمامة فتسقط متفسخة عند قدميها.

الشمس تميل للغرب، و"واكد" لم يعد بعد. من ناحية الشرق دوّى صوت عال، مثل الذي سمعته من ناحية كوم الحنت أمس. للمرة الأولى صوت من العالم الحقيقي يخترق حدود الفلاة. تهرول "بكرية" نحوي وهي تسحب الحصان وتعيد دس السيف في الجوال. نظرات حيرى بيننا، ترى ماذا علينا أن نفعل؟ هل سنجد "واكد" في المقابر أم أن شيئًا ما قد حدث له؟

تغرب الشمس، وتظهر المقابر أمامنا، ومن بعيد نرى صفوفًا

لانهائية من جيش الفرنج تزحف نحونا.

* * *

تـضرب العواصف الرملية المقابر في إعصـار مهيب، الرياح تكاد تقتلع كل شيء، والرمـال تتكاثف على أقدامنا. خيول الفرنج تصهل والغربـان تطيح براكبيها. الأفاعي تنبت من كل صوب وتلدغ كل ما تصل إليه. طلقات أسلحة الفرنج وتلاطم أمواج الغربان تهدم تماثيل السكر وتبعثر العظام النخرة في كل صوب.

"واكـد" يطوقنا بذراع ويدفعنا بجسـده كي نعـود إلى الفلاة، فلا قِبـل لنا بمعركة بـين الفرنج والجن. كانت الحمامـات الأمهات تلف "بكرية"، فتهشـها وتحـوط الصندوق تحت ملابسـها بذراعيها. ألمح "واكد" ينظر نحو الفرنج مضيقًا عينيه. رغم عاصفة الرمال والغربان التي تحجب الجيش عنا، إلا أنني سـمعت صيحـة مِن يبدو قائدهم. يشـير نحونا ويرطن بلغتهم بصوت هادر. عشرات المشـاة يصوبون أسـلحتهم النارية علينا. يبدو أن الفرنج قد استطاعوا بشكل ما قراءة المكتـوب على الجداريات في كوم الحنـت، وربطوا بين الحمائم ومكان الصندوق.

عـشرات الومضات مـن أفواه أسـلحتهم يتبعها صوتهـا المفزع، "واكد" يسـقطني و"بكريـة" أرضًا ويظللنا بجسـده. أرى الحمامات تتسـاقط فوقنا قتلى، أشـعر باهتزازات جسـد "واكـد" إذ ينال الحظ الأكـبر من الطلقات. أصرخ مناديًا أبي، صديقك يفدي أبناءك يا أبي، أنجـده... أمـي، "واكد" قد كفّر عـن كل ما اعتبرتـه خطيئة يا أمي، أنجديه، أيها الشاهين، يا ولينا، أنجدنا، من لنا غيرك الآن؟

يرتخي جسد "واكد"، أحاول الخروج من تحت ثقله، الجند يقتربون مصوبين نحونا أسلحتهم، الغربان تطيح ببعضهم والأفاعي ببعض آخر، إلا أن من كانوا يقتربون لا يزالون كُثُر. "بكرية" تجذبني خلفها فأحتضنها موليًا ظهري لرصاصاتهم. على الرغم من طيش أغلب الطلقات بسبب الريح والغربان والحمام الذي شارف على الفناء، شعرت بسخونة في ظهري، قلبي يضطرب، ألم مبرح يشتعل في أحشائي.

"بكرية" تحاول أن تسحبني إلى الفلاة، ثم تنظر إلى "واكد"، وتمد يدها الأخرى تجذبه من ملابسه. أحد الجنود يتلقى ضربة من حافري حصان "واكد" فيموت في لحظتها، أما الباقون، فقد تبعونا إلى الصحراء.

* * *

اوزن جِلِيبك يا وِلد

شروق الشمس المفاجئ قد أربك جند الفرنج الذين عبروا معنا للحظات، أنا مسجى على الأرض، لا أشعر بشيء محدد، فقط سلام واستسلام لم أشعر بهما من قبل.

كل شيء حولي يبدو أبعد، حتى الصوت، كان بطيئًا بعيدًا. "بكرية" تخرج السيف من الجوال وترفعه في مواجهة الجنود. كيف لسيف يا "بكرية" أن يصمد أمام سلاح الجبناء هذا؟ كانت تدافع عني وعن "واكد". لم تكن تدافع عن نفسها أو عن الصندوق. كيف ظننت للحظة أن "بكرية"، أختي، أمي الحقيقية، قد تكون بهذه الأنانية والقسوة؟

أعتقد أنني أموت، وكان من الجلي لها أن "واكد" قد مات، لكنها تمسكت بنا ولم تفكر في شيء سوى أن تموت معنا أو تنقذ أجسادنا من دنس الغرباء.

آه يا "بكرية"، كيف تلاعبت بنا الرحلة حتى رفعنا السلاح في

وجه بعضنا؟ أم ترى أنفسنا هي التي تلاعبت بنا؟ كل ما أخفينا وخشينا مواجهته، كل ما نخر فينا كالسوس حتى تركنا كتماثيل السكر في المقابر، قوالب هشة تحوي جثثًا متحللة.

تحولت فوهات أسلحة الفرنج فجأة إلى ما خلف "بكرية"، وارتسمت علامات الهلع على الوجوه الشاحبة وراحوا يرطنون. بعضهم قرر الفرار، بينما وقف الباقي يرتجف، ويطلق الرصاص على ما يزأر هناك.

أحاول أن أتبين ما يحدث، "بكرية" تقف أمامي وترفع السيف أمام الوحش الآتي. كان تمساحًا ضخمًا، تحيط رأسه لبدة أسد شعثاء. هو الكائن ذاته الذي رأيته منقوشًا على صندوق الدنيا.

لم يكن بمفرده، عشرات من نوعه كانوا يزحفون نحونا بسرعة لا تتناسب مع قصر قوائمهم، من خلفهم رأيت أخيرًا ما كان يختبئ خلف البئر، فهد مرقط برأس ثعبان ورقبة طويلة، ينهب الأرض ويقفز من فوقنا قاصدًا جند الفرنج، في السماء المحمرة يطير ثعبان مجنح، يشبه الذي رأيته يوم واجهت الشاهين، لكنه أكبر بكثير، يطارد من يفر من الجنود ويفتك بهم.

للحق، رصاصات الفرنج هتكت أجساد عدد من تلك الكائنات، لم يكونوا جبناء كما توقعت. ومن حدود الفلاة أرى عددًا آخر من الجنود يبزغ من الفراغ. كان قائد المجموعة معهم، يشير إليهم ويأمرهم، بينما يتجه هو مباشرة فوق حصانه نحو "بكرية".

أجذب "بكرية" فتسقط جواري، بآخر ما أملك من قوة ألقي بجسدي فوقها، تحتضنني وتقوم وهي تمسك السيف مرة أخرى،

تهتف أن الثأر صار شخصيًّا بينها وبينهم بعد أن قتلوا "واكد".

تتلقى "بكرية" رصاصة في كتفها، تتراجع خطوتين ثم تشهر سلاحها مرة أخرى وتحاول أن تقترب من قائد الفرنج وحصانه بسرعة. أرى يده تمتد لغمد سيفه، أعرف أنه سيطعنها أو يقطع رأسها لو اقتربا أكثر من بعضهما.

أحاول أن أقف على قدمي، ربما أصل للجوال وأخرج سلاح "واكد". أنادي على "بكرية" محذرًا، فتنفجر الدماء من حلقي. رصاصة أخرى أصابتني في صدري مباشرة.

تضرب "بكرية" حصانه بالسيف فيسقط، وقبل أن يهوي القائد بثقله وسيفه عليها، يقتلع الثعبان المجنح رأسه ويكسو العالم حولي المطر الأحمر.

* * *

كنت محمولاً على شيء بارد معدني، على يميني "بكرية" وعلى يساري "واكد"، كنت أراهم، رجال يرتدون خوذات الحيوانات والضواري. يحيطون بنا ويحملوننا إلى مكان ما.

ترانيم باللغة القديمة تصدح من حناجر مرافقينا. يضعوننا في قارب، أسمع صوت خرير الماء، وأشعر بالسلام. قد يكون ما نحن فيه هو الموت أخيرًا، فكيف أعيش وقلبي تتوسطه رصاصة سوداء غادرة؟

"بكرية" تفتح عينيها ببطء، تتألم، تمد يدًا واهنة مرتعشة لبطنها تستوثق من وجود الصندوق، تغمض عينيها وتسيل دمعة وحيدة تحفر في آثار التراب والدماء على وجهها.

نصـل إلى وجهتنا، فنُحمل مرة أخرى لنوضع في مكان ظليل يعج بنباتـات وأزهـار لم أر لها مثيلاً إلا في النقـوش القديمة. للمرة الأولى أدرك أننـي أرى كل شيء مـن مـكان مـا، حتـى إنني أرى جسـدي المسجى تحت ميزان ذهبي يفوقني حجمًا.

يقـترب ذو خوذة ابن آوى مـن "واكد"، يركع جواره، يرنم بشيء لم أفهمـه، ثم يقوم ويتجه نحو "بكرية" ويفعل مثلما فعل مع "واكد"، لكنـه ينظر نحـو الرجـال ذوي الأقنعـة الآخرين ويتبادلـون حديثًا هامسًا.

وأخيرا يركع جواري، يرفع نصلاً ذهبيًّا ويشـق صدري. لم أشعر بشيء سوى الهلع الشديد. غرس كفه في صدري وأخرج قلبي، فصله عن أحشـائي ثم وضعه في كفة الميزان، ثم وضع شـخص آخر برأس قط ريشة واحدة بيضاء في الكفة الأخرى.

راحـت الكفتان تعلوان وتهبطان كأنهـما في صراع. يبدو أن هذا لم يكـن متوقعًا، فقد هرع ذو رأس ابـن آوى ورفع القلب. أبعد الميزان أربعة مخلوقات بأقنعة تمساح وصقر وأبي منجل وفرس النهر. ثم ركع ذو رأس ابن آوى رافعًا قلبي المدمم لأعلى بين كفيه.

مـن ظـلال النباتـات المتشـابكة ظهروا، عـشرات السـباع ذوي الشـوارب المبرومة كشـوارب الرجال، وأعين مكتحلـة ذكية حادة، وجسـد موشـم بالنقوش والحروف القديمة. اقترب واحد منهم من قلبي وتشممه، ثم راح يدور حول ثلاثتنا.

هتف السبع بصوت بشري خشن، وباللغة القديمة، أن يعيدوا إليّ قلبي، ويعيدوننا من حيث أتينا.

عاد السبع إلى مجموعته، فلم يستدر الباقون ليعودوا. فقد تحلقوا حولنا. تساءل ذو لبدة حالكة عن كيفية وصول امرأة إلى هنا. لكن السبع الذي بدا لي أنه رئيسهم صاح بلهجة قاطعة أن الرجل ذا الوجه الموشوم قد مات، والمرأة لا مكان لها هنا، فليعيدوها إلى أرض الجنة، أما الفتى، فلم ينجح في اختبار وزن القلب.

قاطعه سبع أصغر قليلاً في الحجم قائلاً إنني لم أفشل، هناك شيء عجيب في قلبي يأبى الانصياع لقانون الميزان. فتارة هو قلب شجاع محب، وتارة هو قلب جبان خسيس. والأعجب هو هذا الشيء الذي مزقه. من أين أتى وكيف اخترق قلبي؟

أعلن قائد السباع أن لا سبيل لهم لمعرفة هذه الإجابات، وواحة السباع ليست مكانًا للمتشككين.

تكلم ذو رأس ابن آوى، وهو لا يزال راكعًا، بأن في استطاعتنا معرفة المزيد لو حاولنا إفاقة المرأة لتحكي لنا. يقترب القائد في تؤدة منه حتى يلامس أنفه رأس ابن أوى. يتكلم بصوت يكتم الغضب، يذكره بأن فضول الإنسان وكبرياءه وفخره بجنسه هو ما أوصل سكان واحة السباع لما هم فيه.

يرد ذو رأس ابن آوى بأن هناك من اخترق الفلاة من الأغراب، لقد تحركت الوحوش المقدسة للمرة الأولى منذ زمن الحروب السبعة. ربما كانت أرض الجنة في خطر. يضحك السبع القائد حتى يهتز الهواء من حولنا، ضحكة مجلجلة قاسية انتهت بزئير غاضب. ما شأن السباع وأهل أرض الجنة الذين نفوهم للأبد؟ فلْتفنَ تلك الأرض بما كسبت.

بدا لي أن الأمر قد قضي، لكن، ماذا عني؟ هل هذا هو الموت؟ أن

أهيم للأبد في مكان موتي؟ أن أرقب الأحياء بلا حيلة مني هكذا؟ أهذا هو العقاب على ما أجرمت في حق أختي وحق "واكد"؟

حتى في موتي تكلل رأسي أشواك الأسئلة وتدمي عقلي. ما جدوى حياتي ومماتي إن كانت هذه هي النهاية؟

يرحل السباع، يتبعهم ذوو رؤوس الحيوانات، ولا يبقى معنا سوى ذي رأس ابن آوى وذي رأس القط. يهمان بحملنا مرة أخرى إلى القارب، لكن ذا رأس ابن آوى يفتح الجوال ويخرج ما فيه. يسأله ذو رأس القط عما يفعل، وقد ناداه باسم "آنوب". يخرج "آنوب" خوذة رأس الصقر، فيتجمد ذو رأس القط مكانه. يقلب "آنوب" محتويات الجوال على الأرض وينحني الاثنان ينقبان فيها. يمسك "آنوب" سيف جدي ويقلب فيه حتى يصل للمقبض المحفور عليه اسمه. يقوم ويعدو نحو مدخل الواحة مناديًا باسم "ضرغام".

تفتح "بكرية" عينيها وتتألم، يلتفت ذو رأس القط إليها ويركع بجوارها فتفزع وتفلت منها شهقة عالية، لاشعوريًّا تضم ذراعيها حول بطنها. يتكلم ذو رأس القط باللغة القديمة مطمئنًا إياها، لكنها بالطبع لا تفهم. تقع عيناها على جسدي، وعلى قلبي الموضوع فوق بطني، فتهرع إليّ، تحتضنني وتضغط قلبي على قلبها. أود لو أبكي لبكائها، لو أصرخ، لو أن هذا ما سيطفئ النيران التي اشتعلت في أحشائها. أنا هنا يا "بكرية"، أشعر بك وأسمعك، أنا هنا وأقرب من أي وقت آخر إليك.

عاد "آنوب" مهرولاً ومعه ذو اللبدة السوداء، "ضرغام". تفزع "بكرية" من مرأى السبع المهيب، يسألها السبع إن كنا ابني صاحب هذا السيف، فلا تفهم، تجزع، ترتبك، فالسبع المتكلم وهاتان العينان

البشريتـان أقوى من احتمال أي شـخص. تتمالك نفسـها، ففي نهاية الأمـر كنـا متجهـين نحو واحة السـباع، وهـا نحن هنـاك، وها هي السباع.

ترفـع "بكرية" ملابسـها مولية إياهـم ظهرها، تفـك الحزام عن الصندوق ثم تقدمه للسـبع الذي تتسـع عيناه عـن آخرهما ويتراجع خطوة للخلف، ثم يتقدم ببطء من الصندوق، يحدق إليه ويتشـممه، ثم يقف على قائمتيه الخلفيتين ويطبق بمخالبه عليه، فتسحب "بكرية" كفيها وتتركه له.

تطلـب "بكرية" منه أن يعود معنا إلى كوم الحنت، فالفرنج قد أتوا عـلى ما تبقى منها. يتعجب السـبع من لغتها، ثم يطلب من ذي رأس القـط أن يحمل جثتي وجثة "واكـد" إلى داخل الواحة. يضع "آنوب" كفـه على كتف "بكرية" ويشـير لها نحو مدخل الواحة فتسـير معهم وهي لا ترفع عينيها عني وعن "واكد".

على عرش عال ذي درجات، كان قائدهم يجلس، مهمومًا شاردًا، ما إن وقعت عيناه عـلى الصندوق بين مخالب حامله، حتى وثب على أربع نحوه. رغم كل شيء، فقد ورث الفضول عن البشر مع الشارب والعينين. يخبره "ضرغام" أن المرأة لا تتكلم لغتهم، لكن معها سـيف الحداد الأعظم وخوذته.

خـوذة جـدي؟ أم خـوذة الشـاهين؟ قد يكـون من المعقـول أن مقابلتي مع الشـاهين مجرد وهـم آخر كمقابلتي مـع أبي وأمي، لكن تلـك الحكاية الطويلة المعقدة التي حكاهـا لي، أكانت من بنات عقلي فعلاً؟ ولِمَ يتلاعب بي عقـلي هكذا ويحاول إقناعي بأن عدوي اللدود هـو في النهاية صديقي الذي ظلمته كما ظلمت "واكد" و"بكرية"؟ أم

أترى السباع تكذب؟ أم اختلط عليّ فهم الكلام؟

بالطبع لست ماهرًا في اللغة القديمة المسموعة كمهارتي في قراءتها، لكنني أفهم عموم الكلام، لذا لن أحكم على فهمي لما قاله الآن.

يطلب "ضرغام" من القائد أن يفتح الصندوق لتتضح للجميع الرؤية، فينهره السبع العنيد، فهو لم يعد يطيق سماع أي شيء عن الجبناء الذين لم يستحقوا أرضهم. يلتقط القائد الصندوق بين أنيابه ويعدو به مقطبًا حاجبيه، يتعالى زئيره من بين أنفاسه. من خلفه يهرول "آنوب" و"ضرغام"، بينما تنهار "بكرية" على ركبتيها إلى جواري. كانت منهكة، حائرة، حزينة كما لم تحزن من قبل، تكرر همسًا "لقد أقسمت يا أمي أن أحميه، لكنني فشلت".

أمام المجرى المائي الذي عبرناه كي نصل للواحة، وقف قائد السباع على قائمتيه الخلفيتين وطوح الصندوق في الماء. زأر مترنمًا بلعنة الموت على كل من ينزل هذا الماء من سكان الواحة بحثًا عن الصندوق. فاهتز الماء وفار ثم هدأ أخيرًا. وكان أمره واضحًا بشأننا، فليعيدونا إلى حيث وجدونا، فواحة السباع لم تعد أرضًا للبشر.

قبل أن يعود إلى الواحة، رمق "آنوب" بنظرة مهددة طويلة، ثم اختفى في وسط دغل قريب. وقف "آنوب" و"ضرغام" برهة أمام الماء، ثم مشى "آنوب" في تصميم نحو الواحة كأنه قد نوى شيئًا. ناداه "ضرغام"، حذره مما يفكر فيه، لكن في النهاية تبعه سريعًا إلى حيث اتجه.

حين عودتهم، وقفت "بكرية" متسائلة عما سيحدث لهم، أشار لها "آنوب" أن تتبعه، ثم حمل قلبي على كفه، وبالذراع الأخرى حملني على كتفه. أشارت له "بكرية" إلى جسد "واكد" فنظر إليه لحظات،

وأخبرها أنه سيعود إليه. لم تفهم "بكرية"، لكنها أمسكت ذراعي "واكد" وراحت تجره وهي تتبع "آنوب".

كانت نظرة "ضرغام" هي ما لفت نظري، كأنه مدهوش من تصرفات "بكرية". كأنه للمرة الأولى يرى بشرًا حقيقيين. نضح الفخر على قسماته الحادة الصلبة فداراه سريعًا قبل أن يسير مبتعدًا إلى قلب الواحة.

* * *

الوقت هنا عجيب، فتارة يمر بسرعة شديدة، وتارة يبطئ حتى أشعر بلزوجة حركة أفكاري داخل عقلي.

في حجرة مزدان سقفها بنجوم مرسومة صفراء على خلفية حالكة الزرقة أرقد. تحتي منضدة رخامية باردة، وعلى منضدة أخرى كان جسد "واكد". جوار "بكرية" طعام لم أتبين نوعه، لكنها توليه ظهرها ولا ترفع عينيها عني. يبدو أنها ترتدي ثوبًا أبيض بلا أكمام، يشبه ذلك الذي يرتديه "آنوب" ومن يشبهونه. وقد اغتسلت فظهرت هالات سوداء حول عينيها.

يعود "آنوب" محملاً بأدوات معدنية دقيقة لا أعرف كنهها، بعضها يشبه السكاكين الرفيعة. يضعها على الأرض، ثم يخرج خوذة الصقر من الجوال ويرفعها في ضوء مصابيح المشاعل التي تزين الحوائط. كانت الخوذة التي يرتديها تبدو كأنها رأسه، حية، تعبس ملامحها حين يعبس، وتحزن حين يحزن. لا أدري ما هو "آنوب" لكن جسده بشري، محمل بجروح عملاقة قديمة لا أعرف كيف نجا منها.

يـا لحيرتي وتخبطي، بالفعل لا أعرف في أي اتجاه أسـوق أفكاري، هـل ما أراه وهـم فأريح عقلي من التفكير والاستنتاج، أم أنه حقيقة فأتركه لإعصـار التفكير يلوكه ويطحن ثوابته؟ سـباع متكلمة، بشر برؤوس حيوانات، والأغرب، ميت يشعر ويسمع ويرى!

يسحب "آنوب" "بكرية" من يدها ويشير إلى وجهي، يبدو أنه قد أدرك أنها لن تفهم ما يقول. تحدق "بكرية" إليه غير فاهمة، فيشـير إلى عينيها ثم إلى وجهي. يريدها أن تنظر إليه. فتنظر مترددة، لحظات، ثم تعـاود النظر إلى "آنوب". تبدو على ملامحه الشـفقة. يربت على كتفها ويشير إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه.

تترك "بكرية" جسـدها يهوي، تمسـك رأسـها بكفيها المحترقتين وتنشـج. يطيل "آنوب" النظر إليهـا، يخطو خطوة نحوها ثم يتوقف، يستدير ويمسك بخوذة رأس الصقر ويدس رأسي فيها.

راح يـردد كلمات مثل تلك التي يرددها "واكد" في صلاته، يبتهل إلى إلـه خالق حام. لسـبب ما، أرى الموجـودات من حولي من خلال فتحتي عيني الخوذة، لم أعد أرى سـوى ما يعلوني، نجوم صفراء على خلفيـة زرقـاء. أذرع طويلة ممتدة مـن اليمين تحـاول أن تمس مخالب طويلة ممتدة من اليسار.

أرى يـد "آنوب" تمسـك قلبي، ما زالت هناك حركـة ضعيفة فيه لا أعرف كيف تسـتمر خارج جسـدي كل تلك المدة. يضع "آنوب" قلبي في صدري، ينبض، أشعر به في أنحاء جسدي كأنه استحال قلبًا عملاقًا بالكامل.

يصلي "آنـوب" وهو يخيط لحمـي، ألم لا يوصف، رائحة السـكر

المذاب، الابتهالات إلى الولي الشاهين، جسد أبي الذين يصبون عليه السكر الساخن فتغيب زرقة جسده تحت اللون الوردي المقيت، خدمة الشاهين يرسمون ملامحه على الطبقة الجافة الخشنة.

حمامة خالتي "ود"، حمامة جدتي، حمامة "بكرية".

كنت أطفو وأغوص بلا انقطاع في تفاصيل حياتي السابقة، كل لحظة مررت بها وظننت أنني قد نسيتها تعاود الظهور الآن.

الولي الشاهين في ملابس مغايرة لما رأيته بها، فَزِع، يختبئ خلف تلة، أراه فيسحبني معه في مختبئه. "آنوب" ومن معه يجلسون في نصف دائرة، يتحلون بالذهب، أجلس على الطرف وهم ينظرون إليّ بإعجاب وتقدير.

السباع جالسة، أمام "آنوب" ومن معه يتناقشون بجدية. الشاهين يضحك لي ويربت على كتفي، سيف جدي الكبير في يدي، أطوحه ببراعة فأحصد الرؤوس.

"نجية"، وآخر صرخات أمها تختلط بأهازيج الحمامات الأمهات.

ظلال عملاقة تتحرك في الهواء بلا مصدر، كأن عرائس صندوق الدنيا الورقية قد تحررت وتضخمت وراحت تناطح السحب.

أشهق، الهواء يدخل صدري كسكين حاد، أبكي، الألم لا يطاق. "بكرية" تهرول نحوي وتحتضنني، "آنوب" يتمتم بشيء ما وهو يتلفت حوله وينظر قلقًا من باب الحجرة العملاق.

أصرخ، مع كل شهيق يرتج جسدي، مع كل زفير أتمنى لو كان آخر أنفاسي. "بكرية" تضمني وتبكي هي الأخرى. لقد عدت بشكل ما، أم تراني لم أمت من الأساس؟

تحاول "بكريـة" أن تنزع الخوذة عن رأسي، لكن "آنوب" يمنعها، يمد كفيها برفق، ثـم ينظر في وجهي. أمسـك أنا الخـوذة وأحاول خلعها، لكنها صـارت رأسي بالفعل! كانت ممتزجة بلحمي، أشـعر بكفي عليها، أغمـض عيني من خلال عيني الصقـر. نظري يختلف وأرى العـالم بشـكل عجيب. أسـتطيع قراءة النقوش قرب السـقف بسهولة.

تسـأله "بكريـة" عن مـا فعلـه بي، لا يفهم، يتحـشرج الكلام في حلقـي في البدايـة، لكنني أنجـح أخيرًا بعد انحسـار الألم عني في أن أسـأله، ماذا فعل بي. يُدهَش "آنوب" من قـدرتي على الحديث بلغته، يصحح لي نطقي، ثم يخبرني أنني لم أكن قد مُت بعد، لكنني لم أستطع عبور الواحة لأن قلبي ليس كما اعتاد السـباع أن يكون قلوب البشر. يقول "آنوب" إنـه لم يقدر على تنفيـذ أوامر قائـده ويتركني أموت، ولن يسـتطيع أن يرد لي قلبي فأعود بشريًّا كما كنت. كما كانوا يفعلون مع المحاربين من الرجال في المـاضي بعد نجاحهـم في اجتياز الفلاة واختبـار الميزان، لم يعد أمامـه إلا أن يجعلني مثله، مثل أعضاء مجلس الحكماء المحاربين.

رفع "آنوب" عينيه نحو الباب، فوجد "ضرغام" يحدق إلى ثلاثتنا، لم يكن غاضبًا، لكنه كذلك لم يكن مستبشرًا بفعلة "آنوب". فقط قال عبارة واحدة "خطيئة البشر الأولى، الفضول".

* * *

حكايــة ما لها أول ولا نــهايــة

يســتطيع "آنوب" أن يدافــع عما فعل، ففضول البــشر لم يكن أبدًا خطيئــة، ولم يكن "آنوب" يحب معاملة الســباع لهم كعبيد لا يحق لهم الســؤال. كان "آنــوب"، ومن هم مثله، غــير راضين عن عقابهم على فعلة البشر، على فعلة الشــاهين. من تعبير وجــه "ضرغام"، أفهم أنه للمرة الأولى يتحدث "آنوب" إليه بهذا الغضب.

يرد "ضرغام" في برود بأن في واحة الســباع، يطبق قانون الســباع فقط. وإن كان يستطيع إلى أرض البشر سبيلاً فليرحل.

يخــرج "ضرغــام" بعــد أن أطال النظــر إليّ، تســألني "بكرية" عما يقولــون فأخبرها أنني ســأحكي لها فيها بعــد. كان الذعر قد تملكني، فمن أعطى "آنوب" الحق في تشــويهي، في ســلبي بشريتي؟ أصيح فيه متسائلاً، إلى متى أظل على هذه الهيئة؟ فيجيبني، للأبد، سأظل بشريًا برأس صقر للأبد.

لن أموت إلا أن يقتلني أحدهم أو أقتل نفسي، لن أشيخ، لن أمرض.

يخرج "آنوب" بعد أن أغلق علينا الحجرة بمزلاج خارجي. تدس "بكرية" رأسي في صدرها، تلوم نفسها على ما فعلته بي وبـ"واكد"، كان عليها أن تعيد دفن الصندوق وتهرب معي إلى أبعد نقطة عن كوم الحنت. لكن بمَ يفيد الندم يا "بكرية"؟ لقد خسرنا كل شيء، وعلقنا في كابوس أبدي.

نجلس أرضًا تحت النافذة العالية، تنير الشمس الحجرة تدريجيًا في بزوغها وأنا أحكي لـ"بكرية"، بالفعل لقد كانت رحلتنا بلا جدوى على الإطلاق، لقد ضاع الصندوق وانتهى الأمر، ها نحن حبيسان هنا لو خرجنا لمزقنا السبع العدواني الغاضب. تهمس في عدم اقتناع أن ربما كان لـ"آنوب" هذا مخطط ما، فأخبرها أن كل شيء عبثي، كل شيء بلا جدوى، فلا يجب أن نتوقع أن يكون لشخص ما نظرة أبعد مما تحت قدميه.

الحق أنني صرت أرى الأنانية محركًا للجميع، محركًا لي قبل أي شخص آخر. الكل يبحث عن مجد شخصي، والكل يستغل رفات الآخرين ليصعد درجة تجاه طموحه. العجيب أن الجميع واهم، فالحياة فعلاً بلا هدف، كلما ارتقيت درجة وتصورت أن ما تبغيه صار أقرب، تجد الدرجات تميد من تحت قدميك وتهوي بك في الظلمات. الحياة ظل مراوغ متلاعب، تحافظ على المسافة بينك وبينها فتعدو خلفها ولا تدركها أبدًا، الحياة ظلك الأسود التعيس.

أتجه إلى حيث مرقد "واكد"، أتحسس الخارطة على وجهه، وعين الشاهين على جبينه. كان جسده مهترئًا من كثرة ما اخترقته من طلقات. أملّس عليه بأصابعي، أهم بتقبيل جبينه فأدرك أنه لم تعد لي شفتان. غاضب، أدور في الحجرة، عالق كحشرة في خيط عنكبوت،

كلما حاولت التملص التفّ حولها الخيط أكثر. ترتجف "بكرية"، تئن، أتذكـر أنها أيضًا كانـت مصابة. تلك المرأة أقوى منـا جميعًا، لا بد أن تنجو من كل هذا بأي طريقة. رغم غيرتي منها، أحبها، رغم سخطي على ما تسببت لنا فيه بعندها، أعشقها.

يتكشـف صدرها عن جرح مسـود نتـن الرائحة محـاط بحروق ملتهبة متورمة. كيف تحملت كل تلك الرحلة بجروح كهذه؟

أُجـن، أدق عـلى الباب بكلتا يـدي، تعود لي تلك الـرؤى التي لم أعشها من قبل، الشـاهين يقف جواري، نشاهد كيف تطيعه الغربان وتـدور حوله. أتدحرج من فوق تل، أرى الوادي الغربي، تفلت مني خوذة ذهبية تنطمر تحت التراب.

تسـألني "بكرية" عما حدث لي، ولم تسـمرت فجأة مكاني. أحكي لها سريعًا عما رأيته الآن وفي أثناء عودتي من موتي أو إغماءتي، أيا كان. تميل "بكرية" للاعتقاد بأن تلك الخوذة كانت ملكًا لجدنا الأكبر، تمامًا مثل السيف، وأن تلك الذكريات تخصه.

ينفتح الباب ويدخل "آنوب" غاضبًا. ينهرني على فعلتي، فأمسك بكتفيه وأصرخ فيه. لم يعد في نفسي متسع للغموض، ولن ينهرني أحد بعد اليوم. فليجلس ويحكِ لنا.

يغلـق "آنـوب" الباب، يجلس في نفـاد صبر أمامنا ويشـير لي كي أجلـس. يحكي "آنوب" من البداية فأسـمع وأنا جالس تحت المنضدة التي يرتاح عليها "واكد" للأبد، تتشابك أصابعي مع أصابع "بكرية" المتقرحة.

يحكي "آنوب" ويقول إنه...

* * *

حاربت في أربعة حروب، وحميت أبي في الحرب الثالثة من ضربات سيوف الأعداء وقد كانت الحرب الأولى التي أخوضها. كان أبي مسنًّا، عليل الجسد، لكنه أبَى أن يفوّت حربًا أو ينهي حياته على الفراش.

تمزق جسدي هناك، في الفلاة الرهيبة، التي كانت امتدادًا طبيعيًّا لأرض الجنة، وكانت ساحة معتادة للحروب السابقة وساحة لاختبار المقاتلين الجدد في أيام السلم. كانت السباع تحارب جنبًا إلى جنب معنا، وإن كنا نحن البشر قادتهم. وضعني أبي فوق "ضرغام"، واخترقنا المعركة إلى واحة السباع حيث يعيشون ويمارسون سحرهم القديم الغامض وعلومهم الأزلية.

كنت بين الحياة والموت، بالضبط كما أتيتنا. عند الميزان، تطوع أبي بإخراج قلبي ليزنه. كان يعرف أنه سيفقد "آنوب" الذي عرفه إلى الأبد. لكن سيظل في الدنيا "آنوب" ما، يكحل عينيه برؤيته حتى يموت.

نجحت في اختبار وزن القلب، وحملني "ضرغام" إلى المكان نفسه الذي نجلس فيه الآن. كنت أرى وأسمع، كنت أحلق في السقف تحيطني الحمامات الأمهات وتؤنس هلعي.

نعم، كنت أشعر بالذعر، لطالما كان منظر أفراد مجلس الحكماء يثير القشعريرة فيّ. هؤلاء كانوا أخوالنا وأعمامنا وأجدادنا، لكنهم

ذهبـوا للحرب وعادوا برؤوس تشـبه الخوذات التـي لطالما ارتدوها في الحروب السـابقة. يقولون إنه شرف كبـير أن تترك قلبك البشري المعتل لتعيش أبدًا بلا خوف.

تحلق حولي شـخصان من مجلس الحكماء مع ثلاثة سـباع، يعيدون قلبـي إلى مكانه، ويضعون خوذتي عـلى رأسي، لأولد كما ولدت أنت من جديد. لم يكن الأمر مؤلمًا كما كان معك يا بني. كانَ سلسًا، عذبًا، كأنك تطفو على سـطح مـاء رقراق تاركًا خلفـك أثقالك. لا أعرف السـبب وراء كل ذلك الألم الذي شعرت به أنت. ربما هو خطأ مني، فأنـا لم أمارس هذا الطقس من قبـل وإن كنت قد تدربت عليه. وربما كانت المشكلة في قلبك المحير الذي لم يجتز الاختبار ولم يفشل فيه.

خضـت ثلاثة حروب أخرى على هيئتي هذه. عشـت عددًا كبيرًا جـدًّا من الأعوام، أجيال مـرت عليّ وأنا لا أشـيخ. أطفال يُنتزعون مـن أثداء أمهاتهم ليلقـوا إلى مصيرهم في رحلة واحة السـباع. تأتينا الأمهـات الباكيات كل عـام، يمرغن أنوفهن تحـت أقدامنا، يطلبون الرحمـة لأولادهـم. لكننا لم نكـن نراهـن إلا حفنة مـن الحمقاوات الضعيفات. مَن لأرض الجنة لـو تركنا الصبية في أحضانهن ليتعلموا الطهو والتنظيف وتربية الماشية؟ من سيقف للأعداء المتربصين دومًا، مَن ينتظرون هفوة أو ضعفًا ليعاودوا الهجمات من جديد.

كان ما بين الحرب والأخرى عقودًا وربما قرونًا. دفنت فيها أبي ولم أذرف دمعة واحدة. كنت أرى الندم يغلب الفخر في عينيه. سـمعت مـن أخـي أن أبي كان دائم الفخر بي، لكن ما كنت أراه في عينيه مغاير لذلـك الزعـم. لربـما كان من الأفضـل أن يتركني لأحضـان الموت الرحيمة.

في الحرب السابعة والأخيرة، حشدنا كل ما استطعنا من رجال وصبية وأطفال. فقد اتحد الأعداء علينا، وصارت أنهار الدماء تشق طريقها من الفلاة إلى البحيرة، ومنها إلى الزروع والبيوت.

طلب منا السباع أن نظل في أرض الجنة وننظم تدريب المقاتلين الجدد، وإن استلزم الأمر، عقدنا تحالفات مع ما تيسر من جيراننا.

وكان جدك وقتها هو صانع الأسلحة الأعظم في البلاد. تعلم القتال على يد "ضرغام" شخصيًّا. واضطررنا إلى إرساله مع آخر من تبقى من الرجال للحرب. وكان منهم الشاهين.

لا أعرف الكثير عنه، لكنه لم يكن يعبد إلهنا. كانت عائلته من الوافدين من أرض فقيرة تجاور أرض الجنة. وكانوا قادرين كما سمعت على تسخير الجن. تلك المخلوقات العنيدة غير المرئية التي تسكن أرض الجنة وما حولها، لكننا عقدنا معها عهدًا قديمًا بألّا تتدخل في حياتنا ولا نتدخل في حياتها.

أما المستورون، فلهم قصة أخرى ليس مجالها الآن.

في الحرب السابعة، لم يعد أحد من الرجال سوى الشاهين. بمعجزة ما عاد سليمًا بلا أي خدش. يمتطي حصانه الأبيض، وتتدلى ضفائر شعره من تحت خوذة الصقر المماثلة لخوذة جدك والتي صنعها له.

اعتزل الشاهين العالم لفترة، بينما حاولنا أن نفهم من أغاني الحمامات الأمهات ما حدث في المعركة. هناك خيانة ما لم يفهمها السباع كذلك، لكننا هزمنا الأعداء.

أغلقنا على أنفسنا المجلس لأيام طويلة، بينما تخلو البلاد من الرجال والصبية. النواح والعويل لا ينقطع، صوت النساء يتعالى

أكثر كل يوم، وتطالب كل من كانت تحمل طفلاً في أحشائها بأن نوقف نزيف الرجال، أن نوقف الحروب وطقوسها، أن نجد سبيلاً سلميًّا آخر.

خرج السباع وزأروا في وجوه النساء. هددوهن وحبسوهن في ديارهن حتى نفرغ مما نتباحث فيه.

صمتت النساء لأيام، ستة أيام بالضبط، وفي اليوم السابع اجتاحت البلاد العواصف الرملية المحملة بعدد لا يحصى من الغربان. تهدمت المباني وجفت البحيرة، وجرفتنا العاصفة مع السباع كأننا بلا وزن. في المساء كنا مكومين عند واحة السباع، حاولنا العودة بلا جدوى. كنا ندور حول أنفسنا ونعود إلى الواحة. لا أعرف ماذا حدث، لكن هناك خيانة عظمى. وما تم تدبيره ليس في علم السباع له مثيل.

ما حدث هو من كيد البشر، ويومًا بعد يوم، ازدادت السباع عدوانية وكرهًا للبشريين. بعد كل ما قدموه لنا يُكافأون بالنفي.

وتحولنا من حكماء المجلس إلى عبيد عند السباع، ندفع ثمن بشريتنا السابقة كل يوم. أود لو أعرف ماذا حدث، أود لو أدفع حياتي الطويلة اللعينة مقابل تفسير واحد حقيقي. وكان صندوق الدنيا هو أملي الوحيد، هو ما يحوي في ظلماته كل ما حدث منذ وجد البشر وحتى الآن.

الآن وقد فقدنا الصندوق، هلا حكيت لي أنت يا بني ما حدث؟

* * *

شعور عجيب هو، أن أدرك فجأة أنني كنت أحيا كذبة محكمة

حالكة الظلمة. الحق أنني ما زلت أعيشـها، ولم تـزد حكاية "آنوب" الأمر إلا تخبطًا.

لم أصدقـه؟ الجميـع يتآمر لمصلحته، الكل يحكـي حكاية مدفوعة الأجر في صندوق الدنيا، يعز من يشـاء ويخسـف بمن يشاء الأرض. قررت ألا أحكـي له أي تفاصيـل، فقط قلت لـه إن "بكرية" تعرف الكثير، لكنها مصابة بشـدة. طلبت منـه أن يعالجها. هكذا أبتاع وقتًا وأحمـي "بكرية" لـو قرروا الخـلاص منها. هي الآن مصـدر لحقائق يحتاجها "آنوب" وسيفعل كل شيء للحفاظ على حياتها.

أسترجع الومضات التي رأيتها عن حياة جدي، وأجدها متوافقة مع حكاية "آنوب"، ومع حكاية الشاهين. أريد أن أختلي بنفسي قليلاً كي أفكر، أريد أن أتشارك الأفكار مع "بكرية" لتنير لي حلكة عقلي.

شرع "آنـوب" في فحص "بكرية"، فرحت أحكي له عن "واكد"، وسـألته إن كان هنـاك مـا يمكن فعله ليعـود إلى الحياة مـرة أخرى. أجابنـي "آنـوب" بأنه لا يحيي الموتى، فقط يسـتعيد من يسـتطيع من فكّـي الموت قبـل أن يبتلعه. يقوم "آنوب" ويحـدق إلى وجه "واكد"، يسـألني عن معنى الوشـم على وجهه، فأخبره أنه خريطة لكل مكان سافر إليه. يخطر لي خاطر مفاجئ، فأطلب منه أداة رسم وألوان.

يرحل "آنوب" ويطلب مني في توسل ألا أصدر أي ضجيج حتى يرى مـا يمكنه فعله لـ"بكرية" ولـ"واكد". وإن لمّح إلى وجوب تحنيط "واكد" كما هو متبع مع الموتى.

يغلـق "آنوب" البـاب علينا، فتزحف "بكريـة" إلى حيث أجلس أرضًـا، يعلوني جسـد "واكد" السـاكن. تتكور حول نفسـها وتريح

رأسـها على فخذي. كانت محمومة، ترتعـش. فأبلل وجهها بالماء من القنينة المخصصة للشرب.

أفكـر فيما فعله الشـاهين كما حكـى لي، وكيف تبدلـت الأوضاع حتـى تحولت أرض الجنة إلى كوم الحنت، فلا أجـد رابطًا منطقيًّا. أنا بحاجة إلى صندوق الدنيا، وسأستعيده.

* * *

يــا اللي الدنيــا في ملامحك

أمـضي الوقت أحكي لـ"بكرية" كل ما عرفته من "آنوب"، تطلب مني وهي تتنفس بصعوبة أن أعلمها لغته. لم أكن أريد أن أثقل عليها، ولم أكـن أريد لها أن تستسـلم لما بدا لي آخر لحظـات عمرها. علمتها، ولاحظت هي رغم وهنها أن لغة أهل كوم الحنت مشابهة لتلك اللغة القديمة، كأنها تنحدر منها بشـكل ما؛ لهذا السبب كان تعلمها يسيرًا عليّ منذ البداية.

خطـر لي سـؤال، كم يسـتغرق تغيير لغـة أو تحريفها حتـى يندثر الأصـل؟ عقـودًا؟ قرونًا؟ وهل يفصلنا عن زمن الشـاهين كل ذلك الوقت؟ أم أن التغيير والطمس كان متعمدًا؟

حين عاد "آنوب" في المسـاء، كان محملاً بالطعام والألوان وبوصة للرسـم، إلى جانـب أدوات مختلفة لم أعرف لها اسـتخدامًا مع لفائف مـن قماش الكتان. ما أدهشـني هـو عدد كبير من حليات تشـبه عين الشاهين، لكن لها شـكلاً مختلفًا وتبدو أكثر هيبة. أسأله عنها فيجيب

أنها ترمز لعين الرب الحارسة. مجرد رمز لإله لم يره أحد لكن لا يختلف على وجوده اثنان.

أتناول منه الألوان والبوصة، وأجلس جوار "واكد". أزيد في خارطة وجهه الوادي الغربي، والمقابر، والفلاة، وواحة السباع. لقد كان ذلك هو تاريخك يا أبي وصديقي، أيها المسافر الأبدي.

كان "آنوب" شاردًا فيما أفعل، يسألني عن نسبي، فأخبره أنني لا أعرف سوى عائلتي الصغيرة، وقد عرفت مؤخرًا منه أن جدي الأكبر هو صانع الأسلحة في عصره. يطلب مني أن أحكي له عن أرض الجنة، كيف يعيش أهلها، ومن أين أتت لغتهم، وكيف لم يحاول أحد منهم الوصول لواحة السباع لإنقاذهم. لم أجد بُدًّا سوى مبادلة ما أعرفه مع ما يخفيه هو. حدثته سريعًا عن الولي الشاهين وعباداته، ثم سألته عن خارطة واحة السباع كي أرسمها على وجه "واكد" كما يجب. كنت أحاول أن أزوده بأخبار غريبة تشغل عقله عن تبيُّن مُرادي من رسم خارطة للواحة بدقة.

رُحت أرسم وأحفظ المكان جيدًا، لم تكن ثمة مبانٍ إلا الذي نحن فيه الآن. كان المجرى المائي الذي عبرناه هو بحيرة طويلة تكاد تطوق الواحة. لكن أثلج قلبي معرفة أنها بحيرة مغلقة، لن ينجرف فيها الصندوق إلى حيث لا يمكن الوصول له.

بالطبع لم يكن وصفه للمكان تفصيليًّا، لكنه كان كافيًا كبداية. ابتعدت بعد فراغي من رسم الخارطة، وأفسحت له المجال كي يبدأ تحنيطًا لم أر له مثيلاً قط. لم يكن يحفظ الجسد بالسكر، إنما كان يفرغه ويعيد تعبئته وغمره بمواد شبيهة بالرمال. ثم أخبرني أن التحنيط سيتطلب عدة أيام كي يتم. أسأله عن مثوى الجثمان بعد تحنيطه،

صمت. تشاغل عن سؤالي في إصابات "بكرية" المتعددة، وتوقف طويلاً عند الحجاب المخاط في لحمها. حكيت له عن كنهه فتعجب، أزاله برفق من مكانه وسط صرخات "بكرية" التي نجحت في كتمانها بشجاعة عجيبة. فتح "آنوب" الحجاب ليجد نسب "بكرية" كاملاً، وصولاً لجدي الأكبر. كان كل اسم من أجدادي مصحوبًا بتاريخ موجز جدًّا لما فعله في حياته، فكان أبي هو النحاس الباحث عن الصندوق، وكان أبوه هو باعث الحق الحداد، وأبوه هو رفيق المستورة السكاكيني. ثمانية أجداد مرورًا بجدي الأكبر الحداد الأعظم رأس الصقر وصولاً إلى ابن السباع، أول جد لي على أرض الجنة.

* * *

لا أعرف ماذا يفعل سكان الواحة في عزلتهم تلك. هل ظلوا كل تلك العقود منتظرين أن يحدث شيء ما؟ هل قضوا وقتهم في محاولة العودة وفشلوا؟ ثم ماذا؟ هل سيعيشون في منفاهم إلى الأبد لا يفعلون شيئًا؟ كيف يمضون وقتهم إذًا؟

"بكرية" تئن، نائمة على فخذي، وأنا أحاول التفكير في مهرب ما. لن أظل هنا في انتظار "آنوب" وزياراته الشحيحة. أحدث نفسي بصوت عال فترفع "بكرية" عينيها لي. تسألني إن كنت حائرًا إلى هذا الحد، فلأهدأ وأفكر في شيء واحد. ماذا أريد؟

كان ردي سريعًا، الهرب من هنا، تغمض عينيها وتهمس أن الهرب ليس هدفًا في حد ذاته. تطلب مني أن أفكر إن استطعنا الهرب فماذا سنفعل؟ سنعود إلى كوم الحنت؟ هل نحن قادران على الحياة وسط صراع طرفاه الفرنج والجن؟ لو انتصر الجن فسيقتلون البشر

جميعًا، ولو انتصر الفرنج، سيصبح من تبقى من أهل كوم الحنت عبيدًا عندهم، أما نحن، فسنعذب حتى الموت، لن يصدقوا أننا فقدنا الصندوق بهذه البساطة.

وما الحل يا "بكرية"؟ من يضمن لنا أن "آنوب" لن يتخلص منا بعد أن يعرف كل ما نعرفه؟ ما قيمتنا لديهم سوى ذلك؟ تهز "بكرية" رأسها غير مصدقة ما أقول، فلو كان "آنوب" يحتفظ بنا لغرض في نفسه، فلمَ يُكرم "واكد" ويشرع في تحنيطه؟ تخبرني أنني متشكك بشكل زائد.

لست متشككًا، أنا أعمى تمامًا، لا أعرف من أين تأتي الضربة الآتية. يجب أن أبتعد عن الجميع مسافة آمنة كي آمن شرهم.

يطول الصمت بيننا بعد أن أعلنت "بكرية" أننا نفتقد الخطة التي سنعود بها آمنين إلى كوم الحنت. ما زلت أفكر أنا في الهرب شمالاً، لن يلتفت لنا الجن من دون الصندوق، ولو استطعنا أن نهرب في غفلة من الفرنج فنكون قد نجونا.

أريح رأس "بكرية" على الأرض، وأقوم، أستكشف المكان. كانت الحوائط عالية والنوافذ في أعلاها. تحسست الأرض فلم أجد مخرجًا سريًا. لم يكن ثمة أمل سوى الباب المغلق بالمزلاج من الخارج، كيف نخرج؟

أرى أمامي بابًا نحاسيًّا عملاقًا، ألتفت حولي لأجد نفسي في الممر أسفل الضريح في كوم الحنت. الممر منير بالمشاعل، النقوش عليه طازجة ساطعة الألوان. وكان الشاهين معي، شابًا، يقف خلفي

وينظر إلى البـاب النحاسي في فضـول. كنت متوترًا وأنـا أريه الباب الذي صنعته البارحة، كأننا متسللون ولا يحق لنا الوجود هنا. يسألني الآمَ يفضي هذا الممر؟ فأخبره أن شـبكة الممرات تصل إلى خارج كوم الحنت، تحديدًا إلى حدود الفلاة. طلب مني أحد أفراد العائلة الحاكمة أن أصنـع عددًا مـن الأبواب تغلق بعـض تلك الممرات المتشـعبة. لم يخبرني السـبب، لكنني صنعـت الأبـواب والمفاتيـح، ولم أبخل على صديقي الشاهين برؤية جزء من ذلك السر الصغير.

كنت أخشى جنونه وفضوله وطموحه غير المحمود، وكنت أهاب حبي للمباهاة والبطولة. لن أستطيع أن أكتم في نفسي أنني أعرف سرًّا لا يعرفـه أحد من أهـل أرض الجنة. قاومت الحكـي لزوجتي كثيرًا، لكنني لم أستطع أن أتغلب على رغبتي في رؤية نظرة الانبهار على وجه الشـاهين. إن كنت تملك القدرة على مصادقـة الجن، فأنا الآن صرت مـن المقربين من الحـكام، ولينتظر ليعرف السر الأكـبر الذي لم أخبره به بعد.

أفيـق مـن تلك الذكـرى، أحاول أن أعـود إليها مـرة أخرى كي أسـتكمل ما حدث، لكنني أفشـل. بالأمس في نومي رأيت حلمًا، أو ذكرى، عن جدي، يتقدم منه سـبع مهيب ضخم، يعطيه خوذة رأس الصقر. يرتدي جدي الخوذة وأرى بعينيه ما حوله، لم يكن ما يراه هو واحة السباع، كان المكان أشبه بالبحيرة الجافة في كوم الحنت، ولم يكن ثمة أحد سواه. كان المكان يعج بالسباع والحمامات والوحوش الغريبة التي رأيناها في الفلاة. كان حلمًا أو ذكرى مختلطة غير واضحة، تمتزج فيها الأصوات بذكرياتي من مواويل الحمام وابتهالات خدم الشاهين.

لم تكـن تلك المرة الأولى التـي أرى فيها لمحات من ذلك المكان، لكن تلك الذكرى هي الأكثر تفصيلاً حتى الآن.

لو اسـتطعت أن أجد طريقة أستعيد بها كل ذكريات جدي كاملة لارتحت من بعض عناء التخبط الذي أحيا فيه.

في اليومـين التاليين، كان تحنيط "واكد" قد تم، وصار مغطى تمامًا بالكتان المزدان بأعين الصقر. أسـأل "آنوب" عن تلك الخوذات التي صارت رؤوسنا، كيف تصنع وما ذلك السحر فيها. يخبرني أنها ليست بخوذات عادية، لكن سرها كله يكمن في علوم السباع القديمة.

أخبرتـه أنني أرى لمحات من ذكريات جدي، فكيف وصلت لي؟ يتوقف "آنـوب" عن لصق أعين الصقر على جسـد "واكد" ويقترب مني بهدوء، كأنني فريسـة على وشـك اصطيادها. يسألني ماذا رأيت مـن ذكريات جـدي، فأجيب أنها مجرد لمحات بـلا رأس ولا ذيل. لا أستطيع أن أكون منها حكاية مفهومة.

يزعم "آنوب" أنه لا يعرف كيف حدث ذلك، فالخوذة بما فيها من سـحر قديم لا توصل ذكريات النـاس بعضهم لبعض. يتوقف لحظة ثـم يبحث عن الحجاب العجيب ـعقاب الفلاة لها، أو هديتهاـ الذي كان مخاطًـا إلى صـدر "بكرية". يراجـع المكتوب فيه بقلـق. ينظر إليّ ويهتف أن تلك الخوذة لم تكن خوذة جدي الحداد الأعظم. إنما خوذة ابن السباع جده الأول. يُقال إن بها سحرًا يشبه سحر صندوق الدنيا، لكنـه لا يعرف أكثر عنها. ربما يفسر هـذا ما مررت به حين ارتديتها. أرى ما يشـبه الندم المشـوب بالغيظ على وجه "آنوب". أنادمٌ هو على إعادتي إلى الحياة بهذه الخوذة الثمينة؟ أكان يطمع فيها لنفسه؟

السؤال الأهم الذي خيم عليّ، ما حدث لنا في الفلاة لم يكن خيالاً، ولم يكن مواجهة للنفس. كأن الفلاة لها إرادة خاصة، تنتقي من تشاء وتهديه تلميحات لحل اللغز الأكبر. يجب أن أعرف تفصيلاً ما مر بـ"واكد" و"بكرية" في أقرب وقت.

طالت النظرات بين عيني ابن آوى وعيني الصقر، كان الأمل الوحيد هو إيجاد الصندوق. طلبت منه أن يرتب لي خروجًا سريًّا من هنا لأساعده في إيجاد صندوق الدنيا، فقد لا تشملني لعنة قائدهم، فلأجرب الغوص والبحث بنفسي. صمت قليلاً ثم أخبرني أن خروجي بلا فائدة تقريبًا، فلا يستطيع أن يفتح صندوق الدنيا سوى السباع. طلب مني أن أركز أكثر فيما أراه من ذكريات فهذا هو دوري الأهم، ولأترك مسألة إيجاد الصندوق مؤقتًا.

يخرج "آنوب"، وألتفت لأجد "بكرية" متيقظة، تستعيد الكلمات المتناثرة التي فهمتها من كلامنا وتطالبني بالتوضيح، فهي بعد لم تعرف ما يسمح لها بفهم جملة كاملة حتى. حكيت لها، رجوتها أن تحكي لي كل ما عرفته من "واكد" عما خَبره في الفلاة.

لم يحكِ لها "واكد" سوى لقائه أمّنا في الفلاة. حكى أنه في يوم صيفي، منذ ما يجاوز العشرين عامًا بقليل، في منزل التجار، رآها "واكد" وأبي في اللحظة ذاتها. كانت مراهقة مليحة، قوية، تجادل التجار في أسعارهم وتتسوق الأفضل. وقع الاثنان في حبها، لكن فرصة "واكد" كانت معدومة في الزواج ببنات كوم الحنت. كان يسمع خيالات صديقه عنها، وكيف أنها شغفته حبا. شجعه على

الزواج منها، بينما كانت نظرات أمي إلى "واكد" تحكي الكثير. لم يجرؤ على الحديث معها، وكلما اقتربت هي من بضائعه، فر مختبئًا وترك البيع لرفاقه.

كانت أمنا هي حلمه، ومن أجلها أغلق قلبه الأبواب للأبد. ابتاع أبي لها هدايا عظيمة من "واكد"، وكانت هي تعرف مصدر تلك الهدايا. جرحها تصرفه واعتبرته رفضًا شخصيًّا لها. وكشأن الفتيات، لم يكن لها الاختيار في الموافقة على أبي أو رفضه. وجده أهلها عريسًا لائقًا، وفوق كل ذلك يهيم بها حبًّا.

في اليوم السابق لزواج أمي وأبي، تسللت أمي ليلاً إلى مخدع "واكد"، أخبرته أنها فرصتها الأخيرة في الفرار إن كان يريدها. وكان "واكد" يريدها أكثر من أي شيء في العالم الواسع المفتوح له على مصراعيه. لكنه أسدل حجب الرفض أمامها واختبأ خلف قناع اللامبالاة. أخبرها أنه لن يتزوج ببنات كوم الحنت، بينما نساء العالم كله تحت قدميه.

يوم لقائها في الفلاة، رآها كما يذكرها في ذلك اليوم، تحملق إلى ملامحه وتنقل أصابعها على الوشم الذي كان صغيرًا وقتها على وجهه. فجأة تغيرت ملامحها للغضب وصفعته، بصقت في وجهه وأخبرته أنه سيندم على رفضه. لم يرها "واكد" مرة أخرى إلا في ذلك اليوم الذي أتت لتأخذني فيه من منزل التجار.

ألوم "بكرية" على تعمد إخفاء كل شيء عني، لا ذنب لي في مظهري الطفولي الذي يجبر الجميع على قص الحقائق على قياس رعونتي وضعفي. لستُ ضعيفًا يا "بكرية". حتى إن كنت كذلك، فالحقيقة ستقويني. تحاول "بكرية" تهدئتي، تخبرني أن تلك الحكاية

بالذات لم تكن ذات أهمية لي.

إلى متى سيقرر الآخرون مدى أهمية أي شيء لي؟!

ينفتح الباب، نتسمر أنا و"بكرية" في مكاننا، ننتظر أن يدخل "آنوب"، فلا يدخل. أقترب ببطء وأنظر خلال الفرجة الضيقة. لم يكن ثمة أحد في الجوار. أخبر "بكرية" أنني سأخرج لأرى من فتح الباب، تطالبني "بكرية" بالتعقل، فلربما كان فخًّا أو اختبارًا ما. لو عرف أحد سوى "آنوب" و"ضرغام" بشأننا فلن يحتاج إلى وضع الاختبارات أو نصب الفخاخ لنا. تقرر "بكرية" أن تصحبني إن كنت مصممًا. فلو ذهبت وحدي وعاد "آنوب" ستكون هي في وضع لا تحسد عليه.

أحاول استرجاع الخارطة التي رسمتها على وجه "واكد"، كان لا بد لنا من استعادة سيف جدي، أو الحصول على أي سلاح على الأقل أولاً. أمسكت بكف "بكرية" وتلاقت أعيننا كما تلاقت يومًا أمام صندوق الحكواتي. تريد "بكرية" التأكد من أنني لست خائفًا، لستُ خائفًا يا "بكرية"، فلم يعد في قلبي متسع إلا للغضب.

* * *

أعلّم "بكرية" كيف تجاور الجدران في تسللها، كيف تنقل وزنها في مشيها على كعبها أولاً ثم ببطء تنزل بكامل قدمها على الأرض. كيف تتنفس ببطء بلا صوت لافت. كيف تكتم السعال وتمسح قطرات العرق قبل أن تسقط. فسكان المكان أقرب للحيوانات، ولا أعرف مدى قوة سمعهم.

كنت شيخ المتسللين ولهذا تعجبت "بكرية"، كيف ولماذا طورت تلك المهارات؟ حين يعيش المرء في محيط من الممنوع والعيب والحرام بلا متنفس، فلا عجب أن يكون الفضول مَن علمه التسلل والتنصت.

خارج المبنى الذي كنا فيه، تمتد الأرض الحجرية الساخنة بفعل الشمس لمسافة طويلة، كانت محفوفة من الجانبين بزروع خفيفة منخفضة الارتفاع. شرعت أصيخ السمع لعل أحدهم آت، أو مختبئ في مكان ما. لمحت في الدغل البعيد أحد السباع متجه من مكان إلى آخر. لم يكن أحد يسير على الأرض المنبسطة أمامي ولم أسمع تكسر النباتات تحت أقدام أي شخص قريب.

تسللتُ و"بكرية"، تنسخ حركتي وانتظام تنفسي. كانت خائفة، متوترة، أسمع ضربات قلبها وأرى وجنتيها تشتعلان بالحمرة.

كنت أفكر في أن أتسلل قليلاً خلف دغل النخيل وأرى مختبِئًا ما يفعله السباع في يومهم. قطعنا الأرض الحجرية في سرعة، خافضين رؤوسنا. تقف "بكرية" خلفي وتلتصق بي وأنا أختبئ خلف أوراق النباتات وجذوع النخل. أرى سبعَين يتقاتلان، لكن بدا لي أن قتالهما تدريب لا أكثر. جذبتني طريقة انتقالهم من الحركات الحيوانية من قنص وعض وخمش إلى الحركات البشرية من كر وفر وضرب بالسيف. كأنني أرى أمامي ما يعتمل في أعماق البشر من تأرجح بين الحيوان والإنسان، بين الوحشية والنبل. أتساءل، لِمَ نكبت هذا الصراع إن كان فينا من الأساس؟

بين زئير وصياح يتبادله السبعان، يقفز ذو رأس القط وسطهما حاملاً سيفين، يتحرك بخفة وسرعة بينهما، يتملص ويضرب ثم يختفي متدحرجًا وسط النباتات، تنتاب السباع الحيرة والتحفز،

أسمع ضحكاته ويهبط من فوقهما ليمتطي أحدهما ويضرب الآخر.

كان وضعه فوق ظهر السبع أسطوريًّا، خاصة حين قررت السباع أن تغـير التدريب إلى تدريب بين سـبع من جهة، وبين بشري سـابق يمتطي سبعًا من جهة أخرى.

أرى أمامي صحراء ما، كنت خائفًا متعبًا، ووجدت أمامي ما يشبه البحـيرة. هرعت إليها أعب منها الماء عبًّـا. كان ماءً مختلفًا عما شربته طيلـة حياتي. ارتميت على ظهري في الشـمس، أفكـر فيما عليّ أن أفعله لاحقًا. أغمضت عيني لأجد أن ضوء الشـمس يُحجب. فتحت عيني فزعًا لأجد عمودًا عملاقًا من الماء يصعد تجاه السـماء، ويتجسـد على شـكل يشـبه البشر. فزعت، تراجعت جالسًـا ثم قمت أفر في الاتجاه المعاكس. لكن الماء لحق بي وأحاطني فسقطت على وجهي.

عينا "بكرية" تحملق إليّ، تخشى أن تهزني فيصدر عني صوت فزع. أفيـق من رؤياي، أقبض على يدها وأقودهـا إلى مكان آخر، فأنا أبغي أن أشـاهد كل ما يمكنني مشـاهدته اليوم، فلا أحد يعرف إن كانت الفرصة ستتاح لنا مرة أخرى.

تهـمـس "بكرية" متسـائلة عما رأيته، فأغطي شـفتيها. تهز رأسـها اعتـذارًا ونكمل تسـللنا. مـع توغلنا في الدغل كانت مسـيرتنا تزداد صعوبة. فصوت تكسر العشب تحت قدمينا كاد يفضحنا أكثر من مرة.

نرى عـددًا من البشر برؤوس حيوانات يحيطـون بـ"آنوب". كان يتكلـم بصوت خفيـض، وبعضهم يناقشـه وعلى ملامحهـم الرفض والخوف والقلق.

لم يخبرني "آنوب" بتفاصيل الواحة الداخلية، فلم يكن لدي فكرة عن مكان توجهنا. فسيطر عليّ أن أتنصت على حديث "آنوب" بأي شكل. طلبت من "بكرية" أن تختبئ ريثما أحاول أن أقترب أكثر.

مع "آنوب" عدد ممن يشبهونه، ويبلغ عددهم ثمانية هو تاسعهم، بينما في تسللي رأيت عددًا آخر منهم متناثرين في المكان، منهم من يزرع ومنهم من يصطاد.

إن كان "آنوب" ومن معه هم من كانوا في مجلس الحكماء، فحسبما أذكر من رؤياي عددهم كان يزيد على العشرين ويقل عن الثلاثين. لا أستطيع التذكر بالضبط.

يشتد الخلاف بين الجالسين و"آنوب"، يقوم أحدهم تاركًا المجلس، بينما يهتف آخر أن عليهم التمهل وجمع معلومات أكثر عن عدد الفرنج وأسلحتهم. كان "آنوب" غاضبًا لسبب ما. يقوم ويتركهم فأتراجع أنا مختفيًا، أدوس على الأعشاب متعجلاً فتصدر صوتًا بسيطًا. يتوقف "آنوب" للحظة ويلتفت تجاهي. يقترب بضع خطوات ثم يتلفت حوله باحثًا عن مصدر الصوت.

ينادي على من كانوا جالسين معه، معلنًا أن هناك من كان يتنصت على اجتماعهم. يتفرقون سريعًا بحثًا عن المتسلل. أحاول أن أتسلق شجرة قصيرة وارفة الأغصان. أتكور مستغلاً صغر حجمي بين الأوراق وأكتم أنفاسي. يبتعد الرجال تدريجيًّا وهم يبحثون حولهم، يبتعد "آنوب" في اتجاه معاكس لبحثهم. أنتظر فترة كافية ثم أفكر في أن أهبط من مخبئي فأشعر بالشجرة تهتز، ألتفت فزعًا لأجد "ضرغام" يتسلق الشجرة، يجذبني من ساقي ويطلب مني أن أعتلي ظهره.

يعدو بي كالبرق، أهمس له أن "بكرية" كانت معي. يخبرني أن "بكرية" قد وجدها قائدهم، كبير السباع.

* * *

يخبئنـي "ضرغام" في طـرف الواحة القصي، في مـكان قريب من الفـلاة التي جئنـا منها، حيث صحراء ممتدة إلى مـا لا نهاية. في عرين "ضرغـام"، وجدت لفائف وأسـلحة وعـددًا من التماثيـل الصغيرة مشـابهة لمـا كان يسـتخرجها "باقـي" من الـوادي الغربي ويسـميها "عرائس".

يضـع "ضرغام" كميـة من التمر أمامـي ثم يجلس مـادًّا ذراعيه. الغـروب يتسـلل من بـين الأغصـان المتشـابكة الكثيفة لشـجرة أم الشعور، والتي تدلي جدائلها الخشبية في الماء الصافي.

أمد يدي في الماء وأرتشف ما تغترفه، هو ذات الطعم البكر الجديد الذي شـعرت به أحشـاء الرجل التائه في رؤياي. هل كان هو جدي، صديق الشـاهين، الحداد الأعظم؟ أم ابن السباع، المذكور في حجاب "بكرية"؟ أم جد آخر غيرهما؟

يرمقني "ضرغـام" بعينيه الكحيلتين الصفراوين. أسـأله إن كان هـو من فتح لنـا الباب، فيهز رأسـه إيجابًـا. كان يريد لنـا أن نهرب، وكان يريد أكثر أن يشـبع عطشه لشيء اشتاقه منذ زمن، البشر وحرية اختيارهم.

أذكّـره بأن "بكرية" مع القائد ويجب علينا اسـتعادتها الآن. يتقدم منـي ثم يجلس عـلى إليتيه. وجهُه جالسًـا يصل إلى مسـتوى وجهي

واقفًا. يتكلم ببطء ورويّة، صوته المتحشرج مريح، مهدئ، لولا
لكنت فضحت أمر نفسي وخرجت بحثًا عن "بكرية" ولو كان الثمن
موتي.

يخبرني "ضرغام" أن الأمور تعقدت منذ وصولنا، كان يبدو أن
القائد قد اقتنع بأن "آنوب" أعادنا إلى المكان الذي وجدنا فيه، بينما
"آنوب" كان يسعى لشيء واحد فقط، العودة إلى أرض الجنة. لم يحك
"آنوب" لـ"ضرغام" الكثير مما دار بيني وبينه، لكن "ضرغام" كان
يتسلل، ويسمع. مشدودًا لنا، كما جذبه "يزن" منذ زمن سحيق.

* * *

أولـها الأرض.. وتانيها الولـــد

يحكي "ضرغام" قائلاً:

فرغنـا من الصلاة الجماعية للإله الواحد، ثم تحلقنا حول "داغر"، السبع القائد. أطال النظر إلينا، كيف لم يعد يملأ عددنا الأفق كما كان في الماضي، حين كانت الأرض للسـباع ووحوشـها المقدسـة والجن الخبيث المتلاعب.

منـذ الأزل ونحـن في حروب مسـتمرة مع الجن، نهزمهـم تارة، ويهزموننا تارة. حتى انشـق عنهم صِنف منهم يدعون "المسـتورين"، وهم الموكلون بتسجيل شهادتهم عن كل ما يحدث على الأرض. فشل الجن في استـمالتهم، بينما تقبل السباع طلبهم للانضمام إليهم، كشهود يريدون أن يمارسوا ما خُلقوا لأجله وليسوا طرفًا في الصراع.

أراد الجـن الاسـتيلاء عـلى الأرض باطنها وظاهرهـا، أرادوا أن يقتلـوا كل من لم يدخـل في عهود معهم. تلك العهـود التي لا تنفك تُنقض بلا أي سبب. وكانت لنا أرض، نواتها أرض الجنة وما حولها،

ولم نكـن أبدًا لنتعاهـد معهم على بيع موطننا، حتى لو فنينا في سـبيل ذلك.

ثـم جاء البشر، لا نعلـم من أين، لكنهم ظهـروا فجأة، برماحهم وخيولهم وفضولهم القاتل. كائنـات بديعة هم، فضّلهم الخالق عمن سـواهم، فبث فيهم مـن روح كل شيء. بهاء الطبيعة، صلابة الجبال، شـجاعة السباع، مثابرة الجن، وأورثهم من قدرته على الإبداع، فكان الإنسان هو الوريث، هو المختار.

ونحن كسـباع، لم نملك من طباع البشر الكثير، فلم نشعر بالغيرة منهم، كما فعل الجن. فقد رأى فيهم منافسًا وندًّا له. بينما لم نر نحن في البشر سوى اكتمال لهذه الحياة.

لكننا كنا حمقى، فأول ما أدرك البشر وجودنا حاولوا استمالتنا، ثم رويدًا رويدًا، ظهرت نظرة التعالي تلك على وجوههم. لن نكون أبدًا عبيدًا لأحد، حتى إن كانوا هم المختارون.

والتهبت الأرض بالحروب، وتعاون الأشـباه بعضهم مع بعض، فتلاقى مكر الجن والبشر على شيء قد قُدر. وتوالت هزائمنا. قُتل منا أكثر مما تبقى، وفي لحظة بعينها أدرك "داغر" أن علينا التراجع.

عدنا إلى موطننا، واحة السباع، مع ما تبقى من علومنا ووحوشنا. فشـل سـحر السـباع الأولى في الانتصار عـلى تحالف البـشر والجن، وكادت شجاعتنا تقضي على جنسنا كله.

لم تعـد أعدادنـا تمتد حتى الأفـق، وصارت رحلة الشـمس فوق رؤوسنا تلهبنا بعار انسـحابنا. سكن المستورون المنفيون من أصولهم في المـاء، والهـواء. فكانت الحمامـات الأمهات تطـير في العالم بأسره،

يأتي بأخباره لنا عند الغروب. وكانت مستورة الماء تسري تحت الأقدام وفي الأنهار تبحث عن البشري المفقود، البشري الذي أراد له الخالق أن يكون وريثه، لا غريمه.

حتى وجدنا بالصدفة البحتة "يزن"، ابن السباع الأول.

* * *

لم يكن "ضرغام" قادرًا على الاختفاء معي طويلاً، فكان يريد أن يعرف كل ما يفكر فيه قائدهم، "داغر"، وأن يظل مقربًا من "آنوب"، يبحث معه عنا حتى لا يشك فيه.

قبل رحيل "ضرغام"، طلب مني أن أكتب له في اللفائف بعضًا من لغتنا كي يحفظها قدر ما يستطيع، حتى إذا استطاع الوصول لـ"بكرية" طمأنها بلغتها وفهم منها ما تريد قوله له.

كان ضوء الشمس يقل تدريجيًّا وأنا أسكب الكلمات على اللفائف سكبًا. لم تكن لغتنا مكتوبة، فحاولت أن أكتب له بحروفهم منطوق بعض الكلمات عندنا، وكانت مهمة عسيرة ثقيلة. لو استطاع "ضرغام" أن يساعد "بكرية" على الهرب لكان أفضل لنا جميعًا.

أُلقي البوصة جانبًا وألوك التمر شاردًا في الماء. أتمنى لو كانت المستورة هنا الآن. يبدو أن ما فعله الشاهين قد أبعد المستورة والحمام عن واحة السباع، فلم تعد هناك أخبار تصلهم عن العالم ولا أحد يعلم بوجودهم. صاروا فزاعة يخيفون بها الرجال قبل الأطفال.

أرى طفلاً يجري نحوي وفي يده تمثال صغير صنعه بنفسه، ومن

خلفه كان السباع يجرّون عمودًا ضخمًا ليقيموه بشكل أفقي. عمود يماثل الذي رسمته وصممته أنا. حولي كانت اللفائف والنقوش تحيطني وزوجتي، العاكفة على تدوين شيء ما يمليه عليها سبع ضخم مقطوع الأذن. ابنتي الكبرى تغني وتصفق، فتردد أغنيتها الحمامات في بهجة.

ظلام المساء يعود من جديد، أكاد أختنق من التمرة التي توقفت في حلقي حين باغتتني تلك الرؤيا القصيرة. أتوق لسماع المزيد عن "يزن"، جدي الأكبر، وخوذته التي صارت بلعنة سحرية ما جزءًا من جسدي حتى أموت.

حين عاد "ضرغام"، راح يقرأ في نهم اللفافات ثم طلب مني أن أجمعها وآتي معه. فقد هدأت الواحة ولا بد من أن نجد الصندوق في الماء في أقرب وقت.

أركب على ظهره فيتسلل بي متجهًا إلى حيث ألقى "داغر" الصندوق يوم وصولنا. أسأله عن "بكرية"، فيخبرني أن "داغر" يحتفظ بها حتى أظهر أنا. "آنوب" يبدي التعجب أمام قائده، ويزعم أنه قد أعادنا إلى حيث وجدنا، فكيف عدنا مرة أخرى. وحين اختلى "آنوب" بـ"ضرغام"، اتهمه بأنه هو من هربنا، فكان رد "ضرغام" أنه لم يكن ليساعد بشريًّا بعد ما فعله البشر بهم المرة تلو الأخرى.

أما عن خطته، فأخبرني "ضرغام" أن "آنوب" يعرف أنه لن يستطيع فتح الصندوق دون مساعدة أحد السباع، لذا فإن "آنوب" كان محتفظًا بي وبـ"بكرية" كبديل للصندوق كي يعرف ما الذي يحدث في أرض الجنة، ويستعد لمواجهته حين يعود مع رفاقه من

مجلس الحكماء. لكن ما ينقصه فعلاً هو كيفية العودة إلى أرض الجنة.

أما "ضرغام"، فيطمع في مساعدتي و"بكرية" في إيجاد الصندوق، وفتحه ومعرفة كيف فعل الشاهين ما فعل بهم، ومن ثم البحث عن حل أو تعويذة ما لفك الحصار حول الفلاة.

أسأله لِمَ لا يتعاون مع "آنوب" إذًا ويعودون معًا ليستردوا أرض الجنة، فينزلني من فوق ظهره ويخبرني أن "آنوب" ببساطة يحمل غلاً تجاه السباع الذين عاش وسطهم عبدًا ذليلاً منذ أن نفاهم الشاهين، وإن كان سيعود إلى أرض الجنة فسيعود سيدًا لها، ولن يسمح للسباع بالعودة معه، إن لم يقتلهم عن بكرة أبيهم.

يبدأ "ضرغام" الحكي مرة أخرى، فأسمع وأنا شارد في صفحة الماء.

* * *

يقول "ضرغام":

حكى "يزن" أنه قد فر بعائلته من اضطهاد أهله وعشيرته لهم. فحين انشغل هو بالعلم، انشغلوا هم بالوهم. كانت أوهامهم تتكشف على يديه فتنكشف عوراتهم أمام أنفسهم أكثر فأكثر. وما أصعب على البشر من ابتلاع الحقائق بعد تقيؤ الزيف والدم والصديد.

أعماهم الضوء الذي راح "يزن" وزوجته يبثانه في الأعين العمياء، فتجبرها على الإبصار.

ترجاهم الضعفاء أن يرحموهم من نعمة النظر إلى الحقيقة، فقد تنكسر ظهورهم تحت ثقلها. هددهما الأقوياء إن لم يتراجعا إلى

الظلال الآمنة أن يحرقوهما على قيد الحياة.

نظر "يزن" وزوجته إلى أطفالهما النائمين. لو قُتلا لانقطع علمهما، ولو فرّا، ربما تُكتب لهما بداية جديدة في أرض عادلٍ أهلها.

عنـد أقدامنا نثـر وزوجته مخطوطـات علومهما التـي ورثوها من آبائهـم وأجدادهـم. يومًا ما كانـت تلك المخطوطات هـي الخارطة الممنوحـة مـن الإله الواحـد للبـشر، تذكرهم برسـالتهم، وسبب وجودهم، ومآلهم إليه. لكنها الآن صارت لعنة وعارًا. الحق والجمال ما عـادا ملائمين لمن شـطت أرواحهم ومزقتها عهـود الجن وأوهام الامتلاك والألوهية.

علمنـا "يـزن" من علومـه وفنونـه، وعلمناه من سـحرنا. كل ما وصل إليكم هو ما أرسـيناه و"يزن" منذ قرون مضت. كل ما تخليتم عنـه وهجرتموه هو في الأصل المراد من خلقكـم. وها أنتم تتخبطون بحثًا عن طريق للعودة، فهل تعودون؟

* * *

أسحب هواء الواحة النقي إلى صدري، وأحبسه وأفكاري داخل صـدري. أقفز في الماء وأفتح عيني، أحاول أن أتحسـس القاع، أبحث عن الصندوق، أبحث عن المستورة، بلا جدوى.

أرفع رأسي عن سطح الماء وأشهق، "ضرغام" يقرأ اللفافات التي كتبتها له مسـتغرقًا، ينظـر إليّ بطرف عينيه الكحيلتـين فيدرك أنني لم أجد شيئًا. أغوص خمس مرات أخرى ثم أرتمي على الشاطئ. مئزري ملتصق بي، يعلوه امتزاج شعر بطني مع الريش الخفيف الذي يتكاثف وصولاً لرأسي الجديد.

أدير وجهي نحو "ضرغام" وأطلب منه أن يعلمني القتال. يتوقف عن القراءة لحظات، يحدق أمامه صامتًا، واجمًا.

أقوم مقتربًا منه، أجلس فأسمعه يردد كلمات بلغتنا مما حفظها. صوته، صوته مرة أخرى يهدئني، يجعلني راغبًا في الانكماش والالتصاق بفرائه. أنا خائف، مرتعب، ضائع.

لو كانت "بكرية" هنا لطلبت منه أن يعلمنا القتال، أن يعلمنا دينهم وسحرهم. فلن نبيعهم ما نملك دون مقابل. ستقول لي إننا لسنا ضعيفين، فهم يحتاجوننا بقدر ما نحتاجهم وأكثر. كانت ستمسك بوجهي بين راحتيها وتنظر في عيني، تلك النظرة التي تخلعني من ضعفي وتثبتني.

لو كان "واكد" هنا لتمرن معه على القتال، لاعتصره طلبًا لكل ما يعرفه. لصلى معه صلاته للإله الواحد. لو كان "واكد" هنا لذهب لتحرير "بكرية" مهما اقتضى الأمر.

أقوم مغضبًا، أعزم على العودة إلى عرين "ضرغام"، فيناديني أخيرًا. أنا لم أعد طفلاً، ولم يعد في صدري متسع لحكايات صندوق الدنيا تلك التي يصبونها في أذني.

يقترب "ضرغام" مني وهو يناديني باسم جدي، "يزن"، فكما يزعم، أذكره كثيرًا به. أبتسم ساخرًا وأخبره أنني أفضل اسمي، فكفاني أن أكون مجرد ظل لأصل ما طيلة عمري.

نعود للعرين مع الشروق، يتركني "ضرغام" ليلحق بصلاته الجماعية، أتظاهر بالنوم حتى يبتعد ثم أقوم محاولاً تتبعه. أراه

من مسافة طويلة بدقة. أبتسم، تفلت مني ضحكة ساخرة. أذكر العبارة الكريهة التي لطالما أثقلت ضميري وكبلتني، "عين الشاهين حارساك". لأكونن أنا الصقر، أنا الشاهين الحق.

* * *

رأيت "ضرغام" والسباع يصلون، ومن خلفهم ذوو الأقنعة. حين انتهت صلاتهم، غادر "آنوب" وخمسة آخرين مسرعين. بينما تبع "ضرغام" وبعض السباع "داغر" إلى حيث العرش.

كنت آمل أن أجد خيطًا يوصلني بـ"بكرية"، كما كنت آمل ألا أنكشف قريبًا. أريد أن أعرف كل شيء عن ما يدبره "داغر" و"آنوب". ينتصر فضولي في كل مرة، وتنكشف نفسي أمامي فأفهم سر قلبي العجيب. لستُ بطلاً، لستُ خسيسًا، لستُ إنسيًّا. أعرف كل ما لا أكونه، ويبقى أن أعرف من أنا، يبقى أن أنحت نفسي لأصير كيانًا ما.

من مراقبتي، رأيت أن عادات الجميع قد اختلفت نوعًا، فلم تعد السباع تتدرب على القتال، وعكف "آنوب" ومن معه على تكديس مؤن وأسلحة. يبدو أنهم سيغادرون قريبًا.

يشرد "آنوب" محدقًا إلى الماء كلما توارى عن الأعين. كان مهمومًا، غاضبًا، أعرف جيدًا ما يشعر به، فكلانا مُقيد، يدور في دوائر مفرغة، كلانا تائه بلا أمل.

ماذا لو لم يكن "آنوب" بهذا الشر؟ ماذا لو لم يكن يعتزم التخلص مني ومن "بكرية" حين ينتهي منا؟ نحن أقرب إليه من السباع، نحن

بشريـان مثله ولا نشـكل خطرًا عـلى مخططاته وطموحـه... أم ترانا نشـكل خطرًا ما؟ هـل كوننا حفيدي ابن السـباع والحـداد الأعظم يجعلنا بشـكل ما أفضل، أو أكثر اسـتحقاقًا لحكـم أرض الجنة مثلاً؟ هل يخشانا؟

يجـري بي "ضرغـام" في الفلاة الواسـعة وأنا أعلو ظهـره. العرق يغمـر رأسي تحت الخوذة الذهبية التي منحـوني إياها. جوارنا يركض أحد الوحوش المقدسة، ذلك الذي هو خليط من الأسود والتماسيح. كانت الأرض تتغير سريعًا، وأرى أبنية قد شُيدت وزروع قد أينعت. أرى بشرًا، أحفادًا وغرباء.

يصعـد بي "ضرغام" درجـات مبنى أعرفـه جيدًا. وسـط القاعة الفسـيحة المزدانة بالرسـوم، كان صندوق الدنيا تحفـة الحمائم الملونة، تشـدو بأغـاني زوجتي "طيف". أشـعة الشـمس من النوافـذ العالية تتراقص جراء خفق الأجنحة والقلوب.

أخلـع خوذتي وأركـع جوار الصنـدوق، تدخل "طيـف"، بهية، شجية، اشتعل رأسها شيبًا. ألتقم كفيها في كفي المجعدتين. أقبلهما.

"داغر" يعلق شماسات سـباعية الألوان على ظهر "طيف"، يقول لها إنها ترمز لسـبعين حربًا قـد خلت قبل قدومنا. هـذا عهد جديد، قام على أكتاف الرجال وظهور النسـاء، ويجب أن تظل تلك الذكرى متوارثة لكل بشري قُدر له السكنى في أرض الجنة.

كانـت تلك هي أطـول رؤيا مـرت بي وأكثرها وضوحًـا، المبنى الذي رأيته هو ضريح الشـاهين، لم يكن تعلوه بعد قبة لعينة خضراء،

ولا تكسو جدرانه أعين الشاهين المحملقة اللائمة.

غبت عن الموجودات لحظات لم أدر عدّتها إلا حين وجدت "آنوب" يقترب مني عدوًا. ينادي عليّ، أعدو، تتسع المسافة بيننا بسبب خفة وزني.

يجب أن أكون أكثر حرصًا في المرات المقبلة، إن كان هناك مرات مقبلة.

أعدو، لا أعرف كيف رآني، ربما يمتلك هو الآخر نظرًا أفضل مما ظننت، فأنا لا أعرف الكثير عن صفات ابن آوى هذا.

أنظر حولي لأجد أن لا مفر لي دون أن أنكشف أو يراني أحدهم، أهدئ من سرعتي ريثما أفكر وأوازن بين الحلول، لا أعرف ماذا سيفعل "آنوب" بي لو أمسكني، لن يقتلني غالبًا، فما زلت ذا قيمة لديه. هل سيحبسني مرة أخرى ويستنطقني، يعتصرني حتى يفرغ مني؟ لو وجدني أي شخص آخر سيسلمني لـ"داغر" وهنا حتما سينتهي أمري.

يزيد "آنوب" من سرعته، يحني جسده فيصير أقرب إلى حيوان منه إلى بشري. أتوقف لاهثًا فلا جدوى من الفرار منه. يهجم عليّ "آنوب" ويشل حركتي. يقيد ذراعي خلف ظهري وهو يلهث من بين أنيابه. يدير وجهي إليه، تتعثر الكلمات على لسانه. يسألني لم هربنا، ثم يقطع سؤاله ويطلب مني ألا أخاف منه، فـ"ضرغام" من وجب منه الخوف. "ضرغام" سبع، والسباع تكره البشر، ولهم في ذلك كل الحق. "آنوب" متأكد من أن "ضرغام" هو من هربنا، وهو من فرقني و"بكرية".

يحرر "آنوب" ذراعي من بين براثن كفيه، يعدني عنه، يطلب مني أن أفكر، أيهم أقرب إليّ، البشر أم السباع؟ أخبره أن "ضرغام" يختلف كثيرًا عن باقي بني جنسـه، أنا رأيته في رؤيـاي ورأيت كم كان يحب جدي، رأيت الفخر في عينيه، رأيت شوقه إلى البشر، أبناء السباع.

يضحـك "آنوب"، يخبرني كم أنا غرير سـاذج. يقـول إنه ورفاقه سيهربون خلال أيام، سـيجربون حظهـم في عبور الفـلاة من دون السباع. لا يعـرف إن كان ثمة احتمال أن ينجحـوا، لكنهم ما عاد في استطاعتهم تحمل المزيد من الذل والعبودية.

يهـم "آنـوب" بالرحيل بعد أن قيـدني بحرية الاختيار. أسـتوقفه سـائلاً إن كان هنـاك طريقة أسـتطيع أن أسـاعدهم بها عـلى العودة لأرض الجنـة، فيتوقف. يجيبني دون اكتراث، كأنه يعلم أنني لن أقبل بمسـاعدته. يخبرني أنني أسـتطيع أن أكمل البحث عن الصندوق مع "ضرغام"، بينما أسـمح لـ"آنـوب" ومن معه أن يكونـوا مختبئين على مقربـة منا، وحين أجـده ويفتحه "ضرغام"، يهجـم "آنوب" ورفاقه ويقتلـون الأخير. ويكـون الصندوق بـما فيه من أسرار لنـا وحدنا. نستطيع أن نعرف كل ما حدث ونستقرئ كل ما عساه أن يحدث.

أتساءل عن ضمان سلامتي وأختي لو شاركته خطته، فيخبرني أنه لا ضمان لديه سـوى كلمتـه. يطلب مني أن أزن كلامـه وألقاه حيثما وجدته اليوم في الوقت نفسه في أي يوم أريد قبل رحيلهم.

تبًّـا للجميـع، تبًّا للجميـع! يتقاذفونـي بينهم، يتنازعـون رفاتي كالضباع. آه يا "بكرية"، أين أنتِ؟

* * *

في الليل، يختار "ضرغام" من الأسلحة المكومة في عرينه سيفين، يلقي لي بأصغرهم ويمسك الآخر. يبدأ أول دروسي دون أي مقدمات. يدور حولي ويعدل وقفتي ووضع معصمي. كان متجهمًا، مقطب الحاجبين. يختلط صوته بزئير بري غريب. أسأله عما به، فيتجاوز سؤالي لأول ضربة من سيفه لسيفي. يحدثني عن تعبيرات وجهي في أثناء القتال، عن حركات جسد خصمي التي ربما تفضح تحركه التالي. كنت متشوقًا إلى تعلم الهجمات، بينما كان مصرًّا على أن الدفاع أهم بكثير.

تعبت بعد برهة، آلمتني ذراعاي بشدة، فالسيف ثقيل وضربات "ضرغام" قوية مدروسة. جلس يقرأ ما كتبته، فعاودت سؤاله عن سر تجهمه. أخبرني أن الواحة في حالة تأهب، الكل يبحث عني، و"آنوب" يعتزم شيئًا ما. لقد عرف "ضرغام" أنه يخفي أسلحة ومؤنًا. أسأله عن أحوال "بكرية"، فيجيب بأنها بخير. لم يستطع الوصول إليها بعد لكنه سيفعل قريبًا.

نذهب معًا للماء، أغوص بحثًا عن الصندوق المرة تلو الأخرى، وبين كل محاولة وأخرى أحاول أن أتبين نية "ضرغام"، أطلب منه أن يحكي لي عن علاقته بجدي "يزن". يقطع قراءته، يبتسم في مرارة، ثم ينطلق بحكايات تملأ خواء الليل حتى مطلع الفجر.

* * *

يقول "ضرغام":

لم يشعر سواي أن "يزن" أخيه. كانت العلاقة بين السباع والبشر

أقرب للصداقة الحذرة. احترام وتعاون وذكرى كريهة عن خيانتهم لنا. أنا من خلعت عني الحذر ووثقت في "يزن".

أذكر يوم تسللنا إلى حيث صندوق الدنيا، ألصق أذنه عليه وراح يسمع كل ما دار على لسان أو قلب مخلوق منذ بدأت حياة البشر على هذه الأرض، لكن الأصوات مختلطة لا يستطيع أحد فك تشابكها بمجرد التنصت. سألته إن كان يريد فتح الصندوق، فتوهجت عيناه بذلك الفضول البشري المحبب. كان محرمًا علينا فتح الصندوق إلا في حالات نادرة، وبموافقة "داغر" شخصيًا. لا أعرف تلك الحالات، لكنه دائمًا ما كان يلمح أن فتح الصندوق مرتبط بنهاية أرض الجنة. لم يخبرنا إن كان في فتحه هلاك الأرض، أم أن فتحه يلي هلاكها.

لم نفتح الصندوق يومها، أمسك "يزن" كفي في آخر لحظة. كان نبيلاً، لم يُرد أن يعصى الخالق الواحد، أو يخون ثقة السباع به. ظل ذلك اليوم معلقًا بيننا، نتمنى لو جرؤنا وروينا عطشنا. لكن لم يكن منا ما يستطع أن يجازف بهلاك أرض الجنة أبدًا.

كنتُ أول من تعلم الكتابة، فقد كانت علومنا غير مكتوبة من قبل "يزن". وكنتُ أنا أول من علم الغرباء في أرض الجنة لغتها المكتوبة الجديدة. كنتُ أنا من صنعتُ خوذة الصقر له، أردت له الخلود لكنه أبى.

مات "يزن" بعيدًا عني.

في ليلة شتوية باردة، كنا جُلوسًا حول النار بينما أغلب البشر نائمين. سمعنا صوت الحمام قبل أن نراهم ينبثقون من خلف الأفق. اقتادونا حتى وصلنا لضفة النهر، وكان "يزن" هناك مذبوحًا، مقطوع

اللسان، تطفو جثته على سطح الماء محفوفًا بخرير منغم يمزق القلوب، لم تدع المستورة جسده يغوص في عمق الماء فلا نجده أبدًا.

قُتل "يزن" على يد من طردوه. لن يقبل الظلام أبدًا بزوغ شمس في أرض أخرى. فهو يعلم أنها ستطوله يومًا لا محالة. أنقذنا زوجته وأولاده بأعجوبة قبل أن يقتلوهم. طلبت من "داغر" أن أنتقم لأخي، فلم يسمح لي متعللاً بانتهاء عصر الحروب مع البشر.

استحوذت عليّ فكرة مهاجمة قاتلي "يزن"، عرفت كل شيء عنهم، عن معاهداتهم مع الجن. عن عاداتهم وخبثهم. عرفت أنهم يكرهوننا كما يكره الدنس طُهر الماء.

دخلت وحدي أرضهم، مزقتهم أحياء وفي وضح النهار. أقسم إن صوتهم قد وصل للأراضي المجاورة وعَبَر البحار. لكن النيران في قلبي لم تنطفئ. أسير عبر حواريهم التي تفيض بأنهار دمائهم وعويل ذويهم. أتجرع الدماء وأزأر، فتموج الدماء كالبحار الهائجة من صوتي.

وعلى حدود أرض الجنة، علقت رؤوسهم مضفورة الشعور على أسنة الرماح، وجلست أشاهدها بكرة وأصيلا حتى اندثرت، ولم يندثر حزني.

ثار "داغر" لفعلتي، لامني ولعنني وأبعدني عن مجاورته. كان "داغر" جبانًا، ولا يزال كذلك. يزعم أنه بهذا يحافظ على ما تبقى من السباع.

عبر القرون الخالية، ظننتُ أن الجرح قد اندمل، وأن صيتنا في الدفاع عن أرض الجنة قد بلغ المشارق والمغارب، ولن يجرؤ أحد

ـل الاقتراب منا. صارت أرض الجنة مفتوحة أكثر للغرباء والتجار وكل من أحب أرضنا ورغب في البقاء فيها. حكم أرض الجنة البشر، وظلوا على عهدهم مع السباع لحماية وطنهم المشترك. رغم معارضة السباع لانفتاح أرض الجنة أمام الغرباء، إلا أننا لم يكن لنا سلطان إلا ـل واحتنا. باقي الأرض ملك للبشر، هم من عمروها وشيدوها بدمائهم وعرقهم. بعض من أحفاد قاتلي "يزن" قد هاجروا إلى أرض الجنة لكنهم أبدًا لن يتركوا تحالفهم مع الجن، ذلك التحالف الذي وصل إلى درجة العبادة. كنت أمقتهم، أمقت شعورهم الطويلة المضفورة وملابسهم الخضراء وعمائمهم الضخمة.

حتى جاء من نسلهم اللعين الملعون أبدًا، الشاهين.

* * *

كيف لا أصدق كل هذه المحبة والغضب والاشتياق في ملامحه. بالفعل السباع تكره البشر، لكن "ضرغام" يكره قتلة جدي ولا أحد سواهم. "ضرغام" يذكر كل ما فعله البشر لهم وما فعلوه للبشر. "ضرغام" يحبني كما أحب جدي.

لو كانت "بكرية" هنا لوجدت طريقة كي يخبرها بكيفية فتح الصندوق، لو كان "واكد" هنا لما وثق في أحد سوى عقله. لكنني لست "بكرية" ولا "واكد"، ولم يعش أحدهم ما عشته.

لأيام، أقضي النهار في الكتابة، وأول الليل في التدرب على القتال مع "ضرغام"، وآخره في البحث عن الصندوق دون جدوى. خَفُت في عقلي صدى كلمات "آنوب"، وانغمستُ في حكايا "ضرغام".

كانت القصة تتكشف أمامي، وقد عرفت أن قوم الشاهين لن ينسوا أبدًا ما فعلته السباع فيهم، ولا الخطر الذي يمثله علم البشر والسباع الممتزج في أصول أرض الجنة.

لقد صبروا مئات السنين حتى حانت الفرصة، وحكم الشاهين والجن أرض الجنة وأحالوها كوم الحنت.

تُغلق الدائرة، وأرى كيف تتكرر الأحداث المرة تلو الأخرى، تطالب بكسر الحلقة وفك اللعنة. كل من بحث عن الحقيقة قُتل. أبي وأجدادي من قبله. كل شيء يتكرر كحكاية سخيفة ملفقة يعيدها الحكواتي كل مولد في صندوق الدنيا. فقط يزيد تفصيلة هنا، وسيرة مدفوعة الأجر هناك. لن يلاحظ أحد التكرار أبدًا، فمن المولد للمولد يكبُر الصغار ويأتي أطفال آخرون، بأعين ذاهلة عطشى للحكايات، سيصدقون، سينخدعون، ولن يجرؤ أحد على إفساد متعتهم الزائفة أبدًا.

فرصتي هي الأخيرة، لو فشلت ستسود الظلال السوداء المخيفة لأصل تركناه يفنى في السنين. فهل أفشل مرة أخرى؟

* * *

تمر الأيام، وتقل زيارات "ضرغام" لي، يقول إن الجميع يراقبون بعضهم بعضًا، الكل يخشى لعنة البشر، الكل يبحث عني.

أمضي وقتي في استرجاع ما علمه لي "ضرغام" من حركات قتالية، حتى تنهك ذراعاي، فأرتمي أرضًا، أقرأ اللفافات التي يحتفظ بها "ضرغام" في عرينه.

كان أغلبها صلوات للإله الواحد، تشبه اللفافات التي كان يتخلص منها "باقي" لأنها بلا قيمة. هكذا اندثر الدين القديم وحلت محله عبادة الولي الشاهين.

وجدت لفافة تتحدث عن الميزان، ذلك الطقس السحري الذي يزنون به قلوب الرجال ليعرفوا الصالح من الطالح. وأخرى عن الوحوش المقدسة، أوصافها، قدراتها. يبدو أنها كانت أكثر عددًا في الماضي عما رأيناه يوم مواجهة الفرنج في الفلاة. حتى إنني لم أر أغلب تلك الأنواع المرسومة في اللفافات.

ثم وجدت مجموعة أخرى شديدة القدم، أيقظ اختفاؤها تحت التراب حس النباش في داخلي. تكاد تهترئ بين أصابعي عند فتحها، لكن فضولي كان أشد. كان النقش المكتوب فيها مختلفًا شكلاً عن اللفافات الأخرى. الحروف أصغر حجمًا وأكثر جمالاً. كانت تحوي رسومًا لأبنية وأعمدة مزينة بالورود. وعلى أطراف اللفافة كانت ملحوظات بخط دقيق جدًا، حتى مع بصري الأكثر حدة، كانت قراءتها عسيرة للغاية.

كانت كلمات سريعة عن صندوق الدنيا، خصائصه، كيفية فتحه. راح قلبي يدق كالطبل حين قرأت عن الهول الذي رآه كاتب اللفافة حين فتح الصندوق، كان يستخدم صيغة الجمع، "فتحنا، رأينا". لم يكتب تفصيلاً ما رآه، لكن كاتب السطور يقول إنه قد هرب بصندوق الدنيا ودفنه بعيدًا عن الجميع، في أغوار الأرض. يقول إنه اختبأ فترة في واحة السباع حتى هدأت الأمور. يقول في آخر سطور له إنه عازم على العودة إلى وطنه واستعادة أرواح المعذبين فيه.

أغلقت اللفافة ودسستها في مكانها وقلبي يتقافز بين أضلعي. من

كاتب اللفافة وكيف فتح الصندوق دون مساعدة السباع؟

تراه جدي الأكبر، ابن السباع؟ لماذا أخفى عني "ضرغام" أنهم قد فتحوا الصندوق؟ أضرب الشجرة بقبضتي، ترى ما الذي كان في الصندوق وأعاد جدي الأكبر إلى وطنه؟ هل قتلوه حين عاد إليهم؟ أم أن "ضرغام" يكذب عليّ في كل ما حكاه؟

* * *

أنتظر حتى الصباح، وأتسلل مرة أخرى، هذه المرة أدس السيف في ملابسي واللفافة التي قلبت موازين كل شيء. الحقيقة أنني أكره احتياجي إلى حليف يرشدني، ها أنا مضطر إلى الاختيار بين "آنوب" و"ضرغام" وقد ضاعت "بكرية" بين أكاذيبهم؟

أتسلل حتى أصل إلى مجلس "آنوب" على الضفة، شاردًا يحدق إلى السماء ويتمتم بكلمات لا أسمعها. أقف مكاني مختبئًا، أنتظر أن يجدني ويتبعني إلى مكان أكثر أمنًا.

يدقق "آنوب" في السماء ويضيق عينيه. أنظر لأجد حمامة ملونة على ارتفاع كبير. لا يبدو أن "آنوب" قد تبين كنهها. لكنني موقن مما رأيت. شيء ما يحدث هنا، أو في كوم الحنت. شيء خطير يهدم الحاجز بين العالمين ولا يعرف أحد أخير هو أم شر.

آثرت أن أحتفظ بما رأيت لنفسي مؤقتًا، فلو كانت هذه حمامة أُمًّا، لاستطاعت أن تجد الصندوق عند المغرب. ألقيت حجرًا تجاه "آنوب" فنظر إليّ وأشار أن أختبئ، ثم سار نحوي ببطء كأنه يتمشى دون هدف.

ما إن وصل إليّ حتى بدا التساؤل في عينيه السوداوين. أخبرته أنني أستطيع أن أجد الصندوق اليوم لو عاد لي "ضرغام". يسألني لماذا لا يعود؟ فأجيبه بأن "ضرغام" يتعلل بالتوتر في الواحة وصعوبة اختفائه عن عيني "داغر" لفترات طويلة. يضحك "آنوب". يخبرني أنه رأى "بكرية" مع "ضرغام" وهو يخبئها في مكان ما، ولا بد أنه وجد وسيلة للتواصل معها واستغلالها للبحث عن الصندوق في الوقت الذي أكون أنا فيه مختبئًا. لعله أخبرها أنني مع "داغر" وعليها أن تنقذني بإيجاد الصندوق. لقد عرف "ضرغام" أن قوتي و"بكرية" في مصاحبتنا أحدنا للآخر، لذا كان لا بد له أن يفرقنا كي يشتت أفكارنا.

ألهذا السبب طلب مني أن أعلمه لغتنا؟! هل اكتشف هو الآخر أن "بكرية" أكثر أهمية مني وأكثر صلاحًا للدور المطلوب؟! ينسحب البساط من تحت قدمي بلا جريرة مني، وللمرة الألف، أعود أنا الطفل الضعيف المُستغَل، التائه بلا غد ولا أمس.

يسألني "آنوب" كيف أعرف أنني سأجد الصندوق الليلة، فأصمت. هل أخبره بشأن الحمامة؟ الاحتمالات كالآتي، أن تجد الحمامة الصندوق في مكان أستطيع رؤيته، لكن يغيب "ضرغام". لذا سيتحتم عليّ أن أؤجل كشف مكان الصندوق حتى يعود كي يفتحه لنا، ومن ثم يهاجمه "آنوب" ونستولي على الصندوق مفتوحًا.

الاحتمال الثاني، هو أن تحط الحمامة وقت بحث "بكرية". لو كان "ضرغام" معها سيأخذ الصندوق ويتخلص منها.

يتوقف تفكيري عند الاحتمال الثاني، يجب أن أجد "بكرية" أو

أجـد أنا الصندوق. لا يوجد حل آخر. لو لاحظ أحد وجود الحمامة، فسنفتح باب الاحتمالات المجهولة على مصراعيه.

لا يـزال "آنوب" منتظرًا إجابة سـؤاله، فأخـبره أنني فقط متأكد، وعليه أن يسـاعدني في إيجاد "بكرية"، أو على الأقل إرسال "ضرغام" إليّ مبكرًا اليوم. يعلن "آنوب" أن موعد رحيله ومن معه قُبيل الفجر، لقـد أعدوا كل شيء ومن العسـير أن ينتظروا أكثر. السـباع بدأت في الارتياب فيهم وصار الوضع مقلقًا في الواحة.

لا شيء أمامـي إلا محاولة إيجاد حل الليلـة، لو لم أفعل فهو حر في تنفيذ خطته كما يشاء.

أنـصرف إلى العرين مرة أخرى، قُبيل الغروب، أعتلي أطول نخلة في محيطـي وأحـاول البحـث عن الحمامـة في السـماء الوردية. يمضي الوقـت كئيبًا ثقيلاً، حتى أراها في الأفـق، تدور حول مكان بعينه. لا أعرف إن كنت أستطيع الوصول إليه متسللاً والعثور على الصندوق أو "بكرية"، إن كان هذا موعد بحثها.

تُدمـى يداي في نزولي السريع، أعـدو إلى حيث تطوف الحمامة. لو صـح أن "ضرغـام" يخفي "بكرية"، فقد كانـت طيلة الوقت على بعد مرمى حجر مني. لا بد أن لـ"ضرغام" هذا عرينًا آخر في المكان نفسه.

أنزل إلى الماء وأغوص، أسـبح المسـافة القليلـة التي تفصلني عن موضع الحمامة.

الطمـي يمتد أمامي غامضًا مظلمًا مشربًـا بحمرة الغروب. ينتهي مخزون أنفاسي في صدري فأطفو شاهقًا. أنظر حولي فلا ألمح أحدًا.

كانـت الحمامة تدور فوقي في دائرة ضيقة، تقترب من سـطح الماء

وابتعد. أتساءل، هل ثمة من نجا من الحمامات بعد معركة الجن والفرنج؟

يتوقف الشهيق في منتصفه حين ألمح حمامتين أخريين تغنيان لي. إحداهما حمامة خالتي "ود"!

شوفوا يا ناس لما الأصيل يلعب على المكشوف
أما الخسيس الردي يلعب بيننا ويطوف
أنا رحت لولي.. عالم.. في البلد معروف
يقرا الكتاب ساعة.. وساعة ينقشه بحروف
قال لي اشرب المر ياما.. وياما في الزمن هتشوف

أغوص، أمزق الطمي نبشًا، لا أرتاح كثيرًا لعودة الحمامات إلى واحة السباع، هناك أمر جلل يحدث في كوم الحنت.

أطفو، أشهق، تطوف الحمامات، أسمع خطوات من بعيد تقترب، الأحمر في السماء يتشرب زرقة الليل.

أمانة يا نجم قبل الغروب أوصل لمحبوبي
وأشكي له على اللي جرى بي
أنا من بعد فراقهم زاد الألم بي
راحوا وجابوا المداوي لحد بابي
كشف على الجرح ولم فاد العلاج بي

أغوص، تنخلع أظفاري، تنفتح جروح كفي فيسيل دمي في الماء، جسم صلب يتبدى أمامي، أنبش، أنبش، أزفر في الماء آخر أنفاسي.

الصندوق بين يدي مغروس في الطمي العنيد. لن أطفو دونه أبدًا.

يتوتر الماء، أحدهم ينزل فيه فأتشبث أكثر بالصندوق. كف أعرفها جيـدًا، ما زال جلدها مجعدًا من حروق أوهام الفلاة. الجدائل الفاحمة تطفو حولنا. عيناها المتسعتان تنقذان روحي من الغرق. "بكرية".

***

أنا الجسد وأنت روحي.. لا غنى عنك

تجذبني "بكرية" من الماء وأنا متمسك بالصندوق، كان "ضرغام" هناك، لا أستطيع قراءة ذلك التعبير على وجهه. يتقدم من الصندوق، يتشممه، أقوم مبعدًا إياه عن طائلته.

حمامة "بكرية" تحط على كتفها بينما لا تكف الثلاث حمامات الأخريات عن الغناء حول الصندوق. لا أصدق أن حمامة "بكرية" قد نجت. لم تعد ملونة كما كانت، ولم تعد تغني. الريش يغيب عن أكثر جسدها، ومواضع جروح مندملة تزين بدنها الضئيل.

يسألني "ضرغام" إن كنت أريد فتح الصندوق، فأنظر إلى "بكرية" التي فهمت خداع "ضرغام" لها ولي. لكن ماذا يمكننا فعله أمام سبع مهيب كهذا، لو أراد لمزقنا قبل أن يرتد إلينا طرفنا.

تهدد "بكرية" أنها ستلقي الصندوق في الماء مرة أخرى، فلا حاجة لنا به وقد بدا أن السحر ينفك، وأن باستطاعتنا أن نعود إلى كوم الحنت دون مساعدة من أحد.

تنطلق منـه ضحكة تنتهي بزئير مخيف. يقـترب، فتقذف "بكرية" الصنـدوق مـرة أخرى في الماء. في الهـواء، يتلقاه "آنـوب" بين فكيه. من أعلى النخيل يهبط سـبعة آخرون من ذوي الأقنعة، بعضهم يحمل سيوفًا وبعضهم رماحًا.

تمسـك "بكرية" كفي وتنظر إليّ متسـائلة، نتراجع معًا ببطء إلى ما نظنـه موضعًا آمنًا، يـزأر "ضرغام"، بينما يتحلـق حوله ذوو الأقنعة، يلمحنا "آنوب"، فيأمر أحدهم أن يمنعنا من الهرب.

تجمـد الوضـع للحظـات، "ضرغـام" يرفـض فتـح الصندوق، بينـما يهدده "آنـوب" ومن معه بالقتل. يخبرهـم "ضرغام" أن قتله لن يفيدهم في شيء.

يسـتدير "آنـوب" ويرمقنا في كراهيـة. لولا قرار "بكريـة" بإلقاء الصندوق في الماء لما سارعوا بكشف وجودهم قبل أن يفتح "ضرغام" الصندوق.

تنهمـر الأمطار فوق رؤوسـنا فجأة، بينما يعلو المـاء ويفيض على الضفاف. يتراجع الجميع، يجذبنا أحد ذوي الأقنعة كي نتراجع معهم بعيـدًا. يعدو "ضرغـام" هاربًا بينما أعين ذوي الأقنعـة مثبتة على الماء الذي يتجه نحوي و"بكرية".

يرفعنـا المـاء، أنـا وأختـي و"ضرغـام" وذوي الأقنعـة، تتعـالى الصرخـات والزئير. نبصر في الأفق البعيـد، في آخر ضوء من النهار، عددًا لا يحصى من جنود الفرنج، يرتج الهواء بصوت الطبول وضرب النعال على الأرض. لقد انكسر الحصار حول الفلاة أخيرًا!

* * *

وقت الشوفة.. نظرتك جاي من قِبلي

تحت العرش، يقف الجمع مشرئبي الرؤوس نحو القائد. ينزل إلينا ببطء ثم يقف أمامي و"بكرية" بيننا وبينه صندوق الدنيا. تنهمر الأمطار فوقنا فتغسل أرواحنا، ترينا عدوًا حقيقيًا نوجه إليه قسوتنا مع أنفسنا ونجتمع من أجله أخيرًا.

تحط الحمامات المتبقيات حول العرش، صوت خرير الماء المنغم يعلو صوت أنفاسنا المتهدجة الحيرى.

يتقدم "ضرغام" الصفوف، تنزاح من طريقه السباع الأخرى. يقف متحديًا أمام "داغر". يزأر مرجعًا أذنيه إلى الخلف. يثبت "داغر" عينيه الكحيلتين في عيني "ضرغام". يتراجع ذوو رؤوس الحيوانات، يبعدني "آنوب" قليلاً وأختي عن محيط الأسدين الغاضبين.

يعلن "ضرغام" أنه السبب في عودة الصندوق بعد أن ألقاه "داغر" الجبان في الماء، وفي تلك اللحظات العصيبة، تحتاج الواحة إلى زعيم شجاع. يُذكّر السباع بأيام "يزن"، من احتضنه وسمح له بالبناء

والتوسع، من ثأر له وجعل أنهار الدماء ورؤوس الأعداء تحكي للعالم عن بطش السباع، عن قوة سبع واحد أتى بمفرده على مئات الرجال.

تتبادل السباع النظرات، بينما يهتف "آنوب" في ذوي الرؤوس أن يستعدوا للقتال، فأرض الجنة تستغيث بينما السباع العظيمة تتصارع صراع الوحوش في البرية على منصب الذكر المسيطر.

للمرة الأولى منذ اجتماعنا ينطق "داغر"، يسأل الجمع إن كانوا يريدون معرفة كل شيء، إن كان في استطاعتهم احتمال ثقل المعرفة؟ يظهر على الفور الحماس في الأعين، يهز "داغر" رأسه أسفًا، يهمس بأن الفضول هو خطيئة البشر الأولى، فأخبره أن الفضول هو فضيلة البشر الوحيدة، المعرفة، نعم أيها السبع، نحن مستعدون لتلقي الحقيقة وليكن ما يكون.

أجلس و"ضرغام" العزيز في عرينه، نكتب، نراقب مواضع النجوم. يسألني "ضرغام" لم لا أريد الخلود معهم؟ لم أُصر على أن أتركه يحيا ما قدر له من عمر وحيدًا؟

أنظر إلى خوذة الصقر، أملس على سطحها الصقيل اللامع، أبتسم لصديقي وأخبره أنني أصر على الموت، الموت هو الخلود، أن تتخلص من أعبائك، من حزنك على من رحلوا ومن سيرحلون. أن تنهي مهمتك وتريح رأسك للأبد وتترك أفعالك لتحيا بدلاً منك.

أشير إلى معبد الإله الواحد أمامنا، إلى كل ما دونته وكل ما زرعته في الأرض والنفوس. هذه هي الأبدية يا صديقي.

يسألني "ضرغام"، هل أظن أن أحدًا سيذكرني بعد ألف عام من

رحيـلي؟ فأجيبه بأن أثري سـيخلد، فلا تهم الأسـماء حينها. ينظر إليّ مشككًا، ساخرًا. يخبرني أنه سيذكرني ما دام حيًّا على الأقل.

لا يـزال "داغر" يحـدق إلى وجهي، فقد اعـترف "آنوب" بما فعله معـي، ومـا فعله "ضرغـام" بنا، لكـن "داغر" تعجـب من شرودي المفاجـئ، فأخبرته بما شـاهدته في رؤيـاي السريعة بينـما عينا "داغر" تتسعان غضبًا.

أطلب من "داغر" أن يفتح الصندوق، فيثور "ضرغام"، فما يحويه الصنـدوق لن يكون صالحًا للعـرض على الملأ. يصيـح "آنوب" فيه بـأن هذا الملأ هو من تبقى من أبنـاء أرض الجنة. وإن كان ما رأيته أنا بعيني الصقر دقيقًا، فإن جيش الفرنج قد توقف عن التقدم لسبب ما، يبدو أنه قد فضل الزحـف إلينا صباحًا، وهذه فرصة ممتازة كي نبادر نحن بالهجوم. فالسـباع صائـدون ليليون بطبيعتهـم، وذوو رؤوس الحيوانـات يتمتع أغلبهم بحاسـة الرؤيـة الليلية التي اكتسـبوها من نحولهم.

أرى الاستحسـان في عينـي "داغـر"، بينما يبحـث "ضرغام" عن ثغرة يرجح بها كفته عن كفة "آنوب" أمام الجمع.

يقـف "ضرغام" أمام السـباع ويهتف فيهـم أن أرض الجنة كانت وستظل أرض السـباع، وكل واحد منهم سـيكون قادرًا على اقتلاع آلاف الرؤوس وحده. يدعوهم لتكوين جيش فرعي تحت قيادته هو بعيـدًا عن خنوع "داغر" وجبنه. السـبع ذو الأذن المقطوعة يخرج من صفوف السـباع وينضـم إلى "آنوب". يقول إننـا لا يجب أن نتجاهل

اختيار الخالق للبشر رغم نقائصهم. فكما أن منهم الشاهين، فقد كان منهم "يزن"، وأحفاده الماثلون أمامهم.

أرى جليًّا الصراع في عقل "داغر"، ذلك التدافع بين حكمة القائد وتعقله، وبين قلبه الكاره للبشر وكل ما يمت لهم بصلة. تطلب مني "بكرية" أن أنقل كلامها لهم. تقول إنها رأت أبشع ما في البشر، أسوأ مما خبروه هم في الماضي. رأت البطل حامل مشعل الجهل والحمق، رأت من يرتدي نعلي النفاق تاجًا على رأسه. رأت من يحرق داره ليُخرج منها ذبابة. رأت أبناء الحرام يرثون الأرض والشرف. لكنها رأت أيضًا الشجاعة المنثورة في تراب الجبن، تستغيث بمنتشل لها. رأت واحدًا من أحفاد أرض الجنة، ترك العالم الممتد من حوله، وقدم حياته ثمنًا لاستعادة أرض لفظ أهلها أجداده. رأت الفطرة التي لم تلوث تغوص رغمًا عنها في وسخ الخرافات. ليس البشر سواء كما أن السباع نفسها ليست سواء. تطالب الجمع أن يختار بعد أن يستمع لعقله وقلبه ويتحمل نتيجة اختياره يوم المثول أمام الخالق.

تحط حمامة "بكرية" على كتفها وهي تحدق إليها وتمسح رأسها الصغير في خدها. تسري القشعريرة في جسدي وأنا أترجم آخر ما قالته "بكرية" الجميلة العظيمة. لا أستطيع أن أرفع عيني عن وجهها الواثق.

بيد راجفة أرتدي قناع الصقر فأرى بشكل أفضل، أكتب بخط صغير ما رأيته في الصندوق في تلك اللحظات الخاطفة التي انفتح فيها. أدس اللفافة تحت التراب. أمسك وجه زوجتي بين كفي. "طيف" الجميلة العظيمة، لا أستطيع أن أرفع عيني عن وجهها الواثق.

ترفع الخوذة عن رأسي وتحدق إلى وجهي، فقد عرفت أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي تراه فيها. تقبلني، تبكي، تتحامل على نفسها وتناولني الصندوق وتخرج من العرين مسرعة تغالب سيل دموعها.

يتجه "داغر" ببطء نحو الصندوق، يبدو أنه قد اتخذ قرار فتحه، فالخطر الزاحف نحونا سيطول السباع والبشر على حد سواء. قبل وصول "داغر" إلى الصندوق، يهجم "ضرغام" عليه ويتدحرجا معًا، يتشابك فكاهما ومخلباهما. يتعالى الزئير وتسيل الدماء. تمسك "بكرية" كفي وتضغطها. لا أعرف إن كان علينا فعل شيء ما. تتحلق السباع الأخرى حولهما فيزأر "داغر" محذرًا إياهم من الاقتراب. هذه معركته ولن يَقتل سبعًا آخر دون داع. يعلن "داغر" توقف القتال وليأخذ "ضرغام" ما يريد. يقف "ضرغام" على قائمتيه الخلفيتين زائرًا في انتصار غير مستحق. بينما يلعق "داغر" جراحه وكرامته النازفة منزويًا في ركن. يهرع رأس القط والسبع ذو الأذن المقطوعة نحوه فيزأر مبعدًا إياهما عنه.

يحمل "ضرغام" الصندوق ويسأل السباع من منهم سينضم إلى قيادته، فتلتف حوله الأغلبية. يرحل معهم مبتعدين. يطالبه "أنوب" بفتح الصندوق أمامهم، فيذكره "ضرغام" بخطته القديمة، فتح الصندوق وقتله، فكيف له أن يطالبه بالاشتراك معه في معركة واحدة؟

أهتف بهم أن يتعقلوا، فيطلب مني "ضرغام" السكوت، فأنا وآبائي من خذل "يزن" ورسالته. والسباع قادرة على الانتصار وحدها بلا شك.

يقـوم "داغـر" من ركنه القـصي، يتلقى لوم اللائمين على تسليم القيـادة لمجهول النية، فما كان عليه الحفاظ على حياة من لا يقيم لحياة الآخرين ومصيرهم وزنًا.

في لحظـات، ينقـض ذوو رؤوس الحيوانات مـن كل صوب على "ضرغـام" شـاهرين سـيوفهم ورماحهـم. يعتلون جذوع الأشـجار ويتدلـون من الأغصان ويزحفـون بين القوائـم. كان هجومًا مربكًا رأيت فيه مهارات لم أشهدها في تدريباتهم التي تلصصت عليها. تلك التدريبـات كان ينقصهـا الغضب، تلك النار التي تسـتعر في أفئدتهم فتحيلهم مخلوقات أسطورية رهيبة.

كانت شجاعة باهرة أن يواجهوا عددًا يفوقهم من السباع، لكنني أرى رماحًـا تنغـرس في الظهور، ومخالـب تبقر البطـون. و"بكرية" تبكي. لو كان لأرض الجنة تجسد لكان هي.

في قفزة طويلة رشـيقة، كان "داغر" وسـطهم، يتلقى الخمشـات والطعنات بقصد ودون قصد. كل ما كان يطالب به هو وقف القتال، فلسنا أعداء ولن نكون يومًا.

أرى العرش العالي أمامي، لمحات كثيفة من حيوات سابقة، رأسي يكاد ينفجر.

كفي المجعدة تفتح الغطاء عن صندوق الدنيا
ضربة على مؤخرة رأسي
سقوط في ماء عكر بحمرة دمي
خوذتي تنغرس جواري في الطمي

نظرات نارية حانقة من عشيرتي
يقذفونني بالأحجار ويفرشون طريقي بالأشواك
يلعنونني، أنا السـاحر الشاب الذي أشعل في الجهل نيران المعرفة،
يربطون قدمي في صخرة عملاقة ويلقونني في الماء، أختنق...

عشرات الرؤى لعشرات الأجداد، والمصير واحد.

أصعد درجات العرش، أنكفئ، تمتد يد "بكرية" تسـندني، أهمس إليهـا أن تعينني على الارتقاء. دمـاء تنفجر من كائن ما فتغرق جانب وجهي الأيمن.

"ضرغام" يخبرني أني تقدمت في العمر، وأرفض الخلود عن طريق عـوذتي السـحرية، فما الضـير في فتـح الصنـدوق الآن؟ مخالبه تلتف حول الصندوق، يضغط، عيناه الصفراوان تتقدان. يئن، يزأر، تنخلع أظفاره فتسري الدماء في المتاهة المحفورة على الصندوق.

تحيطني "بكرية" بذراعيها، تقيم عودي، تشـد من أزري. تسألني عـما أريـد فعله لتسـاعدني، أنظر إليها عاجـزًا عن اختيـار الكلمات، تختلـط في عقلي لغة كوم الحنت بطوفان مكتسـح مـن لغة وذكريات أرض الجنة.

أخرج والشـاهين من النفق الطويل إلى آخر الـوادي الغربي، أُريه

ما وجدتـه بالصدفة في أثنـاء تركيب الباب النحـاسي الأخير للنفق، يركع في ذهول إلى جواري وهو يتحسـس الصندوق الأسود الصغير، صندوق الدنيا الأسطوري، المعرفة المجسدة.

أرى تلك النظرة الشـيطانية في عينيه، أندم على إخباره بما وجدته، أكـذب عليـه وأوهمه أنني سـأحضره إليه سرًّا في يوم آخـر. نعود إلى النفق وما زالت عيناه معلقتين بالصندوق.

ليلاً أغير مكانه وأدفنه في أعماق السفح.

أصيـح في الجمـع المتصـارع، أحكي كل مـا عاد لي مـن حياة ابن السباع، المختار، وكل ما عاد لي من ذكريات أولاده وأحفاده.

أحكـي عن كوم الحنت، وعني وعن أبي، وعن صندوق الحكواتي الزائف، عن الفرنج وأسـلحتهم، عن "واكد" وأحفاد من وثق فيهم السباع ونفاهم الشاهين يومًا.

أحكـي عـن تفاصيل المعـارك التي حـارب فيها البشر والسـباع وانتـصروا، أحكي عـن امتزاج أجسـادهم وأرواحهـم. أحكي عن الهزيمـة والنفـي، أحكي عن حلم العـودة الذي يفصلنـا عنه النصر الآن.

رغـم تراجع البعض عـن القتال، لا يزال شرٌّ مـا مصرًّا على قطع أوصـال أرواحهم المتمازجة منذ قرون. على الأرض تمتزج دماء البشر والسباع، لعنة البشر قد طالت الجميع.

تحـاول الحمامـات تشـتيتهم، أنـزل بصعوبـة وأحـاول اخـتراق تلاحمهـم، "بكرية" تحـاول منعي لكنها تستسـلم في النهاية وترافقني

غير عابئة بحياتها. ما زلت أحكي لكل منهم ذكراه مع أحد أجدادي، بينما تنبهني "بكرية" للضربات التي ربما تصيبني وتظللني بجسدها. تنشد الحمائم بصوت ملتاع:

ليه يا زمن يا ردي يا مفرق الأحباب

في بطني جرح ستاشر هلال ما طاب

راحوا وجابوا المداوي حداي لحد الباب

كشف على الجرح وغطاه وقال

ابكوا عليه يا رفقته.. هذا خطير ولو طاب

"آنوب" جريح، مشتبك مع "ضرغام"، منفصلان عما حولهما. أقف بينهما، أرى الصندوق تحت قدمي "ضرغام" يدافع عن حقه فيه بشراسة. تهتف "بكرية" بمن أوقف القتال من السباع أن يساعدوني، تشير إليّ فيفهموا مرادها. أتعلق بسيف "آنوب" وأحدق إلى عينيه بتحدٍّ. يهددنني إن لم أبتعد سيقتلني.

يزأر "ضرغام" ويأمرني بالابتعاد، فهو لم يكن ليقتل حفيد "يزن"، إلا لو وقف في طريقه.

أثبت مكاني، لا أتزحزح، تدور حولي الحمائم وزئير الخصمين يتعالى عن يميني وشمالي.

يغرس الجريح "داغر" مخالبه في ظهر "ضرغام" فيسقطه أرضًا، يزحف "داغر" وقد تدلت ساقه خلفه نحو الصندوق، يقوم "ضرغام" سريعًا ويتشابك فكا السبعين. تنحني "بكرية" تلتقط

الصندوق وتهتف بالسباع أن يفتحه أحدهم، لكن يبدو أنهم يخشون غضبة من ينتصر من السبعين.

تنزلق "بكرية" في الدماء، بينما ألتقط سيفًا من الأرض وأصد ضربات "آنوب"، عالمًا أنني لن أتحمل أكثر. لكنني أتمنى أن تنجح "بكرية" فيما تخطط.

أدرك أن الجمع قد كف عن القتال وطفق يشاهد المنتصر، فلا جدوى من الاستمرار بعد ما قُتل أغلب ذوي رؤوس الحيوانات، ونحو عشرة سباع.

"بكرية" تلقي نفسها بين السبعين وتضع الصندوق بين مخلبي "داغر" الذي يحاول تحرير ساقه الثانية من فكي "ضرغام".

"ضرغام" يضرب "بكرية" فتنزلق بعيدًا في الدماء، ألقي سيفي وأهرع نحوها، بينما يضغط "داغر" مخلبيه الغارقين في دمائه ودماء "ضرغام" على الصندوق.

* * *

يا اللي بديتوا الأسى.. وإحنا سكوت نسمع

هواء بارد كالخناجر يلفح وجه "يزن" الجاف المجعد، ويطير لحيته الطويلة خلفه، فيختلط بياضها بالبخار المتصاعد من فيه وأنفه.

على القمة المشرفة على الوادي الغربي من جهة، والمقابر من جهة أخرى، يتوقف، فتكاد دقات قلبه تتوقف بدورها، تتعثر في تسابق أفكاره، وتلك الظلال العملاقة التي جثمت بمعرفتها على روحه التي ضلت الطريق.

ينظر نحو المقابر، الأجساد الراقدة في قبورها تحت الأرض تتابعه في شغف، الأجداد يتراهنون على نجاحه، ويضع هو رهانه الأكبر على الإخفاق. فقد وهنت روحه يوم نسي ما أُنزل عليه من عبء الاختيار واختار الطريق الأسهل، الفرار.

يرتدي خوذته الذهبية، ويهبط التلة إلى السفح ندي الرمال. يحفر ثم يودع الصندوق باطن الوادي السحري. هكذا سيظل خطره على

فضول البشر آمنًا. فما رآه فيه هو المعرفة الكاملة التي من أجلها تتناحر المخلوقات وتُفني العالم في أطماعها.

رغم أن الصندوق لم يُفتح إلا لحظات قليلة، فإنه رأى فيه ما حدث لكل نفس منذ جعل الخالق على الأرض بشرًا. كل الأسرار والعلوم والخطايا والشرور. انكشفت سوءة البشرية أمامه فتبددت روحه الواهنة أمام عقله. هل لهذا خُلقت يا "يزن"؟ وهل كنت ستموت ظانًّا أنك أحسنت صُنعًا؟ ماذا ستقول لخالقك يوم ملاقاته؟ فررت؟ تركتهم يموجون في جهلهم واخترت حياة مجيدة خادعة؟

يسير في طريقه شرقًا، نحو الأرض التي فر منها منذ ستين عامًا أو يزيد، تاركًا خلفه كل ما شيده وبناه، كل ما دونه وعلمه. لقد خلقه إلهه ليهدي قومه، فهدى من كان مهتديًا، وتخلى عمن ليس له من دونه مرشد.

دخل قريته ليلاً، بلا سلاح ولا مؤونة. سمع صياحًا وطبولاً وأضواء نيران متراقصة. سار في الحواري الخالية ينظر إلى البيوت المتهدمة المرقعة بالجلود وبقايا الأقمشة التي لا تستر من شمس ولا برد. من غصن جميز سميك، يتدلى شابان من أنشوطتين تحيطان برقبتيهما. تتساقط الديدان من جثتيهما المتحللتين. وتحت جذع الشجرة وجد طفلة تكاد تذوي حزنًا وجوعًا، خلع خوذته وأحاطها بذراعيه فلم تبكِ. أبت أن ترحل معه، فقد كان أبوها عاصيًا للرب وعليها أن تراه يتحلل أمامها أربعين ليلة كي تتطهر مما غرسه في عقلها من دنس.

أشارت إلى إحدى الجثتين في حديثها، فقام ومد يديه محاولاً فك الأنشوطة عن الشاب الأول، فسألته الطفلة عما ينويه، فأخبرها أنه

وجب عليه دفنها. انقضت الفتاة تعض ساقه وتبعده عن مبتغاه وهي تسبه وتنادي على مغيث لها. كان صوتها عاليًا مخيفًا وهي تنعته بالكفر، فهو يمنع عنها التطهر ويعصي أوامر الرب. ظلت تصرخ حتى انهارت جالسة تبكي. تردد أنها ليست كافرة، تردد اسم أبيها الذي أوحشها.

ضمها "يزن" إلى صدره وبكى، هذا ما اقترفه جُبنه منذ ستين عامًا.

سـار في الطرقات الموحلة القذرة حتى وصل إلى الساحة الواسعة، ورأى القوم متسـخي الملابس والأبدان يهللـون لما يحدث في منتصف تجمعهـم. رائحـة كثيفة للحم محـترق تتصاعد، بينما يهتـف الناس في سعادة مختلة مجنونة.

راح يشـق الصفـوف، ليجد رجلاً يمتطي كتفـي رجل آخر محني الظهـر ويرفع عاليًا قطعًا من اللحم الدامي يثير بها مشـاعر الحضور، ثم يلقيهـا في النار فيتكالب عليها البعـض، يحاولون إخراجها بعصي خشبية وهم يضحكون كالضباع.

جوار النار، رجال ونسـاء تتسـاقط الدماء من أفواههم، وخلفهم وفد آخر يسـاقون إلى من يقطع ألسـنتهم ويناولها لمـن يمتطي الرجل محني الظهر.

كاد "يـزن" يفقـد وعيه حين لمح الضباع البشرية يأكلون الألسـنة المشـوية في نهـم ويتصارعون عليها. وقف وسـط النـاس يهتف فيهم ويدور حول نفسـه هلعًا. نزل الرجل من فـوق كتفي الآخر واقترب منه ساخرًا، دامي الكفين. سأله من يكون. فأخبره "يزن" بنسبه ولقبه ومهمته.

توقف الرجـل للحظات مفكرًا، بينما يطالـبُ الجمع بقتل "يزن"

كأن حمى القتل قد تمكنت منهم ولن يبردها إلا الدماء.

طلب الرجل من رفاقه أن يصحبوا "يزن" ويأتوا خلفه، آمرًا الحضور بالاقتصاص بأنفسهم من الزنادقة المتبقين.

* * *

أسحب و"بكرية" "داغر" إلى حيث تم تحنيط جسد "واكد"، نغلق الباب خلفنا ونرتكن بجسدينا وراءه، بينما تدخل الحمامات الأمهات من النوافذ العالية، تغطي كل شيء في المكان وتقف حول "بكرية" وعلى رأسها وكتفيها.

تغطي "بكرية" أذنيها وتغمض عينيها، تنهار جالسة وهي بعد لا تصدق أن ما تراه في صندوق الدنيا لا حدود له، ولا يستلزم عينين ليُرى، ولا أذنين ليُسمع.

كنا نرى ونسمع كل شيء يحدث في كل الأزمنة والأمكنة في آن، لكن كل حدث مُفصل واضح لا يتداخل مع غيره. حولنا ظلال ضخمة سوداء تجسد ما حواه صندوق الدنيا من أحداث، كأننا نملتان محبوستان في صندوق الحكواتي.

لا أعرف إن كان الفرنج قد أدركوا فتحنا للصندوق، وكيف سيؤثر ذلك في هجومهم، لكنني الآن أعرف كل شيء. كلنا متساوون في المعرفة، فأي طريق سنختار؟

* * *

صوت الرحايا تطحن حبوب القمح في دار شيخ النحاسين.

يجلس الشـاب مدققًا في عمود داره الجديدة، بينما زوجته تدير حجر الرحايا فيصدر صوتًا منتظمًا يساعده على الانغماس أكثر فيما يراه.

"بكرية" تحمل أخاها الصغير فينحني عودها الرفيع الأسمر المخلف وهي تقترب من أبيها. تحدق إلى ما يحدق إليه. تمد إصبعها وتزيح طبقة أخرى من الجص الملون، يتساقط جزء آخر من رسم ضريح الشاهين ليتبدى خلفه سيف في يد سبع يشبه البشر.

يقوم شيخ النحاسين الشاب شاردًا، يلف عمامته على رأسه بينما يتعلق ابنه بكمه، يطلب منه أن يحضر له "حلاوة". يبتسم الشاب سريعًا ويربت على رأس الطفل. لا يجيب عن سؤال زوجته التي تركت ما تفعله وأطبقت كفها القوية على معصمه. تسأله إن كان ذاهبًا إلى الثعبان "واكد" مرة أخرى، يتردد قليلاً ثم يخبرها أنه لن يتأخر.

تحط حمامة الزوجة الغاضبة على كتفها، ترفرف في سقف الدار فزعة من صراخ الزوجة ونهنهتها المختلطة بدمع حار وموال ملتهب:

قالوا شقية قلت من يومي

قسموا النوايب طلع الكبير كومي

* * *

"داغر" يطلب مني شربة ماء. تحضرها إليه "بكرية" وتوسد رأسه فخذها. راح ينظر في وجهها الملتاع ويذكر زوجة "يزن". أجلس جواره وأسأله، ماذا علينا أن نفعل؟ فيطلب مني أن نتخذ قائدًا.

يضرب "آنوب" الباب ويطالب بالدخول. يومئ "داغر" لي أن

أدعه يدخل. كان "آنوب" مغطى بالدماء والجروح، ومن خلفه تسعة من ذوي الأقنعة، يحملون القتلى من زملائهم ويضعونهم جوار جسد "واكد" المحنط.

يسأل "داغر" "آنوب" عن خطته، فيسند الأخير رأسه على كفيه، لم يستوعب بعد أحد منا كل ما حدث، فكل هذا فوق طاقة البشر، يخبرنا "آنوب" أن "ضرغام" ومن معه يخططون للهجوم على الفرنج الآن.

يحاول "داغر" أن يقوم فلا يقدر. ينظر في وجوهنا ويضع أمامنا حقيقة لطالما حاولنا إخفاءها. اليوم قد يموت آخر السباع وآخر ذوي الأقنعة. فلنجعل رحيلنا مؤثرًا قاسيًا على الفرنج، فلنجعله أسطورة يتناقلها البشر أجمعين.

يخبرنا "داغر" بمكان لفافات سحر السباع والأسلحة وسيف جدي، فأرحل و"آنوب" إلى حيث العرش.

* * *

أمام الضريح تبتهل للولي الشاهين، خائفة، ترتعش شماساتها في هواء المغرب البارد، وطفلاها خلفها، يجريان خلف بعضهما في الساحة فتنهرهما ثم تكمل تضرعها الهامس.

يقترب منها الشواف الأعور، يضع كفه على كتفها فتهلع، تخاف أن تنظر خلفها حتى لا يؤذيها الجن. يسألها عن زوجها شيخ النحاسين، فتقبل كفه وتحكي، حديثًا متلعثمًا متعجلاً كأنها تريد إفراغ قلبها مما ينهشه في أسرع وقت. تطلب من الشواف أن يخبر الشاهين بشكواها وحيرتها لعله يمنعه عن ضلاله ويهديه.

يجلس الشواف الأعور أمامها، بينها وبين الضريح الأخضر الكئيب، يطمئنها، تطلب منه أن يبارك ابنها وابنتها فيفعل. يتملص منه الولد ويبصق عليه وهو يضحك في شقاوة طفولية. تتسع عينا أخته هلعًا، وتصفعه أمه. يبتسم الشواف الأعور من بين أسنانه ويدعو الشاهين أن يحرس العائلة الصغيرة. ثم يأخذ الأم إلى داخل الضريح ويخبرها خطته لاستعادة زوجها وكف أذاه عن أبنائها.

* * *

كانت الواحة شبه خاوية. عدد قليل من السباع يدور فيها حائرًا، ينظر إلى الخيالات العملاقة السوداء التي ما زالت تردد صدى ما سمعناه ورأيناه في الصندوق. يطلب منهم "آنوب" الانضمام إلينا، يشير إلى كل الحكايات من حولنا التي تسجل انتصارات البشر والسباع معًا.

رحتُ و"بكرية" نخرج ما نحتاج من كوة عملاقة خلف السلم المؤدي إلى العرش، بينما تحلق السباع حول "آنوب" يحاولون استيعاب ما فجر هدوء بحيرة حياتهم الراكدة منذ قرون.

تنظر "بكرية" حولها وتتساءل، هل يرى جيش الفرنج ما نراه؟ أكره أن أجيبها بتساؤلات أعظم داخلي. هل ينتظر الإله الواحد صندوقًا محدود الإمكانات كهذا كي يعرف أفعال خليقته؟ أم أن شيئًا بهذا السحر كان مصممًا لنا، نحن البشر، كي نذكر ما أتلفته ضمائرنا من حق، كي يذكرنا بكينونتنا ومآلنا؟

يطلب مني "آنوب" أن أعتلي الماء مرة أخرى، إن كانت لي سيطرة

ما على المستورة، وأنظر ماذا يفعل الفرنج وما ردة فعلهم على فتح الصندوق.

أسير محتضنًا يد "بكرية" في كفي حتى أصل إلى الماء. أمد قدمي كأنني أخطو على سطحه فيتحمل وزني ويرفعني. تجفل "بكرية" وتترك كفي وهي تشهق وتنظر عاليًا. تنطلق مني ضحكة لا أعرف إن كانت تداري ذعرًا أم تهللاً لاكتشافي لنفسي مرة تلو الأخرى.

الأسماك الصغيرة تتقافز حولي وتظللني سحابة من الحمام. أرى على امتداد حدة بصري جيش الفرنج يتحرك نحونا. مُعدات ضخمة لم أر لها مثيلاً تُجر بالخيل والرجال. لو كان "واكد" هنا لأخبرني ماذا تكون.

من خلف الصخور والأعمدة المكسورة المتناثرة، تخرج الوحوش المقدسة، تحوم في السماء الأفاعي المجنحة، تزحف من تحتها التماسيح ذوات لبدات الأسود والفهود طويلة الأعناق.

يصيح صائح من الفرنج بشيء ما، ثم أعرف كينونة تلك الأسلحة الضخمة المريعة.

* * *

هو، كلوفريس الخامس، قائد جيوش الفرنج. تتساقط الممالك عند قدميه كتساقط أوراق الخريف. فشتاء كلوفريس آت لا محالة إلى العالم القديم، فقط تنقصه تلك القطع الفريدة كي تكتمل صفوف جيشه الأسطوري المتفرد.

لطالما كان مُهوَّسًا في طفولته بالعالم القديم، خاصة تلك البقعة الغامضة المسماة بأرض الجنة.

منـذ مئات السـنين، تم طرد العائـلات الحاكمة من تلـك البلاد، واسـتقروا عـلى أطراف البحـر الأصغر جنـوب بلاده. قـوم لطفاء، صموتـون، يعمل أغلبهم في التجارة. يُقال إن عملهم في التجارة يتيح لهـم العـودة إلى أرض الجنـة ولو لأيام معـدودة. يُقال إن أكياسًـا من تـراب أرض الجنـة تتوارثها أجيالهم، ويحرصون على تنشـق محتوياتها كي لا ينسـوا وطنهـم. حاولوا العودة إلى أرضهـم أكثر من مرة طيلة القرون السـابقة، لكن تحالف بلاده مع كوم الحنت كان يمنعهم دومًا مـن الانتصـار ودخـول الأرض. فلطالمـا كانت كـوم الحنت أرض كنزهم الـذي لا يفنـى، وكان عليهم الدفاع عـن وجودها في الظلام راكعة عمياء للأبد.

وصلـت إليـه أسـاطير وحكايات عـن تلك الأرض، عن سـباع متكلمـة ووحوش أسـطورية. عن صنـدوق يحوي التاريـخ والعلم والسـحر. لم يصدق عقله العملي تلك الحكايـات، حتى وصلت إليه قطعـة أثرية فريـدة من أرض الجنـة، تحكي عن علـوم حقيقية قديمة مرفـق معها قفص صغير يحوي حمامة ملونة بديعة. تغني بلغة سـكان أرض الجنة الحالية.

أمر كلوفريس أن يُجمع له كل ما يتم اسـتخراجه من أرض الجنة، فتكومـت لديه هدايا أتباع الشـاهين منذ قـرون. لكنهم كانـوا قومًا أغبيـاء، يحرقـون اللفائف المهمـة ويرسـلون إلى الفرنـج المنحوتات الذهبية وكل ما تم ترصيعه بفضة أو حجر كريم.

دون كلوفريـس الخامـس كل ما توصل إليه من تاريخ وأسـاطير أرض الجنة، لكن طموح ابنه ليوبارد الثالث كان أكبر منه بكثير.

بعد انتقال قيادة الجيوش للشـاب الأشـقر حاد الملامـح، ليوبارد

الثالــث، قــرر أن الوقت قــد حان لسـقوط ورقة الشـجر الأخيرة في خريـف العــالم القديــم. لم تعد أرض الجنة سـوى كـوم الحنت، ولن تسـتطيع الوقـوف أمام طموحــه وجنونه. سـيغزو ويسـود ويملك الجيش الأسطوري الأوحد في العالم كله.

* * *

تنطلـق من فوهــات المدافــع العملاقة كـرات حديديــة مربوطة بسلاســل مفرودة بينها شِباك قوية، فتحط على الوحوش الأسطورية وتسقطها أرضًا. تجندل حركتها بينما يجرها الرجال مرتعدو الفرائص ليضعوها كما هي في أقفاص حديدية على عجلات.

هــذا مــا كان يطمــح إليــه الإفرنجي الأشــقر. جيش مــن البشر والوحوش، والسباع؟ أعود إلى "آنوب" وأخبره بما رأيت. يجب علينا تنبيه "ضرغام" ومن معه. لم يبد "آنوب" مكترثًا للسبع المتمرد لكنني ذكّرته بأننا في وقت لا يحتمل الضغائن ولا الانقسام.

أتركــه وأذهب بحثًا عن "ضرغام"، تشــير "بكريــة" إلى أنني على حق. تســاعد هي "آنوب" في حمل الأســلحة إلى ظهر الســباع المتبقية بينما أنادي السبع العنيد.

أســير بمحاذاة الماء، هواء الليل يحمل رائحــة البارود والدماء إلى أنفي. إحساس مُربك أن تحيا في حدث مفصلي من عمر البشرية. تلك الأشــياء كنت أظنها بعيدة عني، أنا الفتى المدلل ابن شــيخ النحاسين وأخا "بكرية"، ذلك الذي لا يتذكر أحد اسمه.

عــلى أطراف الواحــة يقف "ضرغام" أمام تابعيــه، يصف الهجوم ويشــجعهم بكلمات حماســية تعيد لهم أمجاد الماضي. كنت أرى الموت

ل أعينهم، موتهم وموت أعدائهم سواء. التماع سيوفهم ورماحهم يضاهي تلألؤ النجوم المفترشة بساط السماء.

يسمعني "ضرغام" فيلتفت نحوي غاضبًا. أتوقف مكاني وأحكي له ما فعله الفرنج مع الوحوش المقدسة. يزأر، يضحك، يسخر من سعة خيالي واستهانتي بالسباع. لو كان ما أقوله حقيقيًّا، فالوحوش المقدسة كائنات غير عاقلة. لا تُقارن بدهاء السباع وقدراتهم. يأمرني أن أعود إلى البشر أمثالي، إن اخترت معسكرًا فلألزمه. الوقت وقت حسم الولاء وقد ظهرت حقيقتي في عينيه كعدو للسباع وناكر لجميلهم.

أتوقف مكاني للحظات، أبحث عن كلمات فلا أجد. تحط على كتفي تلك الحمامة الجديدة التي افتتحت عودة الحمامات الأم إلى واحة السباع.

أسير فتطير جواري، تغني، لا أعرف صلتها بي لكنها تحمل روحًا مألوفة لا أستطيع تحديدها.

كل ما حدث بعد معركة الفرنج مع الجن لم يسجل في الصندوق، لا توجد إجابات لتساؤلاتي عن كيفية عبور ذلك المسمى بـ"ليوبارد" وجيشه حدود الفلاة، ولا ما حدث في كوم الحنت طيلة تلك الفترة.

أرى "آنوب" وفريقه يدخلون إلى حيث "داغر". الواحة خالية تمامًا، النيران مطفأة، الهدوء الجنائزي يرعبني أكثر من أي شيء آخر.

أتمدد جوار الماء، أسترجع رحلتي الطويلة العجيبة. وأتساءل عن المجهول الذي ينتظرني.

* * *

تنهـار القبة الخضراء وتسـقط أرضًـا أمام أعين أهـل كوم الحنت الذاهلة المتحلقة بسواد الذل. ليوبارد يعتلي حصانه ويتفحص الجدران المفككة للضريح. تلك التي تحمل نقوش السباع والأجداد القدماء.

يهتـف عامل حفر بأن الممر تحت المقام قد انفتح، فينزل ليوبارد من عليائه ليهبط في ضوء النهار إلى السرداب عفن الرائحة.

قضى العمال وقتًا طويلاً في نزح الماء، حتى صار من الممكن السير وسـط رنين المئات من أكف الشاهين الفضية والذهبية الراقدة في قاع السرداب.

كانت الفتحة العلوية التي وسـعوها في أرضية الضريح لا تسمح بالرؤيـة بوضـوح حتـى في ضوء الشـمس المنصـب من مـكان القبة المهدمة. فتقدم جندي يحمل مشعلاً لينير لـ"ليوبارد" ما وجدوه هناك.

يغطي الأخير أنفه وهو ينحني ليتفحص الجثة المتحللة ذات الشعر المضفـور الطويل والملابس الخضراء. يأمـر بإزاحتها جانبًا حتى يرى بوضـوح أكبر تلك الصناديق الذهبية المفتوحة أمامه. لفائف لا حصر لهـا بلغة لا يعرفهـا، وإن كان يعرف من يقرأها لـه. تلك البلاد شرق كـوم الحنت، والتي استسـلمت له دون قتال تقريبًـا، تلك البلاد التي يحمل شـعبها سـمات الجثة المتحللة ذات الثياب الخضراء نفسـها. لو صحت الأسـاطير التي سمعها طيلة حياته، فتلك الجثة أمامه هي جثة الشاهين ذاته، وتلك هي لفائف علومه التي سيطر بها على الجن.

* * *

يسير شيخ النحاسين الشاب بمحاذاة الترعة، يلمع جلده الأسمر المشـدود تحت الشمس، يتحسس تلك القطعة الحجرية في جيبه والتي

انتزعها من عمود بيته ليلة أمس. يمر على دُكانه فيفتحه، يضع التبن للحصان المربوط جوار الباب ويضع على ظهره السرج النحاسي بارع الصنعة. يجمع ما دفنه في أعماق أرضية الدكان من أحجار منقوشة فككها من عواميد اشتراها من البنّاء الذي بنى له داره الجديدة.

امتطى صهوة الحصان وراح يعدو مبتعدًا عن زحام القرى، متجهًا إلى منزل التجار. إن كان حسابه للوقت مضبوطًا، فلا بد أن قافلة "واكد" قد عادت. لا يحب أن يستخدم حصانه القوي وسط راكبي البغال فيظنون فيه التعالي. لكن شيئًا فيه كان يشعر بخزي إزاء هجره لركوب مثل هذا المخلوق النبيل.

يمضي الليل مع صديق طفولته، يقرأ له "واكد" ما في الأحجار ذاهلاً، مفسرًا ما يقرأه على ضوء الأساطير التي سمعها من أهله في طفولته. لم تكن تلك الحكايا أساطير قط، كانت هي التاريخ الحقيقي لأرض الجنة. بل إن هناك صندوقًا سحريًا يحوي كل تلك الحقائق، وربما كان عليهما استعادته وإنقاذ كوم الحنت.

يستعيد شيخ النحاسين وصية أبيه على فراش موته، لم يكن كلامه واضحًا، لكنه كان يتحدث عن حكاية حكاها له جده، عن صندوق وسباع، وجد أكبر يدعى "يزن" وإرث من حمل ثقيل ينوء بالجبال. تحدث أبوه عن لعنة عائلية متوارثة، عن مستورة لم يلقها ويتعشم أن يراها هو، رغم خوف أمه من أن يلقى مصير أجداده، إلا أن كونها ابنة عم أبيه جعلها تحاول أن تسقي فيه الفضول نحو تلك القصة القديمة، بينما تقاوم إلحاح قلبها عليها أن تُنسيه كل شيء عما قاله أبوه خوفًا عليه من مصير مجهول.

لا ينسى أن يطلب من صديقه "حلاوة" لابنه الصغير و"عروسة"

لابنتـه. يهم بالخروج من باب غرفـة "واكد" لكنه يتوقف، يجيل نظره في البضائـع المتناثرة. يختار مكحلة من الفضة لزوجته يدسـها في جيبه وينصرف.

يمضي شـيخ النحاسـين عـلى حصانه شـاردًا، يخيل إليـه أنه يرى شـيئًا على سـطح الماء يطفو. يقترب بحصانه متبينًا ما يراه، يزل حافر الحصان عن حافة الترعة فيسقط من فوقه في الماء. شيء كثيف مطمئن يلفه ويغوص به. ينفتح حجابه أمامه وتهمس مسـتورة الماء بأسرارها في فؤاده.

* * *

أسـتيقظ من غفوة سريعة على صوت أسـلحة الفرنـج تُطلق من جديد، مـا رأيته من فوق ظهر الماء كان شـنيعًا، "ضرغام" والسباع يهجمـون، يلقون رماحهم من مسـافات طويلة فيسـقطون الرجال، بينـما تنهمـر الرصاصـات عليهم تسـتهدف قوائمهم لا رؤوسـهم. أرى الجنود يفكون الشـباك في سرعة وفزع عن الوحوش المخدرة في الأقفاص ويعيدون تعبئتها في السـلاح العجيب. أرى السباع تتبادل النظـرات الغاضبة وهـم يرمقون الشـباك تطير نحوهـم. يتفرقون، يتعثرون، تصيب كرة حديدية رأس سـبع فتُفجر الدماء منه ويسـقط أرضًا. كانت مذبحة للطرفين، لكن الغلبة بدت لي من نصيب الفرنج.

يدرك شـاحبو الوجوه أن "ضرغام" هو القائد، الأوامر تنتقل إلى الجنود بتركيز الشـباك عليه. تدافع السـباع عنه في شراسة فيتجندلون في الشـباك. أخيرًا يتدحرج "داغر" ملتفًا بشباك أسره، يخمش، يزأر.

يقترب منه فريق من الجنود يجرونه في ذعر حقيقي، بينما يسقط آخر السباع قتيلاً.

أحكي بصوت ملتاع لـ"آنوب" والرفاق ما أراه، أنزلق عن سطح الماء متجهًا إليهم. يلتفون حولي وتحاول "بكرية" تهدئتي بعد أن نقلت لها ما رأيته بلغتنا. يتقدم سبع أبيض ضئيل الحجم ويشق صفوف ذوي الأقنعة. يوجه حديثه لي ولـ"آنوب". كانت لديه خطة لن تروق لـ"داغر" أبدًا.

* * *

لم يدرك الرجال الراحلون للحرب أنها ستكون الحرب الأخيرة، لن يعود أحد، تقريبًا..

يقتاد السباع الرجال، الشاهين وصديقه الحداد، كل يحمل خوذته التي تمثل رأس الصقر. الفارق الوحيد أن خوذة الحداد تحمل قوى سحرية لم يقدر على تفسيرها، ولم يجد صديقه الشاهين لها تفسيرًا، لكنها صارت بغيته مهما كلفه الأمر.

دقات الطبول، ترانيم المستورات تذكرهم بتاريخ الأجداد، الحمامات تظللهم، الريح تحمل عويل النساء ولطماتهن رغم بعد المسافات.

توتر ما صار بين الصديقين بعد أن ماطل الحداد في جلب الصندوق الذي وجده لصديقه الشاهين. كان الأول يخشى جنون الثاني وفرط طموحه. يخشى الجن المتجسد في سرب من الغربان يطوف فوقهما وفوق الحمامات.

على حدود الفلاة تتوقف السباع فيتوقف الرجال عن السير. يقف السبع المسمى "داغر" على قائمتيه الخلفيتين فيراه آخر الرجال كما يراه أولهم. كان ضخمًا، ذا جسد منقوش بالجروح والخمشات والطعنات، شاربه الملوي لأعلى يضاهي كثافة حاجبيه المنعقدين. على صدره وشم لشمس بجناحين، وعلى سلسلة ظهره يرقد وشم آخر لثعبان مجنح. يزأر "داغر" ويعلن أن الرجال سيكونون وحدهم الآن رغم الصحبة. كل سيخوض رحلته وتجربته، لن يقدر أحد على مساعدة الآخر ولن يرى شخصان الشيء نفسه. فحذار من وهن النفوس ومن طيب الذكريات وزهو الحياة وراحة الموت.

ينظر "داغر" إلى السماء فيرى غرابين يحلقان وسط الحمائم التي صارت قلقة متوجسة. يهبط بعينيه الكحيلتين إلى حيث عيني الشاهين العسليتين الضيقتين. يبتسم الأخير في تحد، أليست أرض الجنة أرضًا لكل البشر على اختلاف إيمانهم؟ فكيف توافق على قدوم الحمائم وترفض الغربان؟

ينزل "داغر" على قوائمه الأربع مفسحًا لنا الطريق. تسير الصفوف الوجلة مرة أخرى، يختفي الرجال من أمامنا في الضباب. يتبادل الحداد والشاهين نظرات أخيرة. يتوقف الشاهين للحظات ويمسك كف الحداد. يركع على ركبتيه ويخبر صديقه أنه متوعك بشدة. لحظات يمضيها الحداد جوار صاحبه، ثم ما لبثوا أن بدأ هجوم الأعداء من حيث لم يحتسبوا أبدًا.

يبتسم الشاهين، ثم تتغير ملامحه للذعر الزائف السمج. يسحب الحداد إلى ما خلف صخرة ضخمة يتواريان خلفها بينما تنهمر السهام

من السماء على الجميع. كانت هناك خيانة، وكان الخائن يتحين لحظة البدء للانتقام.

* * *

كان سبع ضئيل، ذو عينين ذكيتين حادتين وصوت مكتوم وقلب صادق، يرى أن "ضرغام" ومن معه نسواء رغم الهول الذي ينهمر على عقولنا وأسماعنا وأعيننا من صندوق الدنيا، ما خلق الإله السباع من أجله. بل ما خلق الأرض وما عليها من أجله. لو كان لأحد أن يحيا اليوم فهو البشر. لا بد أن تنتهي سلطة السباع عليهم، لا بد أن تسود تعاليم "يزن"، فهو بشري مُرسل إلى البشر. يؤلف قلوبهم وطباعهم.

على ضوء الفجر الوليد، جلسنا نسمع خطة السبع الأبيض الانتحارية، وأترجم ما يقول لـ"بكرية" فترتجف وتلتصق بي. الشعور بالذنب تجاهنا يبدو على وجوه السباع، وشعور مماثل يختلج في قلوبنا نحوهم. كان "داغر" على حق، ما كان علينا أن نسمح بالتناحر أبدًا.

نعود إلى المبنى الوحيد في الواحة، نغلق الأبواب ونوقد المشاعل. نتحلق حول "داغر" الذي يتوسد فخذ "بكرية". يرسم "آنوب" على رق كبير ما أصفه أنا مما رأيت من جيش الفرنج وأسلحته. ننصت لصوت السبع المتعب وتعليماته، أعتصر عقلي متذكرًا كل تفصيلة سمعتها من "واكد" يومًا عن الفرنج.

* * *

مـع بداية ظهـور البشر، ظهر صنـدوق الدنيا محمولاً على سـطح الماء، وحط أمام السـباع في واحتهم. حاولوا فتحه ففشلوا. حتى رأى "داغر" في منامه أن رجلاً ذا وجه منير يمسك كفي "داغر" ويضغطها على جانبي الصندوق. يصرخ "داغر" حتى تتكسر مخالبه من الضغط. تسيل دماؤه فتسري في المتاهة المنقوشة على قاع الصندوق فينفتح.

حكـى "داغر" رؤياه على السـباع، فأتوا له بالصنـدوق ليجرب. بالفعل انفتح الأخير فتجمعت حوله الحمامات الملونة وراحت تغني:

كي لا ينسوا من خلقهم ولمَ خلقوا
فليمجدوا الإله الواحد كما مجده جميع الخلق
ولينشروا كلمته فيعلوا ذكره
ويرث أرض الجنة من حمل الأمانة
يفتح الصندوق في البدايات.. ويفتح في النهايات
فيعرف كلٌّ ما كسبت يداه

حذر "داغر" السباع من مغبة فتح الصندوق مرة أخرى. فربما كان في فتحـه نهاية أرض الجنة. تم وضع الصندوق وسـط الواحة، تجتمع حوله الحمامات كل غروب، تودع فيه حكايات المخلوقات وأفعالهم. فكانت فيه البدايات كلها، والنهايات.

* * *

في وسـط النهار، يفترش الجميع الأرض وينامون منهكين. أسـير بينهـم شـاردًا. يبـدون كنقش مـن نقوش الجـدران. أجسـاد بشرية برؤوس حيوانات تتضافر مع أجساد السباع ذوات الوجوه البشرية.

"بكريــة" بثوبها الأبيــض الملطخ بالطين والدمــاء تطمئن على الجراح وتطببها بما أتيح لها. يفتح

"داغر" عينيه بصعوبة متأملاً الحمائم الملونة، ثم يشـير إلى "بكرية" أن تقـترب منه، يطيل الحديث إليها وهي تمسـح عـلى لبدته المعجونة بالدماء.

أقف جوار جســد "واكد" وألقي برأسي على صدره. أكاد أسـمع دقــات قلبه كما كنت أســمعها حـين معانقته لي وأنا بعـد طفل. كنت أدس رأسي في ملابســه وأتشــمم رائحــة الصحــراء والبــن والتوابل والعطور. يخرج من جيبه "الحلاوة" التي أعشـقها ويخبرني كم كبرت وصرت أشـبه والدي. مع الوقت صرت أشـبهك يا "واكد". صرت جامـع الأضـداد الأوحد، الجبان والشـجاع، المسـافر والمقيم، الحي والميت. لو كانت للأضداد صنعة لكنت أنا شيخها.

تعطينـي "بكريـة" طعامًا فألـف ذراعي على كتفهـا وأقربها مني. ألقمهــا الطعام في فمها فتنظر إليّ. تحتشــد الدمـوع في عينيها. نتعانق قدر كل لحظة ابتعدنا فيها عن بعضنا، عناق الجسد للروح قبل الموت.

* * *

تجتمع النســاء حول الغراب الأســود الضخم، يرتلن ما أمرهن به الشــاهين الواقف في الركــن المظلم تحت النخيل. بملابســه الخضراء وصولجان ذهبي في يسراه، وسيف الحداد في يمناه.

يذكر معركته الأخـيرة مع الحداد، صديقه وغريمه الوحيد. يذكر حكايات أجداده عن المنشــق "يزن" وعن السبع الذي كاد يقضى على

بلادهـم. عن الثأر بينهم وبين أهل أرض الجنة. لن تقام تعاليم "يزن" في الأرض أبدًا لو أبيدت أرض الجنة بمن فيها.

منـذ طفولتـه، كان الجن يتبعه ويطيعـه أكثر من باقـي أقرانه، لذا اختاره الكهنة لتعليمه فنون السـحر وتسـخير الجـان. كان يعيش في مجتمع مغلق من الأقليات التي عاشـت على أرض الجنة قديمًا، لكنهم أبدًا لن ينسوا ثأرهم، ثأر داعب طموح الشاهين طيلة حياته بأن يحكم أرض الجنة بالسحر والجان.

أخبره الجـان أن هناك صندوقًا سـحريًّا وخوذة مـن يملكهما فإنه يملـك الماضي والحـاضر، كل علوم الأقدمين وشرورهـم. والكنزان مملـوكان لأحفاد "يـزن" الذين ربما لا يعرفون أنهـم كذلك. وكانت خطـة الشـاهين تكمـن في مصادقـة الفتى الحـداد ذي خـوذة الصقر وملازمتـه. ربما فتح بعض الآفاق أمامـه ليبحث أكثر، فربما يصل إلى الصندوق أيضًا.

وثق الحداد في الشـاهين، ورافق الأخـير علوّ صديقه من حداد إلى صانع سـيوف إلى شـخص مقرب من الحكام والحكماء والسباع. أراه الحداد الخوذة الذهبية المتوارثة في عائلته، وإن لم يعرف مالكها الأصلي في البدايـة حتى صارحه السـباع بالحقيقة في أواخـر أيامه، وأمروه أن تكون تلـك المعلومة سرًّا ليدفع عنه مكر الماكرين وحقدهم. كان يتيه فخـرًا بأصلـه أمام صديقه المؤتمـن على أسراره. بينما يتحين الشـاهين الفرصة لسرقة هذا الأصل سرقة شرعية لا غبار عليها أمام الجميع.

خانت قبيلة الشـاهين السـباع وتسـببت في هزيمتهـم، بل في قتل أغلـب الرجال. هكذا صار الطريق ممهدًا أمام الشـاهين كي يتلاعب بصديقه الحداد كي يعرف المكان الذي نقل إليه الصندوق.

تفرغ النساء من تلاوة التعاويذ فيلتفتن إليه ببطء، يخرج من الركن المظلم ليتوهج ضوء المشاعل على عينيه الذهبيتين. تسجد النساء ذعرًا حين تتفجر الأركان المظلمة بالغربان. تعوي الرياح في الخارج فتمسك كل امرأة بكف مجاورتها وترتجف.

يخرج الشاهين محفوفًا بسواد الطيور المشؤومة، تجري الرياح من بين يديه تعصف بكل شيء. يتعالى النعيق والصراخ والزئير.

وفي الصباح، يقف الشاهين على التل المشرف على الفلاة، ينظر تجاه أرض الجنة الخراب ويبتسم.

* * *

في الظلام نستعد، نقف خلف السباع المتبقية، نتحاشى النظر في الأعين. "بكرية" تناولني سيف جدي وترحل سريعًا، فأمامها مهمة خاصة أتمنى أن تنجح فيها. "آنوب" يلهث توترًا فتبرز أنيابه الناصعة. خلفنا ذوو الأقنعة برماحهم وسيوفهم وأنفاسهم الهادرة المخلوطة بطابع حيواني مميز.

تنطلق السباع تجاه جيش الفرنج، بينما أقود المتسللين، أنا شيخ صنعة التسلل، حول الواحة. تساعدنا أجسادنا الصغيرة مقارنة بالسباع في الاختفاء في الظلام وخلف النباتات القليلة المتناثرة في الفلاة. نتوقف خلف الأعمدة اللانهائية في الممر الذي رأيت فيه أبي. ننتظر الاشتباك بين السباع والجيش كي نتسلل إلى حيث الأقفاص المأسورة فيها الوحوش المقدسة والسباع.

أرى الارتباك في صفوف الفرنج. لم يكن في الحسبان أن يتعرضوا

لهجوم آخر، يجري الجنود في كل صوب يحضرون الشباك، بينما يضرب الآخـرون نيرانهم نحو السـباع التي تتقدم منهم، يسـقط السـبع تلو الآخر، بينما يظل السـبع الصغير يراوغ شباكهم حتى يصل إلى أوائل صفوفهـم مع ثلاثة سـباع آخرين. سـيوفهم الضخمـة تطير الرقاب ومخالبهـم تبقر البطون. يطوحون الرجال يمنة ويسرة بأنيابهم. تنهمر مئات الرصاصات من كل صوب فلا تزيدهم إلا غضبًا. تزداد سرعة الريـح وتبدأ زخات المطر. صوت منغم يدلني على أن للمسـتورة يدًا في هذا الغيث.

مع إشـارتي يتبعني ذوو الأقنعة ملتفين من خلف صفوف الفرنج إلى حيـث الأقفـاص. أمـد ذراعي موقفًـا تقدمهم، فأنـا أرى مباخر عملاقـة تبث دخانًا ما بـين الأقفاص. لا أعرف كنه مـا فيها، لكنني أرجح كونه عشـبًا مما يحرقه الشـوافون في كـوم الحنت بغرض تخدير النساء قبل أن يضاجعوهن ليمنحوهن النسل.

بعـض جنود الفرنـج يقتربون، يحاولـون أن يضعـوا حائلاً فوق المباخـر كـي لا تطفـئ الأمطار جـذوة احتراقهـا. يسـتدير "آنوب" ويحـدث اثنين مـن ذوي الأقنعة، أن يغطيـا أنوفهما ويكتما أنفاسـهما قدر المسـتطاع، ويذهبوا لتعرية المباخر وقتل الجنود. انطلقا ينفذان ما أمرهمـا به. يخفق قلبي توتـرًا، فالوضع لا يحتمل موت المزيد منا. على "بكرية" أن تنجح في المهمة التي أوكلها إليها "داغر"، فلا أحد يضمن أن نظل أحياء لمعركة النهاية.

* * *

يرتكـن الحداد على كتف صديقه الشـاهين. يرتميان تعبًا فوق التلة المشرفة على المقابر. يرمق الحداد جثث السـباع والرجال عند السفح. يكاد يسـمع احتفال جنـود الغزاة. يخلع خوذتـه ويضعها تحت إبطه. ينظر إلى وجه الشاهين وملابسـه وجسده. رغم الاشتباك والصراع لم يحاول أحد قتل الشاهين ولم يحاول الشاهين قتل أحد.

الغربان تنهش الجثث، تلك الغربان ذات الأعين الحمراء المشقوقة، تمامًا مثل التي ترافق الشاهين. كانت هناك خيانة واضحة والآن يعرف الخائن. لكن لِمَ يبقي الشـاهين على حياته؟ هـل يحبه حقًا؟ هل يعرف خائن كهذا معنى الصداقة؟

يزحـف الشـاهين مقتربًـا مـن الحـداد، يسـأله في لهفة عـن ذلك الصندوق السـحري الذي وجده. ربما وجب عليهما فتحه ليجدا قوة تعينهما على النصر. فحتى الآن لا يبدو أن هناك من بقي سواهما.

يحاول الحداد الوقوف على قدميه، يخبر الشاهين أنه لا يذكر تحديدًا أين دفنه. يعاتبه الشاهين على سوء ظنه به، فقد أنقذه مرات في المعركة ولم يشكر له ذلك.

يرتدي الحداد خوذته ويخبر الشـاهين أنه سـيعود إلى البلدة. ضربة قوية على ظهـره ألقته أرضًا. يتدحرج الحـداد، تنخلع الخوذة الذهبية وتنغرس في الرمل الناعم الكثيف.

يعـدو الشـاهين حيث انغرسـت الخـوذة ويبحث. يسـب الحداد ويلعنـه، فالجميـع يعلم أن الـوادي الغربي يخفي ما اندفـن فيه إلا عن أصحابه ونسـلهم. يتوقف الحداد عن الدحرجة. يقوم شـاهرًا سيفه، يهجم على الشاهين فيتلاقى السـيفان المتماثلان. تتجمع الغربان حول الشـاهين وتهاجـم الحداد. يرتدي الشـاهين خوذة الصقـر الخاصة به

ويقترب واثقًا من الحداد. يتحدث عن الصداقة القديمة التي تحتم عليه أن يعطي صديقه فرصة أخيرة. الصندوق مقابل حياته.

* * *

أعتلي أحد الأعمدة كي أرى بشكل أفضل. يصل المحاربان ويتجهان إلى المباخر. الجنود يفزعون لمرأى تلك المخلوقات الجديدة. يهرب اثنان بينما يقف أشجعهم ويطلق النار على صاحبينا.

تتعرى بعض المباخر لكن المخدر أقوى. يسقط جنود من الفرنج بينما مطلق النار لا يزال يتراجع بظهره ويكتم أنفاسه. لا يتحمل ذو قناع التمساح كل هذا الركض دون أن يتنفس. يشهق بقوة وهو يهاجم الجندي المسلح ويقتلع رأسه ثم يسقط أرضًا معه مترنحًا.

تشتد الريح والمطر، مع انطفاء أغلب المباخر نتقدم بسرعة. يقتلع ذو رأس الكبش الأقفال على الأقفاص بضربات من قرنيه الملتفين القويين.

نخرج الحيوانات المقدسة والسباع إلى حيث يسقط عليهم المطر علهم يستيقظون. نتوقف أنا و"آنوب" أمام قفص "ضرغام". الغضب في عيني "آنوب" يتصارع مع الأيام التي قضاها محاربًا فوق ظهره. أعرف أن كل تلك الذكريات المنسابة من صندوق الدنيا تتغلغل فينا. الحب والشجاعة والصداقة. الألم والموت والخيانة. كل شيء فوق الاحتمال، كل شيء يدفعنا للشفاء أو الجنون.

ينقض "آنوب" على القفل بفكيه ويكسره. ندخل ونجر الكائن الضخم المضرج بالدماء. أضع أذني على صدره فأعلم أنه لا يزال حيًّا. هذا القلب الذي لطالما نبض بحب ابن السباع "يزن". لا أشعر

نحوه إلا بما شعر به جدي يومًا. هذا السبع ثأر لموتي، أنا مدين له للأبد.

"آنوب" يضع كفه على صدر السبع ويتلو صلاة للإله الواحد. قال لي "آنوب" يوما إنه ما عاد يشعر كما يشعر البشر، فلماذا ألمح تلك العبرة تنزلق لامعة على وجهه الأبنوسي لتلقي بنفسها في حضن دماء "ضرغام"؟

خارج القفص أرى أن الوحوش المقدسة قد أفاقت. الثعابين المجنحة تدور غاضبة. الفهد ثنائي الرأس يلعق جروح التمساح ذي اللبدة. يتكلم ذو رأس القط موجهًا دعوته للوحوش المقدسة. الأمطار تغسل كل الدماء فتتجمع تحت أرجلنا في برك صغيرة. ألمس سطح أحدها فيلتف الماء حول أناملي. أبتسم، أكاد أرى نصرًا قريبًا.

* * *

أول ما خط الشاهين من كتابه كان المحرمات الخمسة.

كان يعلم أن عمره الطويل الذي منحه له الجن مقابل أن يحكموا المقابر والوادي الغربي لن يعفيه من الشيخوخة وأثرها. اعتبرته النساء في بداية عصره وليًا مرسلاً من الإله الواحد، بينما تعامله الأجيال الأجدد، بعد مئتين ونيِّف من الأعوام على أنه تجسد للإله الواحد.

سيأتي يوم وتلتهم التجاعيد وجهه، ربما بعد مئة عام أخرى، لذا كان عليه أن يكتب في كتابه أن النظر إليه إذا تجلى لرعيته محرم.

ثم كان عليه أن يتلاعب بكل ما ترك السباع خاصة تعاليم "يزن". فألغى التحنيط القديم واستبدل به طقوس الدفن في السكر ساخرًا من الموت وحرمته. زال ستر الموتى تحت الأرض وراحت الأجساد

المحنطـة تنتصب في المقابر، تظهر أكثر مما تخفـي. ثم جاءت الأحجبة التـي يكتب فيها مـن يملك المال مآثـر زائفة لعائلتـه، فكانت القبلية والتعصب والانشقاق.

أما الحمامات الأمهات، فبعد زوال أغلب قواها صارت رغمًا عنها أدوات للترهيب والسـيطرة، تردد عن لسان النساء ما يسيطرن به على أولادهن ويمسحن به ما تبقى من إرادة حرة.

ثـم جـاء الوقت الذي يسـيطر هو فيه على النسـاء، فسـنّ العهد، والـذي تعاهد فيه النسـاء الجن على اسـتمرار إبعاد السـباع عن كوم الخنـت لحماية أبنائهـن الذكور، مقابل الخوف. فالجـن يتغذى على ما تمنحه لهم الأمهات من أنفسهن، من أمنهن وسعادتهن. ترتدي النساء الشماسـات لا تكريمًا كما كان يحدث أيام السـباع، بل خضوعًا وخوفًا ومذلة للجن الذي يحمي أطفالهن.

كان خدم الشاهين وشوّافوه يوصلون إليه أخبار رعيته، ويتأكدون من طاعة الجميع. فلما اسـتقر الأمر ولم يبدُ أن الشـاهين سـيرحل عن الدنيا قريبًا، انقلب السحر على الساحر.

* * *

أصحابنا فين اللي راحوا.. واللي بقيوا كم؟

من خلف الجيوش نزحف، على ضوء الشروق نزحف.

"آنـوب" يمتطي ظهر "ضرغـام" وأنا خلفه، أرفع سـيف جدي وأصرخ. صوتي يشـجعني ويدفع عني الهلـع. من حولي ذوو الأقنعة على ظهر السباع الأخرى يطلقون صيحات تهز أفئدة أشجع الرجال.

مـن فوقنـا الأفاعي المجنحة تلمـع أجنحتها الذهبية في الشـمس الجديدة.

نخترق الجموع المضطربة فنطعن ونحصد الرؤوس ونبقر البطون. تتسـاقط الخيول مضرجة في دمـاء أصحابها. رائحة البـارود تذكرني برائحـة "واكـد". أنـزل عن ظهر "ضرغـام"، أحرر جثـة متدلية من حصان مهتاج. أربت على عنقـه وأعتليه. بينما أترك المجال لـ"آنوب" كـي يقف متوازنًا بخفة لا نظير لها فـوق ظهر "ضرغام"، يرى أرض المعركـة من أعـلى، يبحث عن قائـد الجيش. حين يـراه يصوب عليه رمحـه، فيطير فوق الرؤوس حتى يسـتقر في عنـق القائد. يتهاوى عن

حصانه بينما تتوجه الأسلحة نحو "آنوب" فتمطره بالنيران.

أهـرع نحوه لأكتشـف أن ما بقي مـن ذوي الأقنعة يكاد يعد على أصابـع اليد الواحدة. أكاد أترجل فيشـير لي والدمـاء تتدفق من بين أنيابـه أن أكمـل القتال، يصيـح ضاحكًا بأن اليوم يسـتريح من حياة طالت وقست.

الجيش يفر من الهجوم الغاضب المباغت. تأتي الوحوش المقدسة على ما تبقى وسطنا من فرنج.

أجـد على الحدود رفات حصان أبي، حصـان "واكد"، لم يتبق منه سوى سرج نحاسي كسـاه الصدأ. أحمله بين ذراعي وأمسحه. تفلت من قلبي دقات متتاليات تثير في جسدي القشعريرة.

المـاء ينهمر فوق الـرؤوس ويحمل أنهار الدماء باتجـاه المقابر التي أراها على مبعدة.

خلفي تلهث السـباع وتلعق الوحوش المقدسة جراحها. يضع ذو رأس القط كفه على كتفي ويصيح بأننا عُدنا، أخيرًا.

* * *

في السرداب يودع الشـاهين مخطوطاته التي تحمل أسرار الجن وما خفي عـلى العقول من فعلته بالسـباع ومجلس الحكـماء، مكتوبة بلغة قومه الأصلية.

رجال كوم الحنت يرسـمون أعين الشـاهين على الطلاء الجديد لما كان معبـد الإلـه الواحـد. أشراف أرض الجنة يرحلـون عن أرضهم مجبرين، يرفلون في ثيابهم السـماوية على ظهـر الخيول. يتركون نصف

ما يملكون من ذهب وفضة مقابل رحيلهم، بعد أن أتى الجن في حربه معهم على أغلب رجالهم وأطفالهم.

يرحلون، وفي نطاق كل منهم، حفنة من تراب أرض الجنة في صرة حريرية. كتب قديمة تحمل تعاليم الإله مربوطة في صناديق خلف خيولهم.

بعد نحو ثلاثمئة عام من ذلك اليوم، يجلس الشاهين على كرسي ذهبي أمام الباب النحاسي الذي صنعه الحداد يومًا في السرداب. كفه المرتعشة المبقعة تتلمس كل خط حفره صديقه البارع.

تتنامى إلى مسمعه الذي ضعف احتفالات القوم بالولي الشاهين. النسوة يتمايلن بشماساتهن حول الضريح. الشوافون يتسللون إلى بيوت الزنادقة يختمون جباههم بعين الشاهين. الخدم يضاجعون النساء المخدرات في الحجرات ليمنحوهن ما عجز رجال كوم الحنت عنه.

السيوف الصدئة معلقة على الحوائط، الخيل ترقص في المولد، الأطفال ملتفون حول صندوق الدنيا يشاهدون ما فعله الشاهين في المستورة الجبارة.

كل شيء كما رسم له، لقد تم الانتقام ولا جدوى للحياة. يعود الحداد له يوميًا في منامه على ظهر "ضرغام". ليته يقتله أو يضربه حتى. فقط نظرة طويلة لائمة يرحل بعدها غربًا.

لم يجرؤ الشاهين لسبب لا يعرفه هو نفسه على طمس الجداريات القديمة عن حوائط السرداب. كان يود لو حفظه كما هو بكل

مـا يحويـه، بكل ما حـدث فيـه بينه وبين الحداد. تلـك كانت ذكرى صادقة في عمره المديد الكاذب.

حـاول الشـاهين أن يجد زوجة الحـداد دون جـدوى، كان يود لو يركع أمامها ويعفر وجهه في التراب. لا، لم يعد للانتقام مذاق ولم يعد قلبـه حيًّا. لكنها على الأغلب ماتـت أو هربت إلى مكان ما منذ مئات السنين.

الجن يعرف أن الشـاهين يتقدم في العمر، عظامه الواهنة ما عادت تحملـه. يتخلى الجن عن عهده معه، وإن كانت النسـوة لا يتخلين عن عهودهن المُتَوَهمة.

يسمع الشـاهين طرقات تكسر باب السرداب عليه، يلتفت ليجد كبير شـوافيه الضخم الأسـمر واثنين من الخـدم يتقدمون منه في ثقة. طعنـة ثاقبـة من خنجـر في يد الشـواف، يتهاوى الشـاهين على أثرها أرضًا.

يحفر الخـدم الجدار ويصبون على جثته السـكر المذاب. حين يجف السـكر يدفنونه وسـيفه وقلادتـه في الجدار. على طبقـة الجص الطرية يرصون أعين الشاهين الفضية.

بعد سـبعة أيام من مقتله، يخرج الشواف الأكبر إلى الناس متهللاً، معلنًا صعود الشـاهين إلى السماء بجسـده وروحه. وأنه وسائر الخدم والشوافين سيظلون يعملون تحت إمرته إلى الأبد.

هكذا تنزاح القداسـة عن الشاهين وتحل على شوافيه وخدمه. مئتا عام أخرى حتى يقرر شواف شـاب أعور أن يفتح صندوق الشاهين ويحاول قراءة ما فيه، فيفشل.

يعـرف أن كل مـا يحافظـون عليـه محض هـراء. لا وجـود للولي الشاهين، ولا معنى لتلك النقوش على الأحجبة. لا سيطرة لأحد على الجن من بعده. لكنه قد عشق سماع الأساطير التي تحكيها له الغانيات من لسان التجار. كل هذه القصص عن صندوق الدنيا ووريثه تشعل في صدره حلمًا قديمًا بأن يكون شاهين آخر أقوى وأكثر خبثًا.

سـنوات مرت حتى اسـتطاع أن يجدد نسـل الحـداد الذي هربت زوجته سـنوات جنوب البلاد، ثم عاد أحـد أحفادها إلى كوم الحنت منذ عقود وجاء من نسـله شـيخ النحاسـين. من ثم بدأ نسج خيوطه حول زوجته وابنه من بعده.

* * *

نضع الأجسـاد الطاهرة للسـباع وذوي الأقنعة في الأقفاص التي تركهـا جيـش الفرنج في هربهـم، ونجرهـا متجهين مـرة أخرى إلى الواحة، حيث نعيد ترتيب صفوفنا ونصلح أسلحتنا ونطيب جراحنا.

أنظر إلى السـماء ثم إلى عيني "ضرغام" المعلقتين بجسـد "آنوب" الخالي من الحياة. أقترب من السـبع فيبتعد. ضغينته نحو البشر لم تزُل ولا أعتقد أنها ستفعل.

أتركهـم وأعود وحـدي إلى بداية الفـلاة حيث المقابـر، أجتازها غائصًـا في الطين وقـد دمرتها تمامًا معارك الفرنجة، وهشـمت عظام الأمـوات سـنابك خيولهم. تغـوص قدماي في الرمـال التي محت ما تبقى من معالم.

بـدا لي أن مـا مر عليّ في الواحة لا يتوافـق زمنيًّا مع ما أرى أثره في

كل ما حولنا. يبدو أنني تركت كوم الحنت منذ سنوات لا أسابيع.

أتساءل عن رد فعل أهالي كوم الحنت لدى مَرآنا. تنقشع السحب قليلاً لتتبدى لناظري من فوق التل على حدود الوادي الغربي ما آلت إليه كوم الحنت. أطلال وتجمعات للجنود والأسلحة.

في الأغلب سيحتاجون وقتًا لرأب الصدع الذي أحدثناه في نفوسهم. لو تم كل شيء كما خططنا فستكون المفاجأة صاعقة عليهم.

أعود إلى الواحة، أجد "بكرية" قائمة عند رأس جسد "داغر" الفارغ من الحياة، تغني وتبكي، بينما يلتف حوله الجميع راكعين يرتلون صلاة، بمن فيهم "ضرغام".

سلام عليك أيها الإله الأعظم

لقد جاءك عبدك خاضعًا شاهدًا بجلالك

متحليًا بالحق، متخليًا عن الباطل

نشهد أنه حكم فعدل

ووعد فأوفى

ما قتل إلا حقًّا وما غدر

هو الطاهر، البريء من الإثم

الروح بتجري وأنا أروح مطرح ما أروح

أنا لسه حي؟ ردوا عليّ وللا حلاوة روح

ماقادرشي أغني للحياة يمكن عشان ميت

ومنين أجيب صوت لكلامي في ليالي النوح

أتهاوى عند رأس السبع المجيد وألصق رأسي بجبينه. أعتذر إليك يا صديقي عن كل ما فعلناه بكم وبأنفسنا. حقًّا أعتذر.

نمضي الليل في تحنيط موتانا، نمددهم بعضهم جوار بعض، الصمت، المشاعل، البرد. موال مختلط بالبكاء يصل إليّ من شفتي "بكرية" التي جلست ترمق السماء المظلمة من النافذة العالية.

في الصباح يبدأون إصلاح الأسلحة وصناعة الرماح. بينما أحاول أنا تذكر كيف كان "واكد" يستخدم سلاحه الناري. فأمامي كومة من أسلحة الفرنج التي جمعناها من ساحة المعركة. يجب أن نتدرب أنا والبشريون الباقون على استخدامها في أقرب وقت. تفرد "بكرية" البارود المبتل في الشمس كي يجف. هكذا نسترجع ما رأيناه في صندوق الدنيا بشأن أسلحة الفرنج ونحاول تطبيقه.

تشرد "بكرية" في السماء وتظلل عينيها بكفها. أرى ما تنظر إليه جيدًا، وأرى أن "بكرية" نجحت فيما أوكل إليها وأنا أرى صرة التراب الحريرية الزرقاء مربوطة في ساق حمامة "بكرية".

لقد نجحت خطة "داغر".

* * *

لم تكن أم "بكرية" على استعداد لأن تضحي بصغيرها الذكر أبدًا. تستعيد كلمات الشواف الأعور عن اللعنة التي تطارد عائلة زوجها، والتي بدأ جنونها في الظهور عليه. الرجل يتشكك في الشاهين وقد بدأ الهرطقة، يساعده في ذلك "واكد" اللعين.

حين صحبته في المولد إلى الشواف الأعور، لم يستطع الرجل

استخلاص شيء من مراوغته وخبثه. كيف تغير زوجها هكذا ولِمَ؟ هل ستطال اللعنة ولدها الصغير؟ لن تسمح بهذا أبدًا.

تجلس مع أختها "ود"، تشكو إليها، تحكي لها طلب الشواف أن ترسل حمامتها لمراقبة زوجها خلسة. فيعرفون أصل الجنون الذي أصابه وينقذونه.

تذكّر "ود" أختها كيف كانت تكلم الحمامات وترسلها إلى حيث تريد وهي صغيرة. هي موهبة عند الكثير من النساء. إلا أن "ود" كان تخشى على أختها شر المعرفة والتورط فيما لا تحمد عقباه. كانت تنصحها دومًا بأن تكمل حياتها وتطوي زوجها تحت جناحها. لكن أم "بكرية" لم تكن على استعداد لأن تسمع نصيحة من أختها التي لم تكتو بنار ولادة الذكور. فماذا تعرف هي عن الثمن الذي تدفعه من أمنها وعقلها؛ وهي تعرف أن الجن يتبعها وينتظر منها هفوة كي يفتك بها أو بصغيرها؟

هكذا تحمل حمامتها وتجلس في حجرة الكرار تغني لها، تبكي وهي تحاول أن ترسل إلى الحمامة مدى احتياجها إلى مساعدتها. تشعر الحمامات بصدق الطلب فتلبي أحيانًا، وأحيانًا تعصي.

تفلت الحمامة من بين أناملها وتدور في سقف الحجرة. تفتح لها الباب فتطير مغادرة إلى حيث تريد صاحبتها.

* * *

يبحث في الأطلال منذ شهور بلا جدوى. حتى اهتدى وصديقه "واكد" إلى أن احتمال أن يكون كنز كهذا محفوظًا في أرض الوادي

الغربي. فلن يغامر أحد بدفنه في الأطلال ليجده عابث بالصدفة.

لم يلبِ طلب "بكرية" الصغيرة مرافقته الى الوادي الغربي. فالمكان خطر ومع عهد المستورة يصير وضعه أصعب وكل خطوة يخطوها في عمق الوادي قد تعني موته. وهو لن يموت ويتركها في مكان كهذا.

كانت مهمة "بكرية" كما أوصاها شيخ النحاسين هي أخوها. فجنون زوجته المتزايد جعله قلقًا على أبنائه من تصرفاتها وتعلقها بالشاهين وبالشواف الماكر. يجب أن يجد الصندوق ويرحل بطفليه بعيدًا عن كل هذا.

تمر أسابيع أخرى ويزداد هزالاً. رحلات الوادي الغربي تأكل روحه رويدًا رويدًا. زوجته تسدد النظرات الثاقبة اللائمة إليه بعينيها الواسعتين المكتحلتين بالزرقة. "بكرية" تحيط أخاها بذراعها في ركن حجرتها وتحكي له القصص التي تبعده عن الجو المسموم في الخارج. تغني مواويل حفظتها من حمامات الخالات والعمات. يصل صوتها إلى أبيها فيبتسم. ويغمض عينه في تعب وينام.

في اليوم التالي لاحظ رحلة الحمامات إلى نقطة بعينها في نهاية الوادي وقت الغروب. وقوفهم حول المكان وطيرانهم فوقه لا بد أنه يشير إلى شيء ما. كلما اقترب من الموضع وهن أكثر.

يلمح حمامة زوجته تحوم حوله، تجذبه من ملابسه كي يبتعد. تغني عن الشاهين وعينيه اللتين تريان كل شيء. يبعدها فتزداد شراسة ويزداد هو وهنًا. تكاد تفقأ عينه فيضربها بحجر يهشم رأسها.

يتوقف مكانه في هلع. يداريها في ملابسه ويغادر الوادي وهو لا يلبث ينكفئ على وجهه. يعود إلى بيته ليلاً، يتدثر في غطائه على

المصطبة خارج الدار. على ملابسه تتسع رقعه دماء الحمامة. رغم يقينه بأن الشاهين وهم، وبأن الإله الذي يؤمن به "واكد" هو الحق، لكنه يخشى الوسم، يخشى العار. يخشى الغد المسموم على أطفاله.

في الفجر، يركب بغلته، تلمحه "بكرية" وتناديه. يلتفت إليها وينتزع ابتسامة يرسلها إليها. ملابسه المعفرة وبقعة الدماء المتسعة على صدر قفطانه أثارت الذعر في نفسها. لم تكن تعرف إلى أين يتجه، لكن قلبها دلها على أنه ذاهب إلى الأطلال كعادته. تعود "بكرية" إلى الدار سريعًا وتأخذ بعض القرص في سلة من الخوص. تخبر أمها أنها ذاهبة إلى الولي الشاهين فتهز الأخيرة رأسها شاردة.

تجري الصغيرة وضفائرها تطير خلفها. لا تلتفت لتحيات النسوة لها، تقفز بين بقع الماء الآسن على الأرض وفوق جذوع النخيل المقطوعة.

تعفر الرمال ملابسها وهي تقطع الخلاء المؤدي إلى الأطلال. بغلة أبيها واقفة تأكل عشبًا جافًا وجوارها حصانه ذو السرج المطعم بالنحاس، مربوط على ظهره صرة ضخمة. بينما أبوها راكع يوليها ظهره. ينظر إلى الأرض ويغني بصوته العذب الشجي موالاً عن الحمام والموت.

تختبئ خلف حائط متهدم حتى يرحل، يبدو أنه يتجه نحو منزل التجار. حين يبتعد، تحفر في المكان الذي كان فيه، متوقعة أن تجد تمثالاً أو لفافة من التي كان معتادًا على دفنها هنا، لكنها تشهق حين يبرز لها من بين الرمال رأس حمامة أمها المهشم.

* * *

يأخـذ "واكـد" الصرة الضخمـة مـن صديقه ويضعهـا في ركن حجرته، ثم يرافقه إلى الإسـطبل حيث يودع حصانه فيه. يشدد شيخ النحاسـين لصديقه على أن ينتظره حتى يعود بطفليه وأمه كي يرحلوا مـع القافلـة. لم يعد المـكان آمنًا. لقـاءات زوجته والشـواف، الحمامة العنيدة المرسـلة من زوجته، أسئلة الشـواف التي تعني أنه يعرف كل شيء. حين يطمئن على أهله سـيعود إلى الوادي ويستخرج الصندوق ويرحـل إلى الفلاة لتسـليمه للسـباع. يطلب منه "واكد" أن يرسـل أهلـه مع تاجـر صديق ويذهبا معًا إلى أرض السـباع. يصمت شـيخ النحاسـين مفكرًا ثم يهز رأسه رافضًا. فلو هلك في رحلته، من سيربي أولاده ويراعي والدته العمياء من بعده؟ لا بد أن يحيا "واكد".

* * *

تمر الأيام متشابهة ثقيلة.

قـد يكون هذا الصباح هو الأخير لنا في واحة السـباع. الأجسـاد الشريفـة المحنطة متجـاورة أمام عرش "داغر"، والذي سـيظل آخر قادة السباع بعد رفض "ضرغام" وأي سبع آخر تولي القيادة بعده.

مـا زال طعـم الماضي الذي ارتشـفناه مـن صندوق الدنيـا مرًّا في حلوقنا. تلك التغيرات العاصفة في أنفسـنا جعلتنا غرباء عن جلودنا ذاتها.

أمسـك بيـد "بكرية" وأسـاعدها كـي تعتلي "ضرغـام" خلفي. الحمائـم والأفاعـي المجنحة تحوم فوقنا وتهيج الرياح. الماء يتسـلل في عروق الأرض تحتنا وينشر طمأنة حانية في زخات المطر.

نعبر الفلاة، نمر بين الأعمدة المهيبة التي تحمل نقوش حياة مجيدة مضت. المقابر، تمسح "بكرية" عبرة فرت من عينيها. ترفع صوتها بموال تحيي فيه الموتى، تردد الحمامات ما تقول ويرد عليها الصدى وصوت الريح.

الحمامة الصغيرة الجديدة تحط على كتفي وتحملق إلى شروق الشمس على الوادي الغربي. حُفَر بلا نهاية تبقر بطن الأرض. لم يتورع الفرنج الملاعين عن سلبنا كل ما نملك.

قرى كوم الحنت الصغيرة تتبدى لنا مع ارتفاع الشمس. لا أعرف وقع مرآنا على الناس ولا أستطيع توقع ما سيحدث.

على مشارف القرى، يجلس جنود الفرنج مستظلين بتعريشة من سعف النخيل. يلتفون حول قدر يغلي بشيْء ما. يرانا أحدهم فأصوب وصديقاي أسلحتنا النارية نحوهم ونطلق الرصاص.

كان هدفنا هو الوصول إلى مكان مقام الشاهين. الشمس ترتفع في السماء ومعها ندور حول القرية كي لا يرانا الناس فيهلعون. أغلب البيوت قد تهدم ورُدم تحت الرمال.

تحط الحمامة الصغيرة الملازمة لي على منزل مهدم قرب الأطلال القديمة. نتوقف وأترجل أنا و"بكرية". نسير إلى حيث ترشدنا الحمامة وهي تنشد:

بعد حر وبعد مر
قالوا في بطنها حجر
الحجر في روسهم
والعمل موكوسهم

روح يا مبشر بوسهم

قل لهم جابت دكر

تقـف الحمامة عـلى باب نحاسي في الأرض. أركـع وأحاول فتحه لكنني أفشـل. تقرب "بكريـة" فمها من الباب وتسـأل إن كان أحد في الأسـفل. صوت أعرفه جيدًا يسأل عمن تكون، فتجيبها "بكرية" باسمها.

يتهلل صوت المرأة وأسمع بكاء رضيع. تشير لي "بكرية" أن أبتعد قليلاً كي لا تفزع المرأة من هيئتي. أختبئ خلف حائط قصير وأراقب مـا يحدث. ينفتح الباب وتظهر أم "نجيـة" حاملة طفلاً دقيق الملامح وعـلى وجهها آثـار جروح غائرة. ترتمي السـيدة في حضـن "بكرية" وتبكـي. تخبرها أنها كانت متأكـدة من عودتها. تسـألها عني وتناولها الطفـل. تدمع عينا "بكرية" وتضمه، تقـف الحمامة على ظهر الصغير وتمسح رأسها فيه.

هو ابني، من زوجتي التي فاضت روحها وهي تنجبه.

* * *

نكمل مسـيرتنا من دون "بكرية"، التي رأيت أنها ستكون في أمان في المخبـأ الـذي تعيش فيـه أم "نجيـة". رغم تمهيد "بكرية" للسـيدة الفاضلـة ما حـدث لي، تراجعَت عدة خطوات حـين رأتني. حدثتها كي تسـمع صـوتي فبدأت تقـترب، تضع كفها على وجهي تتلمسـه. تبكي، تبتسم، ثم تلف ذراعيها حولي وتدور بي سعادة بعودتي.

تعطينـي "بكريـة" ابني الباسـم، يلف أصابعه حـول الريش على صدري ويضحك. ضحكة أمه البريئة نفسها، عيناها نفسهما. لم يرث مني سوى حاجبيّ المعقودين ورموشي الكثيفة.

تحكـي لنا أم "نجية" بينـما يتمتم ابني بحـروف متلعثمة ضاحكة وهو جالس على ركبتي. إنها لم تسـتطع العـودة إلى دارها بعد ما فعله النســاء بها فور معرفتهم بمسـاعدتها لي. سكنت الأطلال وبين الفينة والأخرى كانت تتسـلل لترى نجيـة وتأخذ منها ملابس وطعامًا. ثم عرفـت أم "نجية" أن ابنتها حامل مني بعـد رحيلي بوقت قليل. كان الشـواف منغمسًـا تمامًا في خدمة ليوبارد واسـتضافة قادتـه في بيته. هربـت ومعها ابنتها لا تعـرف إلى أين. قضيا أيامًـا في عراء الأطلال والمطر حتى انكشـف لها ذلك الباب بعد أن جرفت الماء عنه الرمال. حكت لها نجية عني وعن الماء السـحري، فلا بد أن انكشـاف الباب من فعل ذلك السـحر. فتحتـه أم "نجية" ونزلت فما وجدت سـوى ممر آخر مشـابه لذلك الذي كان تحت بيتها. إلا أنه كان معتمًا مهجورًا يقع بين بابين نحاسـيين مغلقين بإحكام. عاشت المرأتان في الأسفل، تتسـلل الأم ليلاً إلى القريـة لتأخذ ما تجود به النخيل والأشـجار من طعـام. حتى جاء يوم الولادة فلم تتحمـل الصغيرة الواهنة الضعف والألم، فماتـت بعـد ولادتها مبـاشرة. اضطرت السـيدة الباسـلة إلى سرقة عنزة كي تطعم الطفل. كانت تبكي إثمها كل ليلة وهي تسـمع أسـلحة الفرنج تدق فوق الرؤوس. أحيانًا كان الاستسـلام والعودة إلى زوجهـا الكريه المخرج الوحيد المتاح مما هـي فيه. لكن قلبها كان يخبرهـا بأن تنتظر. عامان حتـى انطلقت حمامة "نجيـة" نحو الغرب للمرة الأولى منذ وُجدت. كل الحمامات فعلت ذلك في الوقت نفسـه

بعد انقطاع طال. غابت الحمامات فترة أخرى واهتاج جيش الفرنج لسبب لم تعرفه حتى وجدتنا أمامها اليوم.

قبل أن أرحل، أودع "بكرية" وأطلب منها ألا تحرم أم "نجية" من حفيدها. تعانقني "بكرية" وتطمئنني بأن قلب الأم لن يفعل ذلك أبدًا. ستظل معها حتى أعود وسنربي ثلاثتنا الولد. أطيل عناقها وأتمنى أن يمتد بي العمر لأرى ابني الحر حفيد السباع.

* * *

حول الضريح كان معسكر الجنود الأساسي، وقد عرفنا من أم "نجية" أن ليوبارد قد اتخذ دار الشواف مقرًّا له. يرى "ضرغام" أن القائد لا يترك جنوده في وقت كهذا، فعلى الأغلب سيكون ليوبارد وسط جيشه حول الضريح.

نتوقف قبيل الضريح خلف القرى ونعد مدافعنا. الأمطار تحبس الناس في بيوتهم فتخلو الطرقات منهم. رسوم بدائية لعين الشاهين على ما تبقى صامدًا من الأبواب، جعلتني أقشعر. أبعد كل هذا تؤمنون به؟

يزأر "ضرغام" بصوت جهوري، لحظات حتى نرى الأفاعي المجنحة تهاجم سماء المعسكر، بينما تعدو الوحوش المقدسة تخترق الجموع الذاهلة. على الوجوه نظرة مفادها "لقد عادوا مرة أخرى!" مع استسلام واضح من الجنود الذين تفرقوا في طرقات القرية فرارًا. هذه حرب لن يتحملها بشر أبدًا.

يظهر ليوبارد ونائبه يعطيان التعليمات للجنود الذين هجروا

أماكنهم وأسلحتهم. أما من صمد منهم فراح يعبئ المدافع بالبارود.

لم يتصوروا بالطبع أننا نستخدم أسلحتهم ضدهم إلا بعد أن رأوا كرات مدافعنا تطير في الهواء، وتسقط منفجرة وسطهم.

أعتلي "ضرغـام" وأشـق الصفوف والدخـان، قاصـدًا ليوبارد. يلمحني الأخـير من فوق حصانه فيتجمد للحظـات، نظرة في عينيه لم أر مثلهـا من قبـل. فمع الهلـع المتوقع، كانت هنـاك نظرة إعجاب وتقديس لـكل ما يراه من مخلوقات. ذلك الانبهار الذي كنا نشـاهد به صندوق الدنيا في المولد أول مرة.

يخلـع قبعتـه وهو ينظـر إلى الأفاعـي الطائرة في السـماء ثم يحدق ضاحكًا في جنون إلينا. سـبع يعتليه صقر بشري. أرفع سـيف جدي إلى أعلى بينما يزأر "ضرغام" غاضبًا، ينثر الماء والدماء في اندفاعه نحو الرجل.

رصاصـات الفرنج تنهمر من حولي، المسـافة بينـي وبين ليوبارد تتناقص. صوت صيحات بشرية لم أسمعها إلا في ذكريات أجدادي. أنظر خلف ليوبارد لأجد أرضية الضريح تنفجر بخيل ضخم يمتطيه محاربون بزي سماوي لامع مهيب. كأنهم الموج كما وصفه لي "واكد". تسري قشـعريرة في جسدي وأراني أطرق الحديد وأنقش على مفاتيح ضخمـة "أهـل أرض الجنة" باللغة القديمة وأسـلمها للحاكم. تلك مفاتيـح الأبواب النحاسـية التـي صنعتها للممـرات السرية. تحمل وعدًا وتذكيرًا لحامليها للأبد.

كـما أرسـلت إليّ "بكرية" حمامتها وأنا محبوس في منزل الشـواف، استقبل أشراف أرض الجنة رسالتها في منفاهم، وأحسنوا الرد عليها.

تغلي الدماء في عروقي فأقف فوق كتفي "ضرغام" وأقفز على قائد الفرنج أشج رأسه بسيفي، بينما يطيح "ضرغام" بجسده من فوق حصانه ويلتهم قلبه. يستقيم واقفًا على قائمتيه الخلفيتين ويزأر. يرد عليه القوم زرق الملابس بهتافهم الحماسي المحبب "لترابها ننتمي".

* * *

يعود شيخ النحاسين إلى دار أمه فلا يجدها. فقط حمامتها العمياء تتخبط في الجدران، تغني بصوت مشروخ كلمات مختلطة عن الخسيس.

يهرع إلى بيته، فيقابل الشواف الأعور على ضفة الترعة. يخبره أن والدته غاضبة عليه، فهي تشكو إليه تلك الأفكار العجيبة التي يعتنقها وتخاف عليه من الكفر بالولي الشاهين. لذا فقد ذهبت إلى بيته كي تحمي أحفادها مع زوجته الصالحة.

يعرف شيخ النحاسين أن أمه لن تغادر بيتها طواعية دون حمامتها، ويعرف أنها كانت تسمع منه حكاياته عما وجده في أثناء بحثه وتشجعه. فماذا فعل بها هذا المأفون؟ يقترب الشواف الأعور منه ويسأله عن الصندوق. فربما يساعده كي يجده ويفتحاه معًا فيأمن شرور نفسه. لطالما كان فضوله يُروى تحت نظر الشاهين ورعايته.

من بعيد، يلمح زوجته محمرة العينين تأتي. تمسك كفيه وترجاه أن ينسى ما فات، لأجلها ولأجل أبنائها. يجب أن يقاوم تلك الأفكار اللعينة ويسلم صندوق الشر هذا للولي الشاهين. تخبره أن أمه معها ولا يرضيه أن يصيبها سوء.

كانت تتحدث وهي ترتجف، وتنظر بطرف عينها إلى الشواف

الأعور الخبيث الذي يهز رأسه استحسانًا لما تردده من سمومه. ينفجر شيخ النحاسين فيهما، يأمرها أن تعود إلى بيتها ولا تغادره. تتردد المرأة وتنتظر أوامر الشواف، فيصفعها زوجها ويصرخ فيها أن ترحل.

تهرول باكية مبتعدة، بينما يتلقى الشاب ضربه قوية على رأسه تفجر الدماء منه. يتهاوى وهو يهمس كأنما يرى "واكد" صديقه أمامه، يوصيه بطفليه ثم تفرغ منه الحياة.

يلقي الشواف الأعور الصخرة من بين يديه ويدحرج الجسد بساقه إلى الماء. سيجب عليه أن ينتظر حتى يكبر ابن شيخ النحاسين، لن يتركه يبتعد عن عينيه أبدًا حتى يجد له الصندوق.

* * *

ذكرى ليلة السكر تعود لي، الجدة العمياء الباكية، وجوم أمي، الكسر في تمثال الحصان الأجوف. حصان "واكد" هو حصان أبي، وقد مات هو الآخر في سبيل استرداد أرض الجنة.

بقي لي ثأر واحد، الشواف الأعور اللعين. لو كان لولدي أن يحيا على هذه الأرض، فلا بد أن يحيا عليها طاهرة مطهرة من الأنجاس.

أعود راجلاً إلى طرقات القرى العامرة بالفوضى. النسوة تصرخ بينما يقتحم الجنود الفارون بيوتهن ويختبئون فيها. الرجال في ملابسهم الداخلية يقفون مبتلين جوار الحوائط. تلمحني امرأة فتختنق الصرخات في حلقها. تغمض عينيها سريعًا وتهوي ساجدة وهي تصرخ بأن مولاها الشاهين قد عاد فليغمض الجميع الأعين.

يلتفت الجميع حولي ثم يخرون سجدًا. يسود الصمت إلا من

توسلات ملتاعة لي بالنجدة، فلطالما كانوا عبيدًا مخلصين. يرتجف قلبي، للمرة الأولى يراني الناس، يهتفون باسمي. للمرة الأولى لا أكون ظلاً لأحد. أنفض الخاطر عن قلبي وأولي وجهي شطر دار الشواف.

يخرج الشواف الأعور من بيته فيفغر فاه صعقًا، قدمه معلقة في الهواء لا تقدر على إكمال خطواته. أسير نحوه ببطء، مستمتعًا ببياض وجهه وخيط البول الذي ينسل على ساقه ويغرق الأرض تحته.

يهوي ساجدًا ممرغًا جبهته في بوله فأركل رأسه كي يستقيم. يقف منحنيًا مرتجفًا نتنًا أمامي. أدفعه أمامي حتى يدخل البيت وأغلق الباب.

يتجمع الناس حول النوافذ يطرقون خشبها مستغيثين بالشاهين. أدق على النافذة صائحًا فيهم أن يخرسوا.

ينظر إليّ الشواف متسع العينين، متكومًا في ركن جوار أسلحة الفرنج المخزنة عنده. لقد صار كلبهم الوفي، هكذا مقامه. يهمس "سيدي الشاهين" فأمسك وجهه بين أصابعي وأخبره أنني سيده، لكنني لست الشاهين. أعرفه بنفسي، بكل لحظة قضيتها في أسر باطله، بدماء أبي التي أكاد أراها على كفيه.

يقوم واقفًا مستندًا إلى الحائط وعيناه لا تبتعدان عن السيف في يدي. يختصر الوقت والمراوغة ويطلب مني أن أكون الشاهين الجديد، الحقيقي. وسيكون خادمي المخلص. سيجمع لي المريدين من كل حدب وصوب. يمكنني أن أحكم كما أشاء بما أشاء. كل شيء أريده حتى ذهب الوادي الغربي كله. يركع على ركبتيه ويمرغ وجهه في جسدي ويطلب المغفرة.

كأن كلامه قد وجد مسلكًا إلى وهن قلبي، ماذا لو أنهم يستحقون شاهينًا حقيقيًّا ينتقم من كل ما فعلوه لي ولأجدادي وللسباع؟ يتصارع داخلي "ضرغام" و"يزن". هل يستحق البشر فرصة أخرى؟

أجد حبلاً وسط الأسلحة، فأقيده وألقي به في ركن. أخرج للجموع الواقفة في الطرقات وقد صاروا بالمئات. الكل ساجد، الكل يهتف باسم الشاهين. ألست صقرًا؟ ألست شاهينًا؟

أخطوا وسطهم، أتخيلني أجلس على عرشي في موضع الضريح القديم. فمن دون ولي سيتوه الناس ويتخبطون. سيجدون لأنفسهم وليًّا آخر يقي ظهورهم شر عراء الإيمان. فلِمَ لا أكون أنا، المختار؟

يقيم رجل ظهره وهو بعد ينظر إلى الأرض، يشكو إليّ ما فعله الفرنج به وبأولاده. أستطيع أن أصلح كل هذا. لفائف الشاهين الأصلية ما زالت موجودة، يمكنني الاستعانة بمن قرأوها لليوبارد كي يترجموها لي. لو فنيت السباع فأنا أستطيع السيطرة التامة على الجن. لقد شاهدت ما في الصندوق وتعلمت من أخطاء البشر جميعًا. لن أظلم أحدًا، لن أطرد أحدًا. فقط عليهم أن يركعوا لي، فأنا الشاهين.

أرفع عيني فأجد "بكرية" تشق الجموع نحوي. تخبرني أنها لن تستطيع الاختباء بينما قلبها في وسط حرب ضروس. تقترب مني وتتأكد من سلامة جسدي. للمرة الأولى تلاحظ سجود الناس لي. تنظر إليّ متعجبة ثم تهتف بهم أن يستقيموا. فليس عليهم السجود لبشر بعد اليوم.

تلاحظ صمتي، تسألني إن كنت موافقًا على ما يفعلونه. أخبرها أنهم يستحقون وليًّا، فلم لا أكون أنا؟ لقد استحققت كل ما أنا فيه

الآن. أطالبها بأن تتذكر ذلك الضعيف الذي كان يأبى الأكل دون أن تضع الطعام في فمه. ذلك الذي كان ينوء بحمل سلة خبز مملوءة. ألا تراني أستحق؟

تسحبني بكرية وتدخل بي بيت الشواف. تذكرني بالشاهين الذي قابلته في الفلاة، بقصته حول نبل هدفه ومقصده من وراء مساعدة النسوة المستغيثات به. لم يكن ذلك هو الشاهين الحقيقي، بل أنا الآن. تمسك وجهي بين كفيها وتطالبني بأن أتخيل أرض الجنة بعد موتي وكيف ستكون. أخبرها أنني لن أموت إن لم يقتلني أحد. تهمس لي أن الشاهين مات قتيلاً.

هل ما أبغيه لن تكون نهايته كما يهيئ لي غروري بالفعل؟ جدنا "يزن" أبى الخلود كي لا يَفتن أحدًا. لو ضمنت أن يعيش ابني حرًّا، فلِمَ لا أفكر في أحفادي بعد موتي؟ ستدور الرحى مرة أخرى وسيكرر الزمان نفسه. أرى الآن لِمَ قد وُجد صندوق الدنيا من الأساس، ففيه البدايات كلها والنهايات.

تصرخ بكرية وتنظر خلفي، ألتفت لأجد الشواف الأعور قد قطع قيوده ويجري نحوي بخنجر وهو يصرخ. تدفعني بكرية وتسحب السيف من يدي تطير به ذراع الشواف بالكامل. ينهار الرجل والدماء تتفجر من كتفه. يغرس أسنانه في قصبة قدمي بغتة ويجري متجهًا نحو الباب. أهوي بقبضتي على مؤخرة رأسه فيفقد اتزانه ويترنح، تحميه عمامته من قوة الضربة، لكن من قال إنني كنت أبغي قتله؟

أسحبه من ملابسه وأجره جرًّا إلى الخارج و"بكرية" خلفنا. يسجد الناس فآمرهم برفع الرؤوس والنظر إليّ والسمع. أخبرهم أن هذا الرجل هو من صنع وهم الشاهين، هو من مرغ جباههم

في تـراب المذلة، وهو من انتهك أعراض نسـائهم وحوّل رجالهم إلى دُمى. واليوم ينكشف.

تتقدم امرأة غاضبة من الشـواف وتبصـق في وجهه، ترفع صوتها موجهـة حديثهـا إلى النسـاء والرجـال مـن خلفها، تخبرهـم أن هذا الرجل المقيت قد عصى الشاهين وكفر به وجعلهم يضلون عن طريق الشاهين وهُداه. تطالبهم أن يثأروا منه ويرضوا مولاهم الذي عاد.

تنقض النسـاء عليه مفرغات فيه غضبهـن وخوفهن. أوقن بأنهن يعرفـن الحقيقة منذ دخل الفرنجة البلد ولم يبال شـاهينهم به، لكنهن لا يستطعن التحديق إلى ضياء الحق، العمى أكثر أمنًا.

يغـوص قلبـي في صـدري وصراخ الشـواف يتعـالى. القبضات والأفواه الدامية تغوص وتطفو أمـام ناظري. أمقتكم يا أهل الظلام وأمقت زيفكم. تمسـك "بكرية" كفـي وتحط على كتفي حمامة "نجية" تمرغ وجهها في عنقي. لن يعيش ابني عبدًا وسط عبيد.

يصمت صوت الشواف وأنا أبتعد، بعيدًا عن الضريح والطرقات الموحلـة والأرواح المظلمة. يتمسـك الناس بملابـسي، وجوه راجية شائهة تدعوني كي أعفو عنهم، كي أكون صنمهم الأجوف.

أعين الشـاهين المرسومة على الأبواب تحاوطني يمنة ويسرة كلعنة أبدية، تجيب عن سؤالي، هل يستحق بشر كهؤلاء فرصة أخرى؟

لم أستطع أن أنقذ قومي يا "يزن" ولم أستطع أن أنقذ نفسي.

* * *

عـلى التـل المشرف عـلى المقابر نقف، أنـا و"بكريـة" و"ضرغام"

والسباع. يرقد الآن الأبطال محنطين تحت تراب أرض الجنة كما كانوا في الماضي. لقد فني كل ذوي الأقنعة، ولم يتبق من السباع إلا "ضرغام" وخمسة آخرين. يقف عدد من شرفاء أرض الجنة جوارنا، يتلون الصلاة للإله الواحد، ويفرغون أكياس تراب أرض الجنة في الهواء، فينثرها فوق المقابر ويحمل بعضها إلى القرى.

في باكر اليوم نفسه، قمنا بدفن "واكد" أنا و"بكرية" في البقعة التي كان يحب الجلوس فيها في الأطلال مع سرج حصانه وحصان أبي، حملت ابني للمرة الأخيرة وقلت له إنني أحبه، ولأنني أحبه فلا بد أن أرحل.

تبكي "بكرية"، تسألني إن كنت سأعود يومًا لأراها، فأخبرها أن عودتي لن تكون في صالح أحد، لقد مت يوم تلقيت عنها رصاصة الفرنج. لن أكون شاهينًا آخر يفتن الناس أو يستغل أحد ذكراي في إضلالهم.

أعتلي ظهر "ضرغام" وننزل التلة متجهين غربًا، بينما يعود أهل أرض الجنة إلى جنتهم التي ما عادت مفقودة. ستكون "بكرية" وابني وجدته في أمان مع من لم ينسوا الحق يومًا. ربما تتزوج "بكرية" بأحدهم وترزق بالبنات والبنين، ربما تحكي لهم عن الفتى الضعيف ذي القلب الذي احتار فيه ميزان القوة والشجاعة. ستحكي لهم عن السباع الأسطورية وعن إله عظيم واحد يسمع ويرى، اختارنا من سائر خلقه لنحبه ويحبنا.

في واحة السباع ألقي و"ضرغام" صندوق الدنيا في الماء، ثم نجلس على الضفة وسط غناء الحمامات وترانيم المستورة. ينظر إليّ "ضرغام" ويبتسم، يخبرني أنه قد حصل على رفقة أخيه "يزن" رغم

كل شيء. أريـح رأسي على كتفه وأغلق عينـي. فغدًا نرحل إلى حيث لا يجدنا بشر لنحيا معًا للأبد، فلا حاجة لأرض البشر إلا إلى البشر.

* * *

في فـلاة مهجورة شرق أرض الجنة، النسـوة بشماسـاتهن المهترئة وأطفالهن العرايا إلا من الأحجبة حول أعناقهم، يلتفون حول النار، تقرأ النساء من لفافات قديمة ويتمايلن في تناغم.

لم تعـد أرض الجنـة ترحب بهن بعد استسـلام رجالهـن للحكام الجـدد زرق الملابس، وهن لن يتركن ولاءهن للشـاهين أبدًا بعد كل ما ضحين به من أجله.

النار ترسـل ظلالهـن طويلة مهيبـة في ظلمة الليل. يشـق الهدوءَ صـوتُ الرياح. الرمـال تتحرك تحت أقدامهن. غراب أسـود ضخم يحط وسطهن فيركعن، ويبتسمن.

النهايـة

مارس ٢٠١٧
سبتمبر ٢٠١٨



كان كل ما يملك هو سيف جده ابن السباع وخوذته، وأخت هي عالمه وعزوته. بلا اسم، يمضي البطل محطمًا تماثيل السُّكَّر الوردية، كاشفًا عن حقيقة الأجساد المتعفنة داخلها. يهلع، يخفي قلبه المراهق في أضلعه ويتساءل، هل يعود لـ"كوم الحنت" ويخضع للولي الشاهين كسائر أهله، أم يعبر الفلاة المحرمة التي لم يعد أحد منها، ويواجه غضبة السباع المنفية بقوة سحر الجان وألاعيب الظل؟



شيرين هنائي، كاتبة روائية ومخرجة رسوم متحركة وكاتبة سيناريو مصرية، ومحاضرة معتمدة من الأكاديمية العالمية للفنون والإعلام والإبداع بالولايات المتحدة في مجال ورش التدريب على الكتابة الإبداعية والروائية. صدرت لها روايتان مصورتان للكبار "كوميكس"؛ هما "عجين القمر" و"الموت يومًا آخر". وفي مجال الروايات الطويلة، صدرت لها روايات "نيكروفيليا" 2011، "صندوق الدمى" 2012، "طغراء" 2014، "ذئاب يلوستون" 2015، "أسفار النهايات" 2017، وتعتبر "ملاعيب الظل" هي روايتها السادسة.



تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف